الموجز في
علوم القرآن الكريم

الموجز في علوم القرآن الكريم

من إفادات آية الله الشيخ الدكتور
محمد الصادقي (دامت إفاداته)

بقلم

الشيخ عبدالعظيم المشيخص

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة الأستاذ الشيخ الدكتور
الصادقي (دامت بركاته)

هو: آية الله العظمى الشيخ الدكتور محمد بن رضي بن محمدبن علي بن ملا محمد بن حسين الخونساري الطهراني.

ولد في مدينة طهران في مدينة مصليه بندر إحدى قرى طهران في الجمهورية الإسلامية الإيرانية عام (١٣٠٥ شمسي قمري) وانتقل مع أبيه إلى مدينة قم المقدسة وهو صغير لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، أدخله والده الحوزات العلمية حتى أنهى مراحلها إلى السطوح، ثم عاد إلى طهران والتحق بالجامعات الأكاديمية وتجاوز مراحلها، ونال شهادة الدكتوراه في العلوم الإلهية قسم الفلسفة والعرفان الإسلامي، ثم عاد إلى قم، وتتلمذ على أعلامها أمثال:

١ - آية الله أغاحسين البرجردي قُدِّسَ سِرُّه.
٢- وآية الله السيد حسين الإشتياني الأصفهاني قُدِّسَ سِرُّه.
٣- وآية الله السيد محمد حسين الطباطبائي قُدِّسَ سِرُّه.
٤- وآية الله السيد محمد الآملي قُدِّسَ سِرُّه.
٥- وآية الله روح الله الخميني قُدِّسَ سِرُّه.

وأغلبهم أجازوه بالاجتهاد. هذا في إيران.

إلى أن انتقل إلى النجف الأشرف وتتلمذ فيها على يد أكابر أعلامها وجهابذتها في ذلك الوقت، حضر بحوث الخارج للإمام الخوئي فترة طويلة، حتى أجازه بالاجتهاد(١)، ثم انتقل الشيخ إلى لبنان، والسعودية في مكة المكرمة، ومصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي للتبليغ والإرشاد والتدريس.

ثم عاد إلى قم المقدسة، وكان شغله الشاغل تدريس المباحث العلمية من أصول وفقه، وتفسير، ولغة وبلاغة، حتى تخرج على يديه الشريفتين عدد كبير من أعلام الحوزة العلمية.

نتاجه العلمي:

يُعد آية الله الصادقي (حفظه الله) رائد مدرسة مزجت الفقه بالتفسير، فهو يرى أن الفقه لا يُفهم إلا من خلال التأمل الدقيق في كتاب الله، وكتاب الله فقط، والقارئ المطلع على مبانيه الفقهية يرى ذلك بوضوح تام، فالشيخ (حفظه الله) يرتكز في أصول الاستنباط على كتب الله، وإذا حاجته الحاجة إلى السنة الشريفة، ففي نظرته العلمية لأصول الاستنباط أن كتاب الله لم يترك شاردة ولا واردة إلا وتحدث عنها، فهو كما قال عن نفسه ﴿**تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾.

فالشيخ (حفظه تعالى) مضافا إلى بحوثه العلمية في الخارج لسنوات

---

(١) نص الإيجازة عندنا منها نسخة خطية ونصها كالتالي: الحمد الله رب العالمين وصلى الله على خير خلقه وأفضل بريته محمد وعترته الطاهرين وبعد فلا يخفى على المؤمنين وفقهم الله تعالى لمراضيه أن ولدنا فضيلة العلامة المجاهد حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ محمد الصادقي دامت توفيقاته قد صرف شطراً عظيما من عمره وتحصيله العلوم الشرعية وفازفيها برتبة الاجتهاد وكان مدرساً في الحوزتين المباركتين، فحكمه حكمي وأذنه أذني وعلى المؤمنين إكرامه واحترامه والاعتناء بشأنه وهو دامت توفيقاته مأذون من قبلنا في التصدي للأمور الحسبية المنوطة بأذن الحاكم الشرعي كما أنه مأذون في صرف ما يقبضه من الحقوق الشرعية في معاشه وسائر الموارد وأوصيه التقوى وسلوك سبيل الاحتياط فإنه طريق النجاة والسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

طويلة عكف على تفسير القرآن الكريم لمدة تزيد على أربع عشرة سنة متواصلة، كما أنه ألقى بحوثه في التفسير في الحواضر العلمية الشيعية والسنية، فدرس التفسير في النجف الأشرف، وفي لبنان في مدرسة السيد موسى الصدر الذي أمره شخصيا أن يدرس فيها التفسير والفقه، وفي مكة المكرمة في أروقة الحرم المكي لمدة سنتين متصلتين، وفي قم المشرفة حيث أسس وفق منهجه في تفسير كتاب الله (جامعة علوم القرآن الكريم) التي تخصصت مناهجها العلمية في علوم القرآن، تفسيرا، وتجويداً، وعلوماً) ويصل تعداد طلابها المنتشرين في أرجاء العالم الإسلام إلى ما يقرب (١٥٠٠) طالب قرآني بين حوزوي وأكاديمي. وإلى هذا اليوم من عام ١٤٢٦هـ لازال (حفظه الله تعالى وأبقاه) يزاول تدريس الفقه والتفسير.

أما عن مصنفاته العلمية، فالشيخ (حفظه الله تعالى) تمكن خلال هذا العمر الشريف في خدمة الدين والشريعة الإسلامية من تصنيف عدة مصنفات قيمة وهي كما يلي:

أهم مصنفاته:

١- تفسير الفرقان في تفسير القرآن (٣٠ مجلدا): يُعد هذا التفسير من أمهات التفاسير الإسلامية، ويتميز على سائر التفاسير أنه يعتمد في فهم النص القرآني على القرآني نفسه، وهذا ما يُعبر عنه في مصطلحات علوم القرآن بـ(تفسير القرآن بالقرآن).وقد أثني عليه جمعٌ غفير من أعلام التفسير من بينهم صاحب الميزان، آية الله السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره وإليك نص كلمته:

فضيلة شيخنا الشيخ الدكتور محمد الصادقي المحترم (دامت إفاضاته)

السلام عليكم ورحمة الله بركاته:

زارنا مجلدين من تفسيركم الشريف (الفرقان) مع كتابكم الكريم،

فبعد فراق طويل بيننا بأعوام عدة، وانقطاع أخباركم عنا بزمن بعيد، يسرني أن وصلني نبأ صحتكم وتوفيق سماحتكم، فحمدت ربي، وأرجو منه سبحانه وتعالى أن يقرنكم دائما بالعافية والتوفيق، وأن يسدد خطاكم، ويؤيدكم بألطافة وعناياته الخاصة.

إن تفسير (الفرقان) الشريف الذي زرته، إنه لكتاب يقرُ عيوننا وهو سند عزنا وأصلٌ من مفاخرنا -نحن المفسرين- إن شاء الله تعالى تكرس كافة طاقاتك وإمكاناتك وتبذل جميع مساعيك في مواصلة هذا الأسلوب الفريد من التفسير الفريد من التفسير - أعني- تفسير القرآن بالقرآن، فلا تمل ولا تكسل ولا تفشل في هذا المشروع العظيم، خدمة للمعارف القرآنية، وكشفاً للقناع عن ذخائر هذا الكتاب المكنون السماوي، وأرجو من الله عز اسمه التوفيق وأن يؤيد سماحتكم في هذه السبيل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٢- التفسير الموضوعي في القرآن الكريم (٢٠ مجلدا): وهو تفسير للقرآن الكريم على حسب موضوعاته.

٣- البلاغ في مختصر تفسير الفرقان: وهو مختصر تفسير القرآن الكريم، لكي يتسنى لقارئ القرآن أن يفهم معانية، وكان القصد من وضعه ليسهل تناوله في أيدي المسلمين وهو مجلد واحد من القطع الكبير.

٤- توضيح المسائل الشرعية: (رسالة عملية) من مباحث التقليد إلى الحدود، تناول فيها سماحته آرائه الفقهية على شكل (مسائل)، باللغتين (العربية، والفارسية).

٥- رسالة التبصرة: وهي شرح لتبصرة المتعلمين في أبواب الفقه العملي(الفتوائي).

المسافرون (رسالة في نفي القصر في السفر) وقد أثبت فيها سماحته أنه لا قصر في السفر، والآية التي يمكن الاعتماد عليها نزلت في حادثة.. في واقعة، وأورد سماحته في هذه الرسالة ما يعارض القول بقصرية الصلاة في السفر من خلال بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

٧- أصول الاستنباط: وهو عبارة عن، مبانيه العلمية التي يرتكز عليها في عملية أصول الاستنباط الفقهي من خلال المصادر الشرعية، إلا أنه (حفظه الله تعالى) اقتصر على مصدرين من مصادر الاستنباط عند الفقيه وركز عليهما ألا وهما: (القرآن والسنة المطهرة) وإن كان لا يهمل بقية المصادر، إلا أنه يرى أن المهم في عملية الاستنباط الاعتماد على القرآن والسنة بدرجة أولى.

٨- علي والحاكمون: وهو من المصنفات التي أثبت فيها سماحته عظمة الإمام علي عليه السلام.

٩- حوار بين الإلهيين والماديين: مقارنات علمية بين مدرستي الإلهين والماديين، وهو من الكتب المنهجية التي تدرس في بعض الجامعات العربية.

١٠- فتياتنا: كتاب قيم، يُعد من البحوث العلمية التي ناقشت مسألة (الحجاب الإسلامي) إذ تمكن سماحته من إثباتها من خلال النصوص القرآنية الشريفة، وتطبيقها على واقع المجتمع النبوي في عهد الرسالة(١).

١١- المناظرات: وهي عبارة عن بحوث علمية في مختلف الشؤون العلمية، فقها، وأصولا، وفلسفة، وبلاغة مع مجموعة من الأساتذة والتلامذة والخصوم، وهي لا تزال مخطوطة إلى كتابة هذه السطور.

---

(١) طبع في دار أهل البيت للثقافة والفكر، في دولة البحرين.

١٢- حوار بين أهل الجنة والنار: وهي نماذج من الآيات القرآنية التي تحدث عن سمات أهل الجنة وأهل النار، ومقدار النعيم للمتقين، والعذاب للمنحرفين..

١٣- رسول الإسلام في الكتب السماوية: عبارة عن مجموعة البحوث العلمية أثبت سماحته من خلالها التباشير بنبوة النبي ﷺ في الكتب السماوية القديمة والتي مستها يد التحريف المعاصرة.

١٥- عقائدنا: دراسة مقارنة بين عقائد الكتب السماوية الثلاث. وهو من أعلى الكتب التي ناقشت مسألة الكتب السماوية الثلاثة، فقد حاور فيه سماحته (اليهود، والنصارى) من خلال كتبهم ليثبت لهم وللعالم اليهودي والمسيحي بأنهم حرفوا كتبهم السماوية، ويثبت لهم أن الكتب السماوية التي جاءت لأنبيائهم تختلف تماما عما عندهم اليوم، وأن القرآن عند المسلمين مصون لا تحريف فيه ولا زيادة منذ عهد نزوله على رسوله النبي ﷺ وإلى هذا اليوم وإلى غدٍ، وجاء على شكل مناظرات بينه وبين علمائهم. وطبع الطبعة الأولى عام (١٣٩٢هـ)، ويشمل التحقيق المقارن عن التوحيد والنبوة والمعاد، على ضوء ما جاء في الديانات السماوية الثلاث، حتى عدت بحوثه من أرقى البحوث الجلية التي قارنت بين الديانات الثلاث، قال بحقه آية الله السيد موسى الصدر عندما طبعت أول نسخة من منه ووزعت في بيروت وتناولتها الأيدي بالخصوص من الديانات السماوية الثلاث لاسيما المسيحية: إن بعض الأساتذة من المسيحية في بيروت عندما قرؤوا كتاب الشيخ الصادقي قالوا: إن الشيخ الصادقي ذبحنا بسكيننا نحن إذ يستدل علينا بكتبنا فأخرنا عن دعاياتنا مائة سنة، وكان الأستاذ (الحداد البيروتي) رئيس مطارنة بيروت بجونية رد على الكتاب ولكن كانت ردوده ردا على المسيحية[١].

(١) نص المقال في مقدمة كتاب (عقائدنا ص ١١).

كما أنه أشاد بهذا الكتاب أيضاً أية الله العظمى الشيخ مرتضى آل ياسين قدس سره وإليك نص كلمته:

الحمد لله والصلاة على من لا نبي بعده وعلى آله الطيبين الطاهرين وبعد، مؤلف هذا الكتاب القيم فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الصادقي (دام تأييده) هو من أولئك المؤلفين النابهين الذين جمعوا بين الثقافتين وفازوا بكلتا الفضيلتين، فكان لهم من معارفهم المتنوعة ينبوع ثري لا يفتأ يتدفق بالمعقول والمنقول، ويفيض بالمفيد المفيد من البحوث التي قلما يتطرق إليها الباحثون ويضطلع بها المؤلفون، ولعل التوفيق الإلهي شاء أن يبارك أفهامهم وأقلامهم فيجعلها وسيلة طيبة تستنير بأضوائها الأفكار والعقول أشد ما تكون حاجة إلى الاستنارة بمثل تلك الأضواء، وما هذا الكتاب الذي بين يديك إلا نموذج من تلك النماذج التي جادت بها تلك الأقلام النيرة الموسومة بطابع التوفيق، وإنه لمجهود كبير، قيم يشكل أشنع وصمة في جبين المسيحية التي كانت ولا تزال تهاجم بشتى الوسائل المزيفة والأناجيل المزورة المحرفة، وسيكشف لك هذا الكتاب عن مدى هذه الأباطيل المدسوسة كذباً في الأناجيل ويعرفك بما فيها من سخافات وخرافات أعجب ما تدعو إليه من العجيب، أنها تنبو عن مستوى العقل البشري وقد آمن بها مئات الملايين من البشر.

وهكذا يفعل الشيطان بأوليائه إذ يزين لهم الباطل فإذا هم به مؤمنون ويضلهم عن الحق فإذا هم به كافرون.

وما زالت بليتنا (نحن المسلمين) بهؤلاء البشر تتمادى قرناً بعد قرن وتتفاقم جيلاً بعد جيل، منذ أن انبثق نور الإسلام في أفق الجزيرة وحتى يومنا هذا، وعلى حين أن الإسلام ما زال ولا زال يشق طريقه قدما إلى الأمام وينشر أشعته الوهاجة شطر المشرق والمغرب، دون أن يعتمد في نشر دعوته على أي درهم أو دينار ودون أن تحد في مسيرته الميزانيات الدولية الضخمة

التي تغذي بأموالها على صناديق التبشير بكل سخاء، في كافة أنحاء العالم.

ومن المؤسف أن الإسلام كلما ازداد اتساعاً وانتشارا ازداد هؤلاء المحرفون من البشر تنكيراً له وتنمراً مع العلم بأن تمادي هؤلاء على مناوأتهم للإسلام بهذا الشكل الفظيع، مع شعور الجماهير بسخافة ما يدعون إليه، قد أصبح من أقوى العوامل المؤدية إلى تفشي الفساد بين الجماهير وتحلُلها من كل دين وعقيدة، وكأن تفشي المادية في نظر هؤلاء أهون عليهم من تفشي الإسلام، ولأن يصبح الرجل مادياً ملحداً عندهم خير من أن يصبح محمديا مسلماً.

ولذلك يجب أن يعلم هؤلاء ويعلم معهم جميع شعوب العالم بأن تفشي المادية هنا وهناك ما هو إلا نتيجة هذا التبشير المسيحي الفاشل الذي أنشب مخالبة في كل مكان وعليه تقع مسؤولية هذه المادية الملحدة التي أصبحت تهدد كل الملل والأديان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مرتضي آل ياسين، في ١٤- ٣- ١٣٨٨هـ. النجف الأشرف.

١٦- مقارنات فقهية: كتاب يحتوي على أهم المسائل الفقهية التي درسها دراسة معاصرة على ضوء القرآن والسنة المطهرة، وهي- أي هذه الدراسة- تعتمد الخطاب المعاصر في مسائل الفقه والتجديد، وقد أشار (حفظه الله تعالى) إلى القول: إن خطاب القرآن وعلومه الكثيرة كفيلة باستيعاب متطلبات الزمان والمكان، فكلما تقدم الزمان وتغير المكان، فإننا نجد القرآن العظيم يستوعب التطور والتغيير[1].

١٧- تاريخ الفكر والحضارة: وهي مجموعة دروس ألقاها (حفظه الله) في بيروت عام١٣٩٤هـ عندما استضافه سماحة الإمام المغيب السيد موسى الصدر. وتضم هذه الدراسة بحوثا عميقة عن مختلف تطورات الفكر

(١) مقارنات فقهية، ص ٢-٦.

والحضارة طوال التاريخ[١].

مساهمات الشيخ في الثورة الإسلامية:

لقد كان هناك ارتباط وثيق بين الشيخ الصادقي (حفظه الله) وبين سماحة الإمام الخميني قدس سره وهذا الارتباط جعل الشيخ الصادقي يساهم ويشاطر الإمام الخميني قدس سره في ثورته المباركة التي حدثت عام ١٤٠٠هـ والتي على آثرها انتصرت الثورة الإسلامية في إيران.

وقد كان الشيخ (حفظه الله تعالى) من أوائل الذين تنبؤوا بفساد أُسرة الشاة، فقد ألقى خطابا عام (١٣٤١هـ) في المسجد الأعظم بقم المقدسة يحرض فيه الجموع الحاضرة من مراجع وأعلام وطلاب ومثقفين، على النهوض بثورة ضد الشاه، فما أسرع ما تظاهر الناس واضطربوا في قم المقدسة، فطلبته أجهزة الشاه، عندها غادر الشيخ الصادقي إيران متوجها إلى السعودية، واستقر فيها قربة سبعة عشر عاما منفيا عن بلده، وقد حكم عليه الشاه في تلك الفترة بالإعدام غيابيا، وفور وصوله إلى الأراضي السعودية استمرت حملات الشيخ حفظه المناوئة ضد سياسية الشاه، فصار يتعرض لسياسته في أروقة الحرم المكي عقيب تفسيره للقرآن الكريم، فطلب الشاه من السلطات السعودية اعتقاله، فاعتقل عندها، وبعد شهور أطلق سراحه بأمر من الملك فيصل، وكان يشغل حينها منصب رئيس الوزراء السعودي، وطلبت الأجهزة السعودية مغادرته الأراضي السعودية، فخيروه فغادرها إلى النجف الأشرف، وكانت هذه الإقامة الأولى له في السعودية[٢].

(١) طبع مرة واحدة عام١٩٧٤م في مطبعة دار الثراث الإسلامي، بيروت.
(٢) وقد أسهبنا القول بترجمة ضافية عن حياته في كتاب مستقل فراجعه.

والذين يمسكون بالكتاب
وأقاموا الصلاة
إنا لا نضيع أجر المصلحين
سورة الأعراف الآية ١٧٠

جامعة علوم القرآن - قم ١٣٥٨هـ.ش

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

وبعد، فهذا الكتاب الشريف المنيف (الموجز في علوم القرآن)
الذي ألّفه الأستاذ الفاضل سماحة الشيخ عبد العظيم المشيخي عظّم الله
وشحنه على ضوء القرآن الكريم، من بعض بحوثه القرآنية التي دوّنها
قبل عام تقريباً، أحببنا أن نلفت النظر إليها، ليهتم به طلاب علوم القرآن
لكي يقتبسوا من أنواره المضيئة، وأسراره المتقنة، ويجعلونه منهجاً
دراسياً حول القرآن العظيم، وكانت هذه التقريرات من الأستاذ
لكن بدرجة الدكتوراه في العلوم القرآنية. والسلام على جميع عباد الله الصالحين
الذين يدرسون القرآن في كافة العلوم الإسلامية، ويستأنسون

تحريراً قم المشرفة: محمد الصادق
الطهراني
١٤٢٦-٥-٢٠

نص الكلمة التي تفضل بها سماحة الإستاذ(حفظه الله تعالى):

الحمدلله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

وبعد، فهذا الكتاب الشريف المنيف(الموجز في علوم القرآن) الذي ألفه الأستاذ الفاضل سماحة الشيخ عبدالعظيم المشيخص عظمه الله وشخصه، على ضوء القرآن الكريم، من بعض بحوثنا القرآنية التي دونها قبل عام تقريباً، احببنا أن نلفت النظر إليها ليهتم بها طلاب علوم القرآن لكي يقتبسوا من آراءه المضيئه ومفاهيمه المقنعه، ويجدونه منهجاً دراسياً حول القرآن العظيم، وكانت هذه التقريرات من الأستاذ بدرجة الدكتوراه في العلوم القرآنية، والسلام على جميع عباد الله الصالحين الذين يواصلون القرآن في كافة العلوم الإسلامية ويستأصلون غيرها.

قم المشرفة: محمد الصادقي الطهراني.في، ٢٠-٥-١٤٢٦هـ.

الدرس الأول:

كيفية تفسير القرآن الكريم

يعد البحث عن طرق التفسير في القرآن الكريم من البحوث العلمية التي عنت بها الأمة الإسلامية منذ العهود الأولى لنزول القرآن الكريم، فلقد أقبل العلماء على دراسة كتاب الله المجيد بشوق وشغف وتقديس، وكتبوا عنه أبحاثا علمية قيمة، أطلقوا عليها (علوم القرآن الكريم) وكانت هذه العلوم كثيرة العدد، فقد أرجعها بعض الباحثين أنها خمسون علماً، وأخر إلى أربعمائة علم، وثالث إلى ألف علم على عدد كلم القرآن الكريم مضروبة في أربعة أي تساوي (٧٧٤٥٠) ورابع إلى سبعة آلاف علم[١].

فعلم التفسير يشتمل على دراسة القرآن باعتباره كلاما ذا معنى، فيشرح معانيه، ويفصل القول في مدلولاته، ومقاصده. ولأجل ذلك كان علم التفسير من أهم علوم القرآن وأساسها جميعا. وقد يعتبر القرآن بوصفه مصدرا من مصادر التشريع، وبهذا الاعتبار يكون موضوعا لعلم آيات الأحكام، وهو علم يختص بآيات الأحكام من القرآن، ويدرس نوع الأحكام التي يمكن استخراجها بعد المقارنة لجميع الأدلة الشرعية الأخرى

(١) الإتقان، السيوطي ج ١ ص ١٢٨.

من سنة، وإجماع، وعقل. وقد يؤخذ القرآن بوصفه دليلا لنبوة النبي محمد ﷺ فيكون موضوعا لعلم أعجاز القرآن، وهو علم يشرح: أن الكتاب الكريم وحي الهي ويستدل على ذلك بالصفات والخصائص التي تميزه عن الكلام البشري.

وقد يؤخذ القرآن باعتباره نصا عربيا جاريا وفق اللغة العربية فيكون موضوعا لعلم إعراب القرآن، وعلم البلاغة القرآنية، وهما علمان يشرحان مجيء النص القرآني وفق قواعد اللغة العربية في النحو والبلاغة.

وقد يؤخذ القرآن بوصفه مرتبطا بوقائع معينة في عهد النبي ﷺ فيكون موضوعا لعلم أسباب النزول. وقد يؤخذ القرآن باعتبار لفظه المكتوب، فيكون موضوعا لعلم رسم القرآن، وهو علم يبحث في رسم القرآن، وطريقة كتابته. وقد يعتبر بما هو كلام مقروء، فيكون موضوعا لعلم القراءة، وهو علم يبحث في ضبط حروف الكلمات القرآنية وحركاتها، وطريقة قراءتها إلى غير ذلك من البحوث التي تتعلق بالقرآن(١).

ومن أهم تلكم العلوم (علم التفسير).

وهو رفع الإجمال، والتفسير تفعيل، أو مشتق من السفر، وهو يخضع إلى طائفة من أراء وتعريفات وهي:

التفسير لغة:

التفسير في اللغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾(٢) أي: بيانا وتفصيلا، وهو مأخوذ

(١) الحكيم: تفسير سورة الفاتحة ص١٢.

(٢) تفسير الفرقان: ٣٣، ج١، ص٣٣.

من الفسر، وهو: الإبانة والكشف. قال الفيروز آبادي[١]: والفسر:هو الإبانة وكشف المغطى، كالتفسير، والفعل كضرب ونصر. وقال ابن منظور[٢]: التفسر: البيان، فسر الشيء يفسره - بالكسر - ويفسره - بالضم - فسرا، وفسره: أبانه، والتفسير: مثله... والتفسر: كشف المغطى، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل. وقال أبو حيان[٣]:... ويطلق التفسير أيضا على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس: عريته، لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري. وعلى ذلك: فالمادة تدور حول معنيين[٤]: الكشف المادي المحسوس، والكشف المعنوي المعقول. وقيل: إن أصل الكلمة من التفسرة، وهي الدليل من الماء ينظر فيه الطبيب، فيكشف عن علة المريض، كما يكشف المفسر عن شأن الآية وقصتها.

التفسير اصطلاحا:

عرفه السيوطي قائلا[٥]: هو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، وبيان محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، ونحو ذلك.

---

(١) القاموس المحيط " فسر "، ج١، ص٥٤.
(٢) لسان العرب: مادة، فسر، ج٣، ص٣٣.
(٣) البحر المحيط: ج١، ١٣.
(٤) التفسير: معالم حياته - منهجه اليوم - أمين الخولي ص ٥، و التفسير والمفسرون، للذهبي ج١، ص١٥، و نظر: تفسير الثعالبي - الثعالبي ج ١ ص ٤٠.
(٥) الاتقان، ج٢، ص١٧٤، ص٥٥.

وعرفه أبو حيان فقال[١]: هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك..وفيه قصور وغموض... وتعريف الزركشي أوضح من التعريفين السابقين، إذ يقول[٢]: التفسير: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ. وهناك تعريفات أخرى - غير ما ذكرنا وكلها تتفق. على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد[٣].

وبناء على ما تقدم، فهل يختص التفسير بحالة ما إذا لم يكن للفظ ظهور فيكون إظهاره تفسيرا؟ أم أن التفسير عام وشامل لحالة بيان المعنى الظاهر؟ هناك اتجاهات مختلفة في الإجابة عن هذا التساؤل، نذكر منها اتجاهين:

الأول: الاتجاه الذي يمثل الرأي السائد لدى علماء أصول الفقه والذي يرى أن التفسير لا يكون إلا في:

أ - إظهار أحد محتملات اللفظ مع تساويها، وإثبات أنه هو المعنى المراد.

ب- إظهار المعنى الخفي غير المتبادر، وإثبات أنه هو المعنى المراد بدلا

(١) البحر المحيط ج ١ أو ما بعدها.

(٢) البرهان: ج ١، ص ٣٣.

(٣) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ج٢، ص ٢٩٤، و تفسير البغوي ١ج، ص١٨ ط المنار.

من الظاهر المتبادر. وأما ذكر المعنى الظاهر المتبادر من اللفظ فلا يكون تفسيرا. الثاني: وهناك اتجاه آخر - وهو الصحيح - يرى أن ذكر المعنى الظاهر قد يكون في بعض الحالات تفسيرا أيضا وإظهارا لأمر خفي، كما أنه في بعض الحالات الأخرى قد لا يكون تفسيرا لأن المعنى يكون واضحا وليس فيه خفاء أو غموض، وقد اصطلح على الظهور الأول (بالظهور المعقد) وعلى الثاني (بالظهور البسيط). الظهور البسيط والظهور المعقد: فالظهور البسيط هو: الظهور الواحد المستقل المنفصل عن سائر الظواهر الأخرى، كظهور جملة (أذهب إلى البحر في كل يوم)، ولا يعتبر إبراز المعنى على أساس هذا الظهور تفسيرا. وأما الظهور المعقد: فهو الظهور المتكون نتيجة لمجموعة من الظواهر المتفاعلة كظهور جملة (أذهب إلى البحر في كل يوم وأستمع إلى حديثه) فلجملة (أذهب إلى البحر في كل يوم) ظهور خاص بها، ولجملة (وأستمع إلى حديثه) ظهور خاص بها قد يبدو انه لا يناسب الأول إذ لا يوجد للبحر حديث، ولا بد من دراسة تفاعل هذين الظهورين فيما بينهما واستحصال الظهور الناتج من هذا التفاعل، وهو المعنى الذي يريده المتكلم الذي هو (الذهاب إلى العالم المتبحر في العلم والاستماع إلى حديثه). ونتيجة لهذا التعقيد في التركيب أصبح للكلام درجة من الغموض والخفاء جديرة بالكشف والإبانة، ولهذا صح اعتبار إبراز المعنى على أساس هذا الظهور تفسيرا. وعلى هذا فإن التفسير وفق هذا الاتجاه الثاني يشتمل على:

أ - بيان المعنى في موارد الظهور المعقد.

ب- إظهار أحد محتملات اللفظ وإثبات أنه هو المعنى المراد.

ج- إظهار المعنى الخفي غير المتبادر وإثبات أنه هو المعنى المراد، بدلا من الظاهر المتبادر. التفسير معنى إضافي أو موضوعي: وبناء على الاتجاه

المذكور، نعرف أن التفسير معنى (إضافي) لأنه بيان للمعنى وتوضيحه حتى في موارد ظهور اللفظ. وعندئذ فالمعنى الظاهر قد يكون بحاجة إلى بيان وكشف لشخص دون آخر، فهو تفسير بإضافته للأول، ولا يكون تفسيرا بإضافته للثاني. وأما على الاتجاه الأول، فإن للتفسير معنى (موضوعيا) لا يختلف باختلاف الأفراد، لأننا نلاحظ فيه (اللغة)، فإن كان معنى اللفظ لغة هو المعنى الذي يقتضيه استعماله اللغوي، فلا يكون كشفه تفسيرا وإن اكتنفه بعض الخفاء والغموض، وأما إذا كان المعنى معنى آخر لا يقتضيه استعماله اللغوي بل عيناه بدليل خارجي فيكون كشفه تفسيرا. تفسير اللفظ وتفسير المعنى: والتفسير على قسمين بلحاظ الشيء المفسر، وهما: أولا - تفسير اللفظ: ويراد به بيان معنى اللفظ لغة. ثانيا - تفسير المعنى: ويراد به تحديد مصداقه الخارجي الذي ينطبق عليه. فنحن نقرأ في القرآن الكريم - مثلا - كلمات تصف الله سبحانه وتعالى بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام و...، كقوله تعالى: ﴿**اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ...**﴾[1].

وكقوله تعالى:﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[2]. أو كلفظة (أهل البيت) في قوله تعالى: ﴿.. **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[3]. ونواجه بالنسبة إلى هذه الكلمات وأمثالها بحثين، هما: الأول: البحث في مفاهيم هذه الكلمات من الناحية اللغوية وهذا هو (التفسير اللفظي).

الثاني: البحث في تعيين مصاديق هذه المفاهيم. فبالنسبة إلى الله تعالى،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

كيف يسمع؟ وبأي شيء؟ وكيف يعلم؟ و...، وبالنسبة لأهل البيت، من هم هؤلاء؟ وهل (المصداق) هو زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ أم الخمسة (محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين) عليهم السلام؟... وهذا هو (تفسير المعنى) الذي نقصده. أهمية التمييز بين التفسيرين: والتمييز بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى مهم جدا لحل التناقض الظاهري الذي قد يبدو لبعض الأذهان بين حقيقتين في القرآن الكريم، وهما:

الأولى: حقيقة كونه كتاب هداية لكل البشر، وما تفرضه هذه الحقيقة من كون القرآن ميسرا للفهم، متاحا لكل إنسان استخراج معانيه، لكي يستطيع أن يؤدي هدفه هذا.

الثانية: هي وجود كثير من الموضوعات في القرآن لا يتيسر فهمها بسهولة، بل قد تستعصي على الذهن البشري ويتيه فيها لدقتها وابتعادها عن مجالات الحس والحياة الاعتيادية، هذه المواضيع التي لم يكن بإمكان القرآن الكريم أن يتفادى الخوض فيها، لأنه كتاب دين يستهدف بصورة رئيسة ربط البشرية بالغيب وتنمية غريزة الإيمان لديها، ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق طرح مثل هذه الموضوعات التي تنبه الإنسان إلى صلته بعالم أكبر من عالمه المنظور وإن كان غير قادر على الإحاطة بجميع أسراره وخصوصياته. وحل هذا التناقض الظاهري بين هاتين الحقيقتين يكون بالتمييز بين تفسير (اللفظ) وتفسير (المعنى)[1].

---

(١) الحكيم، تفسير سورة الفاتحة مصدر سابق ص١٢.

الدرس الثاني:

مقدمات تفسير القرآن الصحيح

كما أن القرآن معصوم من كافة التحريفات والتغيرات التي جرت على بعض الكتب السماوية، إذ أن الله سبحانه تعهد بحفظه إلى يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] لذلك التفكير في تفسير القرآن الكريم ينبغي أن يكون معصوما أيضا، لأن غير المعصوم عليه السلام يحمل الآيات ما لا تحتمل، وربما فسره برأيه، بل أن الأقوال المأخوذة من السنة الشريفة قد لا تتفق دائما مع تفسير كتاب الله العزيز، لأنها تعرضت طوال تلك الفترة إلى تحريف من حذف وإضافة وما شابه، لذلك لعل من أفضل مراحل التفسير الصحيح هو تفسير القرآن بالقرآن، ولا يعني تفسير القرآن بالقرآن ضرب بعضه ببعض دون رعاية لمناسبات الآيات، وأن تُنثر آياته نثر الدقل دون تأمل في ربطاتها، بل على المفسر القدير والمتدبر البصير، التدبر التام في آيات الذكر الحكيم، متحللاً عما أثبته هو أو أثبتت الطريقة العلمية أو العقلية، مستنطقاً كل آية بنظائرها في المغزى، فيستفسر عنها أشباهها ونظائرها، متثبتاً عن الأحاديث الموافقة الملائمة لها.

---

(١) سورة الحجر، آية ٩.

فاختلاف الروايات في تفسير الآيات، واختلاف المفسرين من جراءه، ومن اختلاف إفهامهم وأساليبهم، هذه الاختلافات ترد إلى القرآن نفسه، فلا يصدق عليه إلا ما يصدقه.

بل إن مسالك التفسير كلها هباء إلا تفسير القرآن بالقرآن، كما وأن الرسول والأئمة عليهم السلام سلكوا هذا المسلك القويم في تفسير آيات الذكر الحكيم، وعلى المفسرين أن يتعلموا هذه الطريقة المثلى من هؤلاء المعلمين المعصومين عليهم السلام رجوعاً إلى أساليبهم السليمة في تمسكهم بالكتاب، تفسيراً للآيات بالآيات، ثم سلوكاً في صراطهم المستقيم على طول الخط ومر الزمن، ولا يعني تفسير القرآن بالرأي إلا أن تحمل معك رأياً لك أو لغيرك من قوله أو رواية غير ثابتة، ثم تحمله على آية لا تتحمله، أو لا توافقه أو تخالفه، وليس الكثير من اختلافات المفسرين في تفسير الآيات إلا لتفرقهم أيادي سباً عن تفسيره بنفسه، أو عدم المؤهلات لمن حاول تفسيره بنفسه، فإن له شروطاً جمة، كما جاء في الرواية الشريفة(١).

ذكر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني رضي الله عنه في كتابه في تفسير القرآن: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة قال: حدثنا أحمد بن يوسف بن يعقوب الجعفي عن إسماعيل بن مهران، عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن أبيه عن إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: إن الله تبارك وتعالى بعث محمدا فختم به الأنبياء فلا نبي بعده، وأنزل عليه كتابا فختم به الكتب، فلا كتاب بعده، أحل فيه حلالا، وحرم حراما، فحلاله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فيه شرعكم، وخبر من قبلكم، وبعدكم. وجعله النبي صلى الله عليه وآله علما باقيا في أوصيائه، فتركهم الناس، وهم الشهداء على أهل كل زمان،

---

(١) أشار لها- الشيخ الأستاذ - في مقدمة تفسيره الفرقان، ج١، ص٣٣.

وعدلوا عنهم، ثم قتلوهم واتبعوا غيرهم، وأخلصوا لهم الطاعة، حتى عاندوا من أظهر ولاية ولاة الأمر، وطلب علومهم، قال الله سبحانه: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض، واحتجوا بالمنسوخ، وهم يظنون أنه الناسخ واحتجوا بالمتشابه وهم يرون أنه المحكم، واحتجوا بالخاص وهم يقدرون أنه العام، واحتجوا بأول الآية، وتركوا السبب في تأويلها، ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره، إذ لم يأخذوه عن أهله، فضلوا وأضلوا، واعلموا رحمكم الله أنه من لم يعرف من كتاب الله عزوجل الناسخ من المنسوخ والخاص من العام والمحكم من المتشابه والرخص من العزائم والمكي والمدني، وأسباب التنزيل، والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلفة، وما فيه من علم القضاء والقدر، والتقديم والتأخير، والمبين والعميق، والظاهر والباطن والابتداء والانتهاء، والسؤال والجواب، والقطع والوصل، والمستثنى منه والجاري فيه، والصفة لما قبل مما يدل على ما بعد، والمؤكد منه، والمفصل وعزائمه ورخصه، ومواضع فرائضه وأحكامه، ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون، والموصول من الألفاظ والمحمول على ما قبله، وعلى ما بعده، فليس بعالم بالقرآن، ولا هو من أهله، ومتى ما ادعى معرفة هذه الأقسام مدع بغير دليل، فهو كاذب مرتاب، مفتر على الله الكذب ورسوله، ومأواه جهنم وبئس المصير(١).

ولقد سأل أمير المؤمنين عليه السلام شيعته عن مثل هذا، فقال: إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن على سبعة أقسام كل منها شاف كاف، وهي أمر، وزجر وترغيب، وترهيب، وجدل، ومثل، وقصص. وفي القرآن ناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه، وخاص وعام، ومقدم ومؤخر، وعزائم ورخص، وحلال

(١) المصدر السابق، ج١، ص٤٤.

وحرام، وفرائض وأحكام، ومنقطع ومعطوف ومنقطع غير معطوف وحرف مكان حرف. ومنه ما لفظه خاص، ومنه ما لفظه عام محتمل العموم، ومنه ما لفظه واحد ومعناه جمع، ومنه ما لفظه جمع ومعناه واحد، ومنه ما لفظه ماض ومعناه مستقبل، ومنه ما لفظه على الخبر ومعناه حكاية عن قول آخر، ومنه ما هو باق محرف عن جهته، ومنه ما هو على خلاف تنزيله، ومنه ما تأويله في تنزيله، ومنه ما تأويله قبل تنزيله، ومنه ما تأويله بعد تنزيله. ومنه آيات بعضها في سورة وتمامها في سورة أخرى، ومنه آيات نصفها منسوخ ونصفها متروك على حاله، ومنه آيات مختلفة اللفظ متفقة المعنى، ومنه آيات متفقة اللفظ مختلفة المعنى، ومنه آيات فيها رخصة وإطلاق بعد العزيمة، لان الله عز وجل يحب أن يؤخذ برخصه كما يؤخذ بعزائمه. ومنه رخصة صاحبها فيها بالخيار، إن شاء أخذ، وإن شاء تركها، ومنه رخصة ظاهرها خلاف باطنها يعمل بظاهرها عند التقية ولا يعمل بباطنها مع التقية ومنه مخاطبة لقوم والمعنى لآخرين، ومنه مخاطبة للنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ومعناه واقع على أمته ومنه لا يعرف تحريمه إلا بتحليله ومنه ما تأليفه وتنزيله على غير معنى ما انزل فيه. ومنه رد من الله تعالى واحتجاج على جميع الملحدين والزنادقة والدهرية والثنوية والقدرية والمجبرة وعبدة الأوثان وعبدة النيران، ومنه احتجاج على النصارى في المسيح عليه السلام، ومنه الرد على اليهود، ومنه الرد على من زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأن الكفر كذلك، ومنه رد على من زعم أن ليس بعد الموت وقبل القيامة ثواب وعقاب. ومنه رد على من أنكر فضل النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من أثبت الرؤية، ومنه صفات الحق وأبواب معاني الإيمان ووجوبه ووجوهه، ومنه رد على من أنكر الإيمان والكفر والشرك والظلم والضلال، ومنه رد على من وصف الله تعالى وحده، ومنه رد على من أنكر الرجعة ولم يعرف تأويلها، ومنه رد على من زعم أن الله عز وجل لا ولم يعرف تأويلها، ومنه رد على من زعم أن الله عز وجل لا يعلم الشيء حتى يكون، ومنه رد على من لم يعلم الفرق بين المشيئة

والإرادة والقدرة في مواضع، ومنه معرفة ما خاطب الله عز وجل به الأئمة والمؤمنين. ومنه أخبار خروج القائم منا عجل الله فرجه، ومنه ما بين الله تعالى فيه شرائع الإسلام، وفرائض الأحكام، والسبب في معنى بقاء الخلق ومعايشهم ووجوه ذلك ومنه أخبار الأنبياء وشرائعهم وهلاك أممهم، ومنه ما بين الله تعالى في مغازي النبي صلى الله عليه وآله وحروبه، وفضائل أوصيائي، وما يتعلق بذلك ويتصل به(١).

ولعل التفاسير المعاصرة والتي تعتمد في الغالب على تفسير القرآن بالرأي، والرأي يعتمد بدوره على السنة والروايات التي في معظمها علامات استفهام من حيث السند والمتن تارة، فهذا ليس تفسيرا للقرآن، بل تفسير من خلال الأحاديث التي يتناقلها الرواة، فلذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام من هكذا تفسير للقرآن الكريم.

جاء في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: لقد كثرت علي الكذابة وستكثر فمن كذب علي متعمداً فليتبوء مقعده من النار فإذا أتاكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به(٢)

فإذن: القرآن هو: النور الذي يصوب الصواب ويخطيء الخطأ. فالمعصوم عليه السلام وحده القادر على فهم معانية والقادر على تفسيره العظيم، ولذلك وجب علينا جميعا ان نعود في تفسيره إلى أهل البيت عليهم السلام.

قال الإمام الباقر عليه السلام: انظروا أمرنا وما جاءكم عنا فإن وجدتموه

---

(١) بحار الأنوار: العلامة المجلسي ج ٠٩ ص ٣.

(٢) ورد هذا الحديث بطرق عديدة وبألفاظ مختلفة: انظر: الكافي، ج ١ ص ٦٩، والمحاسن للبرقي، ص٢٢١.

للقرآن فخذوا به وإن لم تجدوه موافقاً فردوه وإن اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده وردوه إلينا حتى نشرح لكم ما شرح لنا[١].

مهام المفسر للقرآن:

فعلى المفسر التدبُّر التام في آيات الذكر الحكيم، متحللا عما أثبته هو أو أثبتته الطرق العلمية أو العقلية، مستنطقاً كل آية بنظائرها في المغزى، فيستفسر عنها أشباهها ونظائرها، متثبتاً عن الاحاديث الموافقة الملائمة لها.

فاختلاف الروايات في تفسير الآيات، واختلاف المفسرين من جراءه، ومن اختلاف افهامهم وأساليبهم، هذه الاختلافات ترد إلى القرآن نفسه، فلا يصدَّق عليه إلاّ ما يصدقه.

إذاً فمسالك التفسير كلّها هباءٌ وخواءٌ إلاّ تفسير القرآن بالقرآن، كما وان الرسول والائمة من آل رسول سلكوا هذا المسلك القويم في تفسير آي الذكر الحكيم، وعلى المفسرين ان يتعلموا هذه الطريقة المثلى من هؤلآء المعلمين المعصومين. رجوعاً الى اساليبهم السليمة في تمسكهم بالكتاب، تفسيراً للآيات بالآيات، ثم سلوكاً في صراطهم المستقيم على طول الخط ومر الزمن.

فالتفسير بين حق وباطل، تفسير بالقرآن وتفسير بالرأي:ومن فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. «أخطأ أو أصاب كان مصيره إلى النار» ولا يعني التفسير بالرأي إلا أن تحمل معك رأياً لك او لغيرك من قولة أو رواية غير ثابتة، ثم تحمِّله على آية لا تتحمُّله، أو لا توافقه أو تخالفه، وليس الكثير من اختلافات المفسرين في تفسير الآيات إلاّ لتفرقهم ايادي سبا عن تفسيره بنفسه،

(١) الوسائل ج ٣ ص ٣٨٣.

او عدم المؤهلات لمن حاول تفسيره بنفسه، فان له شروطاً جمة[١].

فالمحدث يفسره بما يجده من أحاديث تناقلتها الروايات، ناظراً الى أسانيدها، غضاً عن متونها، فاذا قيل: إسناده صحيح، صحّح به تفسير القرآن وافقه أم خالفه، رغم وجود الكثير من وثنيات واسرائيليات ومسيحيات وأضرابها من خرافات تسرَّبت الى أحاديث الإسلام فترسّبت في كتب الحديث، مهما صحت أسنادٌ منها او ضعفت.

(١) روى ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن جعفر النعماني في تفسيره باسناده عن اسماعيل بن جابر قال: سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول: ان الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله فختم به الانبياء فلا نبي بعده وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب فلا كتاب بعده احّل فيه حلالا وحرم فيه حراماً فحلاله حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة فيه شرعكم وخبر من قبلكم وبعدكم وجعله النبي صلى الله عليه وآله علماً باقياً في اوصياءه فتركهم الناس وهم الشهداء على اهل كل زمان وعدلوا عنهم ثم قتلوهم واتبعوا غيرهم واخلصوا لهم الطاعة حتى عاندوا من اظهر ولاية ولاة الامر وطلب علومهم قال الله سبحانه: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض واحتجوا بالمنسوخ وهم يظنون انه الناسخ واحتجوا بالمتشابه وهم يرون انه المحكم واحتجوا بالخاص وهم يقدِّرون انه العام واحتجوا باوّل الآية وتركوا السبب في تأويلها ولم ينظروا الى ما يفتح الكلام والى ما يختمه ولم يعرفوا موارده ومصادره إذ لم يأخذوا عن اهله فضلوا واضلوا واعلموا رحمكم الله من لم يعرف من كتاب الله عز وجل الناسخ من المنسوخ والخاص من العام والمحكم من المتشابه والرخص من العزائم والمكي والمدني واسباب التنزيل والمبهم من القرآن في الفاظه المنقطعة والمؤلفة وما فيه من علم القضاء والقدر والتقديم والتاخير والمبين والعميق والباطن والابتداء من الانتهاء والسؤال والجواب والقطع والوصل والمستثنى منه والجار فيه والصفة لما قبل مما يدل على ما بعد والمؤكد منه والمفصل وعزائمه ورخصه ومواضع فرائضه واحكامه ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون والموصول من الالفاظ والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده فليس بعالم بالقرآن ولا هو من اهله ومتى ادعى معرفة هذه الاقسام بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على الله الكذب ورسوله.

فالذي يعتمد المصالح الشخصية والثقافات الوهمية ويحملها على القرآن، فليست بتفسير أصلاً، والذي يجير السنة وأقولها على حسب مذهبه أو توجه أو هواه، فليست تفسيراً للقرآن بالسنة، وإنما بالرواية التي يعتبرها رواتها سنة ويتقبلها المفسر بالسنة كسنة، وما هي سنة، فانها ليست إلاّ قول الرسول أو فعله وتقريره، ولا سبيل إليها قوياً إلاّ موافقتها للقرآن حيث لا يتبع الرسول في كل ما يفعل أو يقول إلا وحي القرآن: ﴿**إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ**﴾[1] فلا يصدَّق الرسول ما يكذِّبه القرآن وان صحت أسناده، وقد يصدق عليه ما يصدقه القرآن وان ضعفت اسناده، فلا يُسنِد الحديث صحيحاً إلا متنه الموافق للقرآن دون سنده ولا نحتاج الى صحة السند في متن صحيح إلا لإتقان النسبة الى الرسول ﷺ فان المتن الصحيح لا يختص بالرسول، ثم لا تفيدنا صحة السند في متن لا يلائم القرآن، فان الباطل لا يصدر عن الرسول[2].

وقد تواتر عنه ﷺ قوله: لقد كثرت عليَّ الكذّابة وستكثر فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوء مقعده من النار فإذا أتاكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به وما خالف كتاب الله وسنتي

(١) سورة الانعام ٦: ٥٠.
(٢) حالات الحديث أربع:
١ ـ صحيح السند والمتن
٢ ـ ضعيف السند والمتن
٣ ـ صحيح السند ضعيف المتن
٤ ـ ضعيف السند صحيح المتن، فالاول يسند الى الرسول والأئمة من آل الرسول، والثاني يضرب عرض الحائط وكذلك الثالث اذا لم يتحمل التأويل، والرابع يصدق ولكن لا يسند الى الرسول، والأصل في صحة المتن موافقته لكتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ الثابتة، ولا دور للسند الا صحة الإسناد الى المسند اليه إذا كان المتن صحيحاً، فصحة السند لا تصحح المتن، وانما هي من اسباب صحة النسبة على هامش صحة المتن.

فلا تأخذوا به[١].

او ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم اقله[٢] حيث السنة، وهي الشارحة الموافقة لكتاب الله ـ تندغم في كتاب الله، دون ان تكون فيها محادة لكتاب الله، وانما هي كظل وهامش يوضح منه ما خفي منه على القاصرين.

ثم لا يفرق في هذا العرض حديث البرّ عن الفاجر، كما في الصادقي عليه السلام: ما جاءك في رواية من برٍّ او فاجر يوافق القرآن فخذوا به، وما جاءك في رواية من بر او فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به[٣].

(١) رواه الطبرسي في الاحتجاج بالاسناد الى ابي جعفر الجواد عليه السلام عند احتجاجه على يحيى بن اكثم، ورواه مثله الكافي ١: ٦٩ عن محمد بن اسماعيل عن الفضل بن الشاذان عن ابن أبي عمير عن هشام بن الحكم وغيره عن ابي عبد الله وفي المحاسن (٢٢١) البرقي عن ابي ايوب المدائني عن ابن ابي عمير عن الهشامين جميعاً وغيرهما عنه عليه السلام وفي المستدرك (٣: ١٨٦) محمد بن مسعود العياشي فى تفسيره عن هشام بن الحكم عن ابي عبد الله ـ الا أنها بحذف سنتي، وانما «كتاب الله».

(٢) رواه الطبرسي في الاحتجاج بالاسناد الى ابي جعفر الجواد عليه السلام عند احتجاجه على يحيى بن اكثم، ورواه مثله الكافي ١: ٦٩ عن محمد بن اسماعيل عن الفضل بن الشاذان عن ابن ابي عمير عن هشام بن الحكم وغيره عن ابي عبد الله وفي المحاسن (٢٢١) البرقي عن ابي ايوب المدائني عن ابن ابي عمير عن الهشامين جميعاً وغيرهما عنه عليه السلام وفي المستدرك (٣: ١٨٦) محمد بن مسعود العياشي فى تفسيره عن هشام بن الحكم عن ابي عبد الله، الا أنها بحذف سنتي، وانما «كتاب الله».

(٣). المستدرك (٣: ١٨٣) عن محمد بن مسلم قال: قال ابو عبد الله عليه السلام: يا محمد ومثله ما في الصادقي عليه السلام أيضاً سئل عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به قال اذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله او من قول رسول الله صلى الله عليه وآله والا فالذي جاءكم به أولى» وفي الكافي ١: ٦٩ محمد بن يحيى عن عبد الله بن محمد عن علي بن الحكم عن ابان بن عثمان عن عبد الله بن ابي يعفور قال وحدثني الحسين بن ابي العلاء أنه حضر ابن ابي يعفور في هذا المجلس قال سألت ابا عبد الله عليه السلام ورواه في المحاسن (٢٢٥) مثله.

.. فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وآله فإنا اذا حدثنا قلنا قال الله عز وجل وقال رسول الله[١] كما رسول الله صلى الله عليه وآله ليس له قالٌ إلا قال الله، بلفظ القرآن ام سواه، فـ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ وكيف يناقض أو يضاد وحيُ الله وحيَه!.

فالقرآن هو النور الذي يصوِّب الصواب ويخطِّيء الخطأ، وكما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورٌ فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه[٢].

(١) رجال الكشى (١٤٦) حدثني محمد بن قولويه والحسين بن الحسن البندار القمي قالا حدثنا سعد بن عبد الله قال حدثني محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس بن عبد الرحمن ان بعض اصحابه سأله وانا حاضر فقال له: يا محمد! ما اشدك في الحديث واكثر انكارك لما يرويه اصحابنا فما الذي يحملك على رد الاحاديث فقال حدثني هشام بن الحكم انه سمع ابا عبد الله عليه السلام يقول: لا تقبلوا علينا حديثاً الا ما وافق القرآن والسنة او تجدون معه شاهداً من احاديثنا المتقدمة فان المغيرة بن شعبة لعنه الله دسّ في كتب اصحابي احاديث لم يحدث بها ابي فاتقوا الله..

(٢) اصول الكافي ١ : ٦٩ علي بن ابراهيم عن ابيه عن السكوني عن ابي عبد الله عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله.

وفي أمالي الصدوق (٢٢١) قال: حدثنا احمد بن علي عن ابراهيم بن هاشم قال: حدثنا ابي عن ابيه ابراهيم بن هاشم عن الحسين بن يزيد النوفلي عن اسماعيل بن مسلم الكوفي عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام عن ابيه عن جده قال قال علي عليه السلام قال صلى الله عليه وآله وذكر مثله وفي المحاسن (٢٢٦) البرقي عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عن علي عليه السلام مثله عنه صلى الله عليه وآله إلا أنه قال: فخذوا به، وفي الوسائل ٣: ٣٨٢ سعيد بن هبة الله الراوندي عن محمد وعلي ابني علي بن عبد الصمد عن ابيهما عن ابي البركات علي بن الحسين عن ابي جعفر بن بابوية عن ابيه عن سعد بن عبد الله عن يعقوب بن يزيد عن محمد بن ابي عمير عن جميل بن دراج عن ابي عبد الله عليه السلام قال: الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة وذكر مثله، وفي المستدرك ٣: ١٨٦ محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن اسماعيل بن ابي زياد عن جعفر عن ابيه عن علي عليه السلام أنه قال في حديث وذكر مثل ما في المحاسن.

وفي الباقري عليه السلام انظروا أمرنا وما جاءكم عنا فان وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به وان لم تجدوه موافقاً فردوه وان اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده وردوه الينا حتى نشرح لكم ما شرح لنا[١].

وفي الصادقي عليه السلام: ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف وهكذا نجد مستفيضاً من الاحاديث ان ما لا يوافق كتاب الله او يخالفه فهو زخرف او فاضربوه عرض الحائط، وكفى بما اوردناه نماذج وان كان يكفينا كتاب الله: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[٢] وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله وما اجمله توافقاً بين الكتاب: المتن، والسنة: الهامش في وجوب عرض الحديث على القرآن!.

وهنا فوائد هامة:

١- آيات العرض واحاديثه شاهدة على أن ظهور الكتاب -فضلا عن صريحه- حجة، وإلاّ فكيف يقاس الحديث على كتاب غير مفهوم، ام لا حجة في دلالاته؟ وما قولة القائل: القرآن قطعي السند ظني الدلالة والحديث ظني السند قطعي الدلالة إلا خرافة جارفة ومساً من كرامة القرآن الذي بيانه افصح بيان وابلغ تبيان[٣] وما تفسير السنة للكتاب الا ايضاحاً لما أجمل على القاصرين لا القصور في دلالات الكتاب، فانها بينات حتى في

(١) الوسائل ٣: ٣٨٣ الحسن بن محمد الطوسي في الامالي عن ابيه عن المفيد عن جعفر بن محمد عن محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن عمرو بن شمر عن جابر عن ابي جعفر عليه السلام.

(٢) سورة العنكبوت ٢٩: ٥١.

(٣) فهناك كثير من الاحاديث هي ظنية بين مشكوكة الصدور وظنيته، ومحتملة التقية، ولكن القرآن لا يتطرق فيه شيء منها.

المتشابهات، وانما الغامض هو المعاني العالية المطلَّة على الافهام، دون الألفاظ التي هي في أعلى قمم الفصاحة والبلاغة، والرواية القائلة ان القرآن لا يفسِّر الا بالاثر الصحيح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه أو عن الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تؤوَّل الى الحظر عن تفسيره بالرأي، ويا ترى إن تفسير القرآن بالقرآن محظور، ثم واذا فسرته بالحديث فلا محظور! رغم ان القرآن تبيان لكل شيء وبيان للناس بلسان عربي مبين. فكيف يكون بياناً للناس ولا يفهم من ظاهره شيءٌ، ان ذلك وصف له باللغز والمعمّى! وقد مدح الله الممسكين به: ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**﴾[1] انّهم هم مصلحون، ومدح المستنبطين: ﴿**لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾[2] وذم غير المتدبرين في القرآن: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُـهَا**﴾[3] ثم واحاديث العرض والثقلين تحملنا على الرجوع اليه كأصل، وكيف نراجع ما لا حاجة في ظاهره، وكيف نعرض على ما لا يُفهم شيءٌ من ظاهره، إن هذا الا هراءً جارفة تمس من كرامة هذا الكتاب المبين الذي فيه تبيان كل شيء!

٢- ادلة العرض تحثنا على التدبر في القرآن كما يصح ويجب، قدر ما يمكن ان يعرض عليه الحديث، فيعرف الغث عن السمين والخائن عن الأمين، وما الاحاديث المروية إلا كهوامش مختلفة على متن الكتاب، ما تلائم منها المتن تُقبل له شارحة، وما لا تلائم تَضرب عرض الحائط، وما يشك فيه يرد الى قائله او راوية.

فليس للمفسر ان يعتمد على حديث ما لم يعرضه على القرآن، ولا له ان يعوضه ما لم يتدبر حقه في آيته، تأملا في جملاتها ولغاتها مستفسراً

(١) سورة الأعراف ٧: ١٧٠.

(٢) سورة النساء ٤: ٨٣.

(٣) سورة محمد ٤٧: ٢٤.

للحصول على معناها من الآيات النظيرة لها، لا ان يفسر آية بتفسير آية اخرى بضرب القرآن بعضه ببعض ونثره نثر الدقل، وإنما بسرد الآيات المتماثلة المغزى، المتشابهة المعنى، ونضدها تدبراً: ان يجعل كلاًّ دَبر الأخرى كما يقتضيه ترتيب المعنى.. ناظراً الى الآية نفسها، ثم ما تحتفُّ بها، ومن ثم نظائرها في سائر القرآن، ثم يراجع الاحاديث الواردة في تفسيرها ناظراً اليها من زاويتين: نظرة التثبت من صدورها بموافقتها للآية، ثم نظرة الإستيضاح لما استخفي منها من اشاراتها ولطائفها ان لم يكن هو من أهلها، او يستزيد منها عن أهليها الذين هم من اهل بيت القرآن، فاهل البيت ادرى بما في البيت.

فأقل ما يجب التحرى فيه هو فهم العبارة من الآية، وهي المعنى المطابَق الظاهر، ثم يتبناه لسائر الزوايا في مربع التفسير حيث هو على العبارة والاشارة واللطائف والحقائق[1]، كما يتبناه في عرض الحديث على القرآن اذا كان يعني تفسير العبارة، كما يتبنى الثلاثة الاخرى فيما الحديث يعني تفسيرها.

٣- مما تدل عليه آيات العرض واحاديثه أن هذا القرآن المعروض عليه هو النازل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه كلمات وآيات وترتيبات دون نقائص او مزيدات، وإلا فكيف يحتل المركز الأصيل الوحيد المعروض عليه للاحاديث كل الاحاديث، اذاً فكل ما ورد في تحريف القرآن بزيادة او نقصان هي مما اختلقته ايدي الزور والبهتان فانها مخالفة للقرآن، وان كان الخلاف في نقطة أو إعراب أو ترتيب أو تركيب تخالف القرآن المتواجد عند المسلمين، المتواتر مرَّ الزمن، ومن لطيف الأمر ان الاحاديث الحاملة لكلمات او آيات يدّعى

(١). يروية الامام الحسين عليه السلام عن ابيه علي امير المؤمنين عليه السلام كما يأتي بكامله (سفينة البحار تحت الحرف ك).

انها محرفة بزيادة او نقصان، هي بذواتها تشهد انها اكاذيب زور اختلقتها ايادي أثيمة اسرائيلية او مسيحية وتسرَّبت الى جهال يحسبونهم علماء!.

والقرآن جملة وتفصيلا دليل على براءته من زيادة او نقصان، فما هي هذه الزيادة التي اختلطت بآي القرآن وما تميزت حتى الآن عند الخبراء باللسان، ونرى كلام الرسول وعلي عليهما السلام -وهما أبلغ البلغاء- لا يخلطان بالقرآن، إلا وهو لائح حتى عند السوقيين العرب وغيرهم.

وكيف يجرىء أحد ان ينال من القرآن بزيادة او نقصان حتى في حرف منه او إعراب قد ضمن الله حفظه: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**[1] .. **﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾**[2].

إن مدعي التحريف انما يهرف بما لا يعرف جهلا، او ما يعرف تجاهلا، ولا نجد لهم حجة إلاّ عليهم، وسوف يمرّ عليكم قول فصل حول صيانة القرآن عن التحريف على ضوء آية الحفظ والعزة واضرابهما والله من وراء القصد.

٤- ومما تشهد عليه ادلة العرض أن رسول صلى الله عليه وآله والائمة من آل الرسول عليهم السلام لا يفسرون القرآن إلا بحجة الدلالات القرآنية، دون خلاف على معاني اللغات او سرد الجملات أدبياً أم ماذا؟ وانما القرآن والقرآن فقط هو حجتهم على ما يقولون، وكما كانوا يامرون أصحابهم ان يتساءلوهم فيما يفتون، اين ذلك من كتاب الله؟ حتى يرضوا في حياتهم العلمية على دلالات القرآن، دون أن تأخذهم الآراء والأهواء ايادي سبا!.

---

(١) سورة الحجر ١٥: ٩.

(٢) سورة فصلت ٤١: ٤٢.

وإذا كان تفسير القرآن بالحديث -دون نظر في متنه وعرض على القرآن- تفسيراً بالرأي، فتفسيره بآراء الفسرين، متفردين او مكثرين او مجمعين، او تفسيره بالآراء العلمية في مختلف الحقول، ان ذلك لأحرى ان يسمى تفسيراً بالرأي، فانه يجمعه تفسيره بغير حجة من كتاب او سنة قطعية، تفسيراً فيه تحميل على القرآن ما لا يتحمله او لا يلائمه.

فعطف القرآن على الرأي كعطف الهدى على الهوى يعطفان بالانسان الى الهاوية والردى وقد يروى عن الإمام علي امير المؤمنين عليه السلام في اصلاحات المهدي القائم عليه السلام أنه يعطف الهوى على الهدى اذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأي على القرآن اذا عطفوا القرآن على الرأي[١].

فالذي يفسر القرآن جاهلا بموازينه، او تجاهلا عما يجب في تفسيره، انه في ضلال مبين، مهما أتى بعبارات براقة، فلسفية او عرفانية أمّاهيه؟ فان هذا الاسلوب الجاهل او المتجاهل او المبتدع المغرض يجعل من النور ظلاماً، ومن الهدى ضلالا: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا**﴾[٢].

مثل ما يهرأه الهارعون المفرطون أن العبادة انما هي لغرض اليقين والوصول الى المعبود. فاذا اتاك اليقين فلا عبادة، مستندين الى الآية: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾[٣] رغم ان اليقين درجات يتنقل العابد دوماً بين هذه الدرجات، كما وان المعرفة درجات، ولا نهاية لهذه او تلك وحتى لرسول الله وهو اوّل العابدين فضلا عن هؤلاء المدعين، فـ«حتى» هنا لا موقف له منتهى حتى تنتهي عنده العبادة، وقد عبد الرسول صلى الله عليه وآله ربه وقام في عبادته حتى

---

(١) نهج البلاغة في كلام له عليه السلام حول الإمام المهدي عليه السلام.

(٢) سورة الاسراء ١٧: ٨٢.

(٣) سورة الحجر ١٥: ٩٩.

تورمت قدماه فنزلت: ﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ فهل إنه بعدُ لم يكن اوّل العابدين واصلا الى درجة من اليقين التي وصلها هؤلاء المدعون! وهو هو المخاطب ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾؟ دون هؤلاء الاغباش الذين هم لم يصلوا بعد الى درجة من الإيمان فضلا عن اليقين!.

او ما يتقوله بعض الفلاسفة ان الله عالمين: عالم الامر وهو إحداث المجردات، وعالم الخلق وهو إحداث الماديات مستندين الى الآية: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1] والآية: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[2] فالروح من عالم الأمر المجرد عن المادة دون الخلق المادة!

رغم ان الأمر في الأولى هو مجموع الخلق والتقدير، وفي الثانية الخلق هو الخلق والأمر هو التدبير اذ ليس الا له الخلق والأمر الا بعد عرض الكون خلقاً وتقديراً: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[3] فـ«ألا له الخلق والأمر» تنبية أن له أمر التدبير والتسخير في السماوات والأرض كما له خلقهما، دون ان يكون هو الخالق، والمدبر سواه، او هو المدبر وخالق سواه، بل انه «لا اله إلا الله» في الخلق والتدبير سواء، ثم وخلق السماوات والأرض يعني خلق الكون اجمع فلا وجود لمخلوق مجرد عن المادة حتى يختص به الأمر، بل الأمر يشمل كلَّ الخلق، ومن المستحيل قرآنياً وعقلياً ان يكون كائن مجرد عن المادة او الطاقة المادية سوى الله[4].

(١) سورة الاسراء ١٧: ٨٥.
(٢) سورة الأعراف ٧: ٥٤.
(٣) سورة الاعراف ٧: ٥٤.
(٤) راجع كتب الأستاذ «حوار بين الإلهيين والماديين» وكذلك تفسيره (الفرقان).

أو ما يحمله على القرآن بعض من يتسمى فقيهاً، من رأى اتخذه تقليدياً، كحرمة حلائل الابناء من الرضاعة التي تنفيها الآية: ﴿**وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ**﴾[١] متقولا ان قيد الاصلاب انما هو لاخراج الأدعياء، رغم ان أبناء الاصلاب نص في حرمة حلائلهم فقط وفي حلية حلائل الأبناء من الرضاعة مع الادعياء، ولو كان المقصود ما يهرفونه لكان النص «غير ادعيائكم» ومن ذلك كثير نأتي عليه في طيات آياتها.

ومن متفرنج أدهشته العلوم العصرية لحدٍّ كأنها هي الأصل والقرآن من فروعها، كالشيخ الطنطاوي في جواهره! حيث يعتبر فرضية انفصال الأرض عن الشمس لمفترضيها الأوروبيين قانوناً علمياً ثم يختلق لها تفسيراً لبعض الآيات كالتي في سورة الانبياء: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**..﴾[٢] متقولا عليها أن السماوات هنا تعني الشمس والأرض هي هذه الأرض حيث فتقها الله عن الشمس بعد رتقهما و«اولم ير» الماضي تعني هذا المستقبل الزاهر أن العلماء الكفار الغربيين يرون انفصال الأرض من الشمس!.

وفي ذلك تحميل على الآية ما لا تتحمله من تحويل ماضيها الى مستقبلها، وتفسير سماواتها إلى شمسها التي هي ذرة صغيرة من ادنى الجزر السماوية الاولى الينا، ومن ثم ففتقهما، لا فتق الأرض من السماوات: الشمس!.

ثم الآيات في فصلت تفصل ان خرافة هكذا فصل باطلة حيث تقول بعد عرض خلق الأرض وكمالها: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا... فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾ وشمسنا هذه هي من مصابيح السماء الدنيا المخلوقة في السبع بعد

(١) سورة النساء ٤: ٢٣.

(٢) سورة الانبياء ٢١: ٢٩.

دخان السماء، اذاً فالشمس متأخرة عن الأرض بمرحلتين!.

ومن ذلك كثير عند المتفرنجين من المفسرين الذين غرقوا في العلوم والنظريات الجديدة، ونسوا ان القرآن هو علم الله فلن يتبدل، والعلم دوماً في تبدل وتحوّل من خطأ الى صواب ومن صواب الى أصوب!..

فتفسير القرآن بفرضية العلم أو رأيه، أو برأي العقل غير الضروري منك أمَّن سواك من مفسرين او علماء آخرين، أو أحاديث غير ثابتة ولا ملائمة للآيات أو أياً كان من تفسير للقرآن بغير القرآن وما يصدقه، كل ذلك تفسير له بالرأي، دون علم او أثارة من علم او كتاب منير.

فلا تغتر بالتحقيقات الفلسفية والتلطيفات العرفانية، والتدقيقات العلمية! التي تحول دون استنباط القرآن كقرآن، تحميلا عليه ما لا يتحمله.

وتحلّل -حين ما تروم تفسير القرآن- عن كل شارد ووارد حتى وعن مذهبك فضلا عن رأيك او آراء الآخرين، تحلل عن كل ذلك وعش الآية التي تعني تفسيرها، بمفرداتها وجملها، بموقفها مما قبلها وما بعدها، وبنظائرها التي تعني معناها، عشها كذلك محقِّقاً صافي القلب خالي الذهن إلا عما تستمد به في تفهمها بمفهومها او مصاديقها، سناداً الى عقل رائع وعلم بارع دون تحميل على الآية ما لا تتحمله نصاً أو ظاهراً، او لا تخالفه ولا توافقه حيث لا تمتُّ بصلة دلالية او معنوية بما تحمله عليها، والله من وراء القصد.

فالذي يفسر القرآن برأيه او برأي مذهبه او تقليده أو اياً كان من آراء انما يفسر نفسه او مذهبه عَبْر القرآن بهواه، دون ان يهتدي بهداه، تفسيراً لنفسه دون تفسير القرآن نفسه، فلذلك كان مصيره الى النار «وليتبوء مقعده من النار».

ولان الأهوية والآراء تختلف، والمذاهب تتخالف، والنظريات تتضارب، فمعاني الآيات لمن يحمل هذه وتلك تتهافت، ويصبح القرآن مجال

القيل والقال ومعترك الآراء والأقوال.

وأما إذ صدر المفسرون عن مصدر واحد، وساروا في مسير واحد، مفسرين للقرآن بالقرآن، على ضوء السنة القطعية الملائمة للقرآن، اغتربت خلافاتهم، واقتربت أفكارهم، واذا جعلوا أمرهم شورى بينهم قلَّ قليلهم وصح عليلهم، واستشرفوا الى ينبوع الوحي وإن كانوا في ذلك درجات.

صحيح أن القرآن بيان للناس، إلاّ ان بيانه درجات كما الناس درجات، وكما يروي الامام الحسين عن ابيه علي امير المؤمنين عليهما السلام: إن كتاب الله على أربعة أشياء، على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للاولياء والحقائق للانبياء» وهذه الاشياء المراحل هي متلائمة رغم درجاتها.

فالعبارة -وهي ما يعبِّر عنه اللفظ- هي التفسير الظاهر، والإشارة هي التحقيق على هامش الظاهر، واللطائف هي البطون، والحقائق هي التاويل[(١)] فالذي لا يعرف التفسير الظاهر هو أدنى من العوام[(٢)].

ويُروى عن ابن عباس «إنّ للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن»[(٣)].

والمتشابه على حدّ قول الامام الرضا عليه السلام: ما اشتبه علمه على جاهله فالتشابه في آياته ليس من مقولة الدلالة اللفظية، ان تكون الآية قاصرة

---

(١) سوف نبحث عن التأويل والمعاني الباطنية على ضوء آية التأويل ﴿.. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾ إن شاء الله تعالى، في دروس خاصة بذلك، وقد أسهب الأستاذ بشرحها في تفسيره الموضوعي، فراجع.

(٢) بما ان الاشارة بعد المعنى الظاهر فليست العبارة هنا إلاّ التعبير عن الظاهر، وكثير كثير هؤلاء الذين يدرسون عشرات من السنين في الأروقه العلمية، ولم يوفقوا للعلم!!.

(٣) والمقصود: تقدم العلم والعقل على مرّ الزمن فليس هناك آيات متشابهات لابهام دلالي، وانما لعلوّ مدلولي عقلياً او علمياً فالتقدم العقلي والعلمي يفسر هذه التشابهات على قدره.

الدلالة، وانما هو لعلو المدلول على وضوح الدلالة، وكما الافهام درجات في مفاهيم الآيات، كذلك الآيات درجات في محكمات ومشتبهات، رب محكمة من جهة متشابهة من أخرى، ورب محكمة عندك متشابهة عند الآخر، فلا توجد اذاً آيات معدودات هي بعينها متشابهات وأخر محكمات، وانما كانت بعض الآيات لكل من يعرف اللغة[١] وبعضعها متشابهات كالحروف المقطعة في اوائل بعض السور كما يأتي بيانه إن شاء الله في دروس لاحقه.

فليس للمفسر الخوض في آيات الله، قائلا بغير علم او أثاره من علم فليعلم أنها نازلة بعلم الله، قدر ما يحتاجه العقلاء طول الزمن إلى انقراض العالم، فلياخذ كلٌّ نصيبه من الفهم، متثبتاً متدبراً في تفهمه، فتقدُّم العقول والعلوم يكشف جديدات وجديدات من معارف القرآن، متشابهات عقلية او علمية تصبح محكمات على ضوء تقدم العقل والعلم، فلا يستعجلوا فيما يخفى عليهم زاعمين ان لهم تفسير كل آية، او كل زاوية من زواياها.

وعلى المفسر العارف ان يفسر الآيات -كما تهديه- بعضها ببعض، دون اتكالية على آراء المفسرين، فليسبر في كل آية غورها، دون تحويل الى كتب أو مقالات أخرى، فلا يحوِّل البحث والتنقير عن آيات الأحكام الى الفقه او الى ما الف في آيات الاحكام، حيث الفقه كما نراه لا يعتمد كما يجب على الآيات في الأحكام، اللهم إلاّ احياناً وهامشياً محولا الى التفسير او الكتب المؤلفة في آيات الاحكام، فتصبح آياتها غير مفسرة لا في التفسير ولا في الفقه، ولذلك نرى فتاوى تخالف كتاب الله من فقهاء الاسلام شيعة وسنة[٢] ولا قيمة لفتوى لا تعتمد على القرآن وإن اعتمدت على أحاديث أو شهرات أو إجماعات. حيث القرآن هو المصدر الأصيل.

---

(١) لقد تحدث الأستاذ بشكل موسع عن المحكم والمتشابه في آية التقسيم من سورة آل عمران في تفسيره الفرقان.فراجع.

(٢) تحدث الأستاذ (حفظه الله تعالى) عن هذه الخلافات في طيات آيات الأحكام، و ساعده التوفيق لاكمال الفقه على ضوء القرآن في «تبصرة الفقهاء» فراجعه.

ولعمر الله لقد كانت تنحية القرآن عن القيادة المستقيمة، واخراجه عن الحوزات العلمية حدثاً هائلا في تاريخ الإسلام ونكبة قاصمة في حوزات الإسلام، لم يعرف لها التاريخ مثيلا في كل ما ألّم المسلمين من نكبات، فلا تجد كتاباً ظُلم ولا نبياً اكثر من القرآن ونبي القرآن!

لقد كان القرآن يقود المسلمين بعدما فسدت الأرض وتعفنت الحياة والقيادات، وذاقت البشرية الويلات من القيادات العفنة، ولكنّما عن المجتمع الإسلامي وعن الحوزات العلمية بوجه خاص، القرآن، والمسلمون بحاجة ماسة اليها وقد ضعف الطالب والمطلوب!.

نرى القيل والقال في كل مجال من بحوث ادبية ـ اصولية ـ منطقية ام ماذا؟ نراها متأصلة متعرقة في متون الحوزات، في حين أن القرآن لا مجال له ولا هامشياً، وهذا ما يريده الإستعمار ويغتنمه إذ يرى بُغيته -وهي تنحيته القرآن عن أهله- حاصلة دونما صعوبة او محاولة مستمرة.

ذلك! ورغم ان الاحتكام الى الله، المتمثل في كتاب الله ليس نافلة وتطوعاً، نراه نافلة ضئيلة في حياتنا وكقرائه فقط، رغم ان هذه البشرية - وهي من صنع الله- لا تفتح مغاليق عقليتها وفطرتها إلا بمفاتيح اخرى من صنع الله وهي هي القرآن لا سواه! ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[1] فلا اقوم منه ولا قيِّم ولا اقيم، ثم ولا يسامى او يوازي بكتاب سواه ولا ما بين يديه من وحي الكتاب فضلا عن سائر الكتاب.

لقد تسلم القرآن القيادة الخالدة روحياً وزمنياً منذ بزوغه حتى يوم القيام، ولكنما المسلمون قبل مَن سواهم تحللوا عن قيادته الزمنية إلى الطواغيت، وعن قيادته الروحية إلى اجتهادات متخلفة مختلفة، ولو أنهم تبنّوا فيها القرآن كرأس الزاوية،

---

(١). سورة الإسراء ١٧: ٩.

وهندسوا بنيان الإسلام على هذه الزاوية لقلت خلافاتهم، وذلت أعداؤهم.

ومن المضحك المبكي أن المسلمين ككل أو جُل لا يبالون بالقرآن مبالاتهم بروايات ونظرات، وهم مصدقون كمبدأ إيماني أنه هو أصل الإسلام واثافيّه، وحجة رسوله في رسالته ودعوته، فاصبح مَثَله عندهم كمثل الموت على حد تعبير الإمام الرضا عليه السلام «ما خلق الله تعالى يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت».

فالقرآن -وهو يقين لا شك فيه- اصبح شكاً لا يقين فيه، لحدٍّ لا يقتنع طالب العلم بآيته قبل روايته، وهو مقتنع بروايته قبل آيته! **﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾**!

فحيّا الى القرآن، علم الله النازل، كتاب الزمن، الوحي الاخير الذي يجمع مجامع الوحي في تاريخ الرسالات والزيادات.

ولسوف ترون لو أن القرآن دخل في الميدان في حوزاتنا العلمية كركيزة متينة اصلية، ومن جراءها دخل المجتمع الإنساني، لشملت علومه ومعارفه العالم، وحلّقت على كافة العقول وفي كافة الحقول: **﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**(١).

ولا يعني الحديث عن الامام المهدي عليه السلام: ياتي بكتاب جديد... إلا أن اهل القرآن قبله تركوه ورائهم ظهرياً فنسوا او تناسوا معارفه واحكامه، ولقد جربت مراراً هذه التجربة المرة في بعض الحوزات العلمية انني لما استشهد بآية قرآنية في مسألة خلافية فقهية ام سواها، تقوم قيامتهم عليّ، وباي حديث تستدل، واي قائل من العلماء يصدقك، لا تكفي الآية بمفردها..! في حين يستندون -أحياناً- باحاديث أحاد لا توافق القرآن، ام

(١). سورة العنكبوت ٢٩: ٥١.

الى فتاوى لا شاهد لها من كتاب او سنة.

فهل ان حوزة كهذه اسلامية وقرآنيه بعد:؟! ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾؟!.

وهكذا ابتلى جمع من اخواننا السنة أنهم يفتون بها في مسانيدهم دون رعاية للعرض على القرآن، وهذا الذي كان يزعج جمعاً منهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة، اذ أنا اقول قال الله وهم يقولون: قال فلان وفلان، وانهم يفضلون صحيح البخاري -عملياً- على كتاب الله، وقليل هؤلاء الذين يعتمدون على القرآن، رفضاً لما لا يلائم القرآن، من المسلمين، وكثير هؤلاء الذين يفضلون الحديث على القرآن من سنة[1] وشيعة[2]، وان كان اخواننا

---

(١). كما يفتون بحرمة المتعتين خلاف الآيتين ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ويفرضون الشاهدين في النكاح دون الطلاق معاكسين نصوص القرآن حيث الطلاق بحاجة الى شاهدين: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ دون نكاح حيث لا دلالة عليه في القرآن، ويجوزون الطلقات الثلاث دون رجعات خلافاً للنص: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ... فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ (٢: ٢٣٠) ومحللين ذبائح اهل الكتاب وان لم يذكروا عليها اسم الله، وآيات تنص عليه ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ورادّين نصف الميراث الى غير البنت الواحدة من عم او خال اوَ ابن لهما والنص: ﴿وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ﴾ وترى انهم اولى من البنت التي هي اقرت الى المورث منهم.

(٢) كما نرى الكثير من الفقهاء يفتون بحلية نكاح الزانيات وإنكاح الزنات على كراهية والنص يحصر الحلية بالمحصنات: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ ويحرم مناكحة الزانيات: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويحرمون حلائل الابناء من الرضاعة كما من الاصلاب والنص يخص التحريم بالاصلاب: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ وامثالها غير قليل، وهي من بعض آراء الشيخ الأستاذ الفقهية (راجع رسالته العملية، تبصرة الفقهاء).

السنة اكثر خلافاً على القرآن، كما تعرفه في هذا التفسير، وانما الطريقة المثلى هو اتباع القرآن كاصل، واتباع الحديث على ضوء القرآن. دون إفراط من يقول: حسبنا كتاب الله ويترك السنة، او تفريط من يقول: حسبنا السنة او الحديث ولا يُفهم كتاب الله إلاّ بدلالة الحديث، كأنما القرآن لُغز غير مفهوم! فكيف أصبح حجة على الأولين والآخرين لاثبات رسالة الرسول، وقبل ان يصدقوه واهليه المعصومين عليهم السلام..

وحقيق على حوزة تريد ان تتسم بسمة اسلامية ان تؤصِّل القرآن في كافة حقولها، وتفرّع عليه كافة علومها وعقولها، تعوُّداً على مراجعة القرآن كاصل لا ريب فيه. في كل اصل او فرع عقائدي او فقهي او فلسفي ام ماذا، نابع من ينابيع سوى القرآن أيّاً كان ومن اي كان وأيّان، لكي تكون الحوزة صادرة عن القرآن، واردة موارده، وإلا فهي ماردة غادرة، ضالة ناكبة شاردة.

ولقد ضاع القرآن بين حالة منعزلة عن الحياة، بهالة قدسية لا تنالها الأفهام عند من يبررون موقفهم السلبي وجاه القرآن، قدسية خيالية خاوية تعزلها عن الحياة الإسلامية، وكانه كتاب ورد ودعاء تكفينا قراءته في حل المشاكل، ويكفي شفاءً للمرضى وشفاعة ورحمة للموتى! رغم انه حياة مستقيمة لمن شاءها ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ**﴾، ﴿**لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾!

وبين حالة بسيطة يناله كل من يعرف من لغته شيئاً، ثم وليس وراء ما يفهمه البسطاء اشارات ولطائف وحقائق، فلذلك لا حاجة الى دراسته ومدارسته!

والقرآن بيان للناس وفيه تبيان كل شيء: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُـهَا**﴾!.

ولسوف ترون ان القرآن برهان قاطع وبيان ساطع لا مرد له لإثبات المبدأ والمعاد وما بينهما، ولإثبات كل ما يحويه ويبديه من احكام عقلية ام ماذا؟ فانه برهان بنفسه لمن انزله وعلى من انزل ولماذا انزل؟. كتاب تدوين يحلِّق على التشريع والتكوين ببرهان يقين!

في في تفسيرنا الموضوعي للقرآن العظيم تحدثنا عن تنبيهات على امور كثرت فيها الاقاويل فخلقت القال والقيل في الوسط الاسلامي وسواه من اوساط، كالنسخ، والتحريف، والتفسير بالمأثور وشأن النزول، وبطون معاني القرآن.

الدرس الثالث:

الحروف الرمزية في القرآن الكريم

لعل لقائل يقول ما هي الحروف الرمزية في القرآن الكريم؟

فنقول:

إن من الموضوعات التي شغلت بال المفكرين والمتخصصين في الشؤون القرآنية، موضوعات الحروف الرمزية في القرآن، وتزداد أهمية هذا الموضوع عندما نلاحظ ما أثير حوله من مشاكل وشبهات قد تؤدي إلى الشبهة في القرآن الكريم نفسه.

أين ذكرت هذه الحروف؟

جاءت هذه الحروف المقطعة في سور متعددة من القرآن وعلى أشكال مختلفة: منها ما هو ذو حرف واحد مثل: ﴿**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**﴾ و ﴿**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**﴾ و ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾. ومنها ما هو ذو حرفين مثل: ﴿**طه، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ و ﴿**يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**﴾ و ﴿**حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾. ومنها ما هو ذو ثلاثة حروف أو أكثر مثل (ألم) و (المص) و (المر...) و

(كهيعص) و (حم، عسق)[١].

فيا تُرى ماذا تعني أمثال هذه الحروف المقطعة المتصدرة بها بعض من سور القرآن العظيم؟

قبل الخوض في غمار البحث، لا بد من سرد الإحتمالات التي تعرض لها بعض المتخصصين في شؤون القرآن الكريم، وهي كثيرة نقتصر على أهمها وهي:

آراء المتخصصين في الحروف الرمزية في القرآن:

الأول: ما نسب إلى ابن عباس من أن هذه الحروف ترمز إلى بعض أسماء الله وصفاته وأفعاله، فقد روي عنه في (ألم): «أنا الله أعلم»، وفي (المر): «أنا الله أعلم وأرى» الى غير ذلك. ويؤيده ما روي عن معاوية بن قرة عن النبي ﷺ من أنها حروف من أسماء الله[٢].

الثاني: أنها أسماء للقرآن الكريم كالكتاب والفرقان والذكر، والى هذا المذهب صار جماعة من التابعين كقتادة ومجاهد وابن جريج والكلبي والسدي[٣].

الثالث: أن هذه الحروف مقتطعة من أسماء لها دلالة معينة بحسب الواقع، وهي مجهولة لنا معلومة للنبي ﷺ، ويؤيد ذلك أن هذه الطريقة

---

(١) في السور الاتية على الترتيب: ص: ١، ق: ١، القلم: ١، طه: ١ – ٢، يس: ١ – ٢، الجاثية: ١ – ٢، البقرة: ١، الاعراف: ١، الرعد: ١، مريم: ١، الشورى: ١ – ٢. (٢) تفسير التبيان، ١: ٤٨، مجمع البيان ١: ٣٢. (٣)سورة الشعراء: ١٩٥.– أشار الأستاذ إلى هذا المبحث بشكل موسع في كتابه (التفسير) ج١، ص٢٢ – ٥٠. فراجع.

(٢) تفسير التبيان، ج١، ص ٥١.

(٣) التفسير الكبير، ج٢، ص ٦.

كانت معروفة لدى بعض العرب في مخاطباتهم وأحاديثهم، وقد روي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة[١]. كما ان ما ذهب إليه الطبري وروي عن ابن أنس يكاد يتفق مع هذا المذهب ايضا، وهذا المذهب قريب إلى المذهب الأول الذي روي عن ابن عباس أيضا. ويمكن ان يناقش هذا المذهب بنفس مناقشتنا للمذهبين السابقين.

الرابع: إنها اسماء للسور التي جاءت فيها، فـ(الم) اسم لسورة البقرة و (كهيعص) اسم لسورة مريم و (ن) اسم لسورة القلم وهكذا... وقد أختار هذا الرأي أكثر المتكلمين وجماعة من اللغويين واستحسنه الشيخ الطوسي كما رجحه الطبرسي ودافعا عنه بعد ان أوردا عليه بعض الشبهات[٢] كما اختاره أيضا الشيخ محمد عبده[٣]. وتحمس الفخر الرازي في تأييده وأطنب في بيان الشبهات التي أوردوها عليه وأهم ما أورد عليه الشبهتان التاليتان: الشبهة الأولى: أن الاسم إنما يوضع للتمييز بين المسميات، وهذا لا يتفق مع تسمية عدة سور باسم واحد كما حدث في البقرة وآل عمران، فأنه ورد في اولهما (الم) وحدث في السجدة وغافر وفصلت فإنه في أولها (حم). الشبهة الثانية: أن الاسم لا بد أن يكون غير المسمى في الوقت الذي قام الاجماع على أن هذه الحروف جزء من السور التي جاءت فيها. وقد أجاب الشيخ الطوسي قدس سره عن الشبهة الأولى: بأنه لا مانع من تسمية عدة أشياء باسم واحد مع التمييز بينهما بعلامة مميزة، وقد وقع هذا في الأعلام الشخصية كثيرا. كما أجاب عن الشبهة الثانية بأنه لا مانع من تسمية الشيء ببعض ما فيه، كما حدث في تسمية سورة البقرة وآل عمران والأعراف من السور. ولكن مع كل هذا - قد يلاحظ على هذا الرأي -: ان الحروف تقرأ مقطعة

(١) التبيان، ١ج، ص ٤٧ - ٤٨.
(٢) تفسير التبيان، ج١، ص ٤٩.
(٣) تفسير المنار، ١ج، ص ١٢٢.

بذكر أسمائها (ألف - لام - ميم) لا مسمياتها، وهذا لا يناسب أن تكون أسماء للسور، وإلا لكانت قراءتها بمسمياتها كما هي مكتوبة، وهذه الكيفية من القراءة تناسب أن تكون الحروف مقصودة في نفسها بالذكر لا أنها أسماء لاشياء أخرى وقد أشار الزمخشري إلى هذه الملاحظة ولكن بصياغة اخرى ثم ردها. فقد قال الزمخشري: فان قلت فما بالها مكتوبة في المصحف على صور الحروف أنفسها لا على صور أساميها؟ قلت: لان الكلم لما كانت مركبة من ذوات الحروف، واستمرت العادة حتى تهجيت، وحتى قيل للكاتب اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالاسماء وتقع في الكتابة الحروف أنفسها عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة الفواتح[1]. وهذا الرد الذي ذكره الزمخشري يؤكد ملاحظتنا - بصيغتها الصحيحة - في أن هذه الكيفية من النطق تعني أن الحروف هي المقصودة بذاتها لا أن المقصود الإشارة الى السورة المسماة بهذه الحروف، وإلا لنطقت الحروف بنفسها لا بأسمائها، ولذا نرى صحة هذه الملاحظة بهذه الصيغة.

الخامس: أن هذه الحروف إنما جئ بها ليفتتح بها القرآن الكريم وليعلم بها ابتداء السورة وانقضاء ما قبلها، وقد اختار هذا الرأي البلخي وروي عن مجاهد أيضا، وذكر له الشيخ الطوسي بعض الأمثلة من استعمالات العرب، ويؤيده قول أحمد ابن يحيى بن ثعلب: إن العرب إذا استأنفت كلاما فمن شأنهم أن يأتوا بشيء غير الكلام الذي يريدون استئنافه فيجعلونه تنبيها للمخاطبين على قطع الكلام الأول واستئناف الكلام الجديد. وقد يلاحظ على هذا الرأي بعدم شمول هذه الطريقة لجميع سور القرآن الكريم، ويبقى الاختصاص حينئذ سرا نحتاج إلى إيضاحه والكشف عنه[2]. نعم قد يقال: إن هذه الطريقة إنما كانت الحاجة إليها موجودة في السور الطوال التي كانت

(١) تفسير الكشاف، ١ج، ص ٢٨.

(٢) تفسير التبيان: ج ١، ص ٤٧.

تنزل تدريجيا وليس في جميع سور القرآن الكريم، حيث كان بعضها ينزل دفعة واحدة، كما في السور القصار. ولكن الملاحظة الأساسية الأخرى على هذا الرأي هي أن البسملة يمكن أن تقوم بهذا الدور في تمييز الانتهاء من السورة والشروع بالسورة الأخرى، حيث وردت الأحاديث التي تؤكد ان البسملة كان لها دور تمييز انقضاء السورة من ابتدائها.

السادس: أنها أسماء للحروف الهجائية المعروفة، وإنما جئ بها تنبيها للناس على أن القرآن الكريم الذي عجزوا عن مباراته والإتيان بمثله ليس إلا مؤلفا من هذه الحروف التي يتكلمون ويتحادثون بها، وقد عجز عن الإتيان بمثله أهل الفصاحة والبلاغة، وقد ذهب المبرد وجمع كبير من المحققين إلى هذا المذهب[1]. وقد يناقش هذا المذهب بأن مجرد ذكر الحروف في أول السورة بهذا الشكل المتقطع لا يكفي في إيضاح هذه الحقيقة، وقد لا يشعر الناس بذلك فلا يحقق حينئذ القرآن هدفه من ذكرها، إلا إذا كانت القرائن الخارجية والحالية التي تحيط الكلام لها دور في الإفهام وتحقيق هذا الهدف، وهذا ما لا يمكن أن نعرفه من نفس هذه الحروف. وقد كان من الممكن أن يصل القرآن إلى ذلك عن طريق إيضاح الفكرة ببيان قضية عامة تستوعب هذا المضمون وتشرحه شرحا وافياً.

أخرج أبو داود والبزار والطبراني والحاكم وصححه البيهقي في المعرفة عن ابن عباس، قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يعرف فصل السورة (يعني خاتمتها) حتى تنزل (بسم الله الرحمن الرحيم) وزاد البزار والطبراني فإذا نزلت عرف أن السورة قد ختمت واستقبلت أو ابتدأت سورة أخرى، إضافة إلى أحاديث أخرى لها مثل هذه الدلالة. وإن كانت صحيحة ولكنها تحتاج إلى إبراز القرائن الحالية التي كانت تؤدي دور الإفهام، كما سوف نشير إلى ذلك.

---

(١) الدر المنثور: ج ١:ص ٧.

السابع: أن هذه الحروف إنما جاءت في أول السور ليفتح القرآن إسماع المشركين الذين تواصوا بعدم الإنصات إليه، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى - على لسانهم -: ﴿**لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ فكانت هذه الحروف - بطريقة عرضها وغموضها - سببا للفت أنظار المشركين إلى استماع القرآن الكريم رجاء أن يتضح لهم منه هذا الغموض والإبهام عند استماعهم له. ويزداد هذا المذهب وضوحا إذا لاحظنا الحالة النفسية التي كان يعيشها المشركون آنذاك، حيث ينظرون إلى القرآن الكريم على أنه صورة المعجزة المدعاة وانه ذو صلة بالغيب وعوالمه العجيبة، فهم ينتظرون في كل لحظة أن تحدث ظاهرة غريبة تفسر لهم الموقف وتأتيهم بالأمور العجيبة.

الثامن: أنها حروف من حساب الجمل، لان طريقة الحساب الأبجدي المعروفة والتي كانت متداولة بين أهل الكتاب آنذاك، فهذه الحروف تعبر عن آجال أقوام معينين. ومن هنا نجد - كما روي عن ابن عباس - ابا ياسر ابن اخطب اليهودي يحاول ان يتعرف على أجل الأمة الإسلامية وعمرها من خلال هذه الحروف[١]. وقد لاحظ ابن كثير على هذا الرأي بقوله: " واما من زعم أنها دالة على معرفة العدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك ادل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته.... كما لاحظ عليه السيد رشيد رضا بمثل هذه الملاحظة حيث قال: « إن اضعف ما قيل في هذه الحروف واسخفه إن المراد بها الإشارة بأعدادها في حساب الجمل إلى مدة هذه الأمة أو ما يشابه ذلك »[٢].

(١) الدر المنثور:ج ٢:ص ٧.

(٢) تفسير المنار: ج ١:ص ١٣٢.

التاسع: أن ذكر هذه الحروف في القرآن الكريم يدل على ناحية اعجازية تشبه دلالة بقية الآيات القرآنية، وذلك لان النطق بهذه الحروف وإن كان متيسرا بالنسبة إلى كل من يتكلم العربية، ولكن أسماءها لم تكن تتيسر إلا للمتعلم من العرب، ولما كان النبي ﷺ أميا - كما يعرفه بذلك معاصروه - فقدرته على معرفة أسمائها قرينة على تلقيه ذلك من قبل الغيب، ويكون ذلك من قبيل ذكر القصص القرآني الذي لم يكن للنبي ﷺ طريق للإطلاع عليه غير الوحي الإلهي لعدم إطلاع قريش عليه قبل هذا، وأيضا هو بمنزلة من يتكلم باللغة الأجنبية من دون أن يسمعها أو يتعلمها من أحد، ولعل هذا هو السبب في تقديم ذكرها على السورة كلها. وقد أوضح الزمخشري هذه الفكرة بابداء ملاحظة أخرى هي: أن ظاهرة غريبة تلاحظ حين نريد أن ندرس هذه الحروف بدقة تدعونا إلى الحكم بأن هذه الحروف قد اختيرت بعناية فائقة لا تتوفر إلا لدى المتخصصين من علماء العربية، ذلك أن هذه الحروف تمثل نصف أسامي الحروف العربية، حيث إن عددها أربعة عشر، كما أنها جاءت في تسع وعشرين سورة هي عدد حروف المعجم كلها بإضافة الهمزة، ثم إذا نظرت في هذه الحروف الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف من المهموسة والمجهورة، والشديدة والرخوة، والمطبقة والمنفتحة، والمستعلية والمنخفضة. وقد أضاف أحمد بن المنير في شرحه للكشاف إضافات أخرى عديدة.

العاشر: ما ذكره ابن كثير وأوضحه السيد رشيد رضا وحاصله: أن من الملاحظ أنه قد جاء بعد هذه الحروف ذكر الكتاب الكريم ونبأ تنزيله، ولم تتخلف عن ذلك إلا سور أربع هي مريم والعنكبوت والروم والقلم، وفي كل واحدة منها نجد أمرا مهما يشبه مسألة الكتاب وإنزاله. فإننا نجد في فاتحة سورة مريم خلق يحيى من امرأة عاقر كبيرة ومن شيخ عجوز وهو أمر يخالف القوانين التجريبية السائدة، وفي فاتحة العنكبوت والروم نجد أمرين مهمين يرتبطان

بالدعوة ومصيرها، حيث جاء في فاتحة العنكبوت بيان قانون اجتماعي وضعه الله لاختبار الناس وتمييز الصالح منهم عن غيره، ولهذا القانون تأثير كبير على سير الدعوة، حيث يوضح أن الفتنة والعذاب لا يمكن أن يكون دليلا على خذلان الله لاحبائه وإنما هما اختبار لصدق إيمانهم ورسوخه.

وفي فاتحة الروم قضية الأخبار بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين. وفي فاتحة القلم وخاتمتها تبرئة الرسول من تهمة الجنون التي كانت من أول ما رمي به النبي ﷺ من تهم، كما أن السورة كانت من أول ما نزل من القرآن. ومن الواضح ان هذه القضايا ترتبط جميعا بالوحي الإلهي أو الرسالة بصورة مباشرة، وهذا الارتباط بين الحروف المقطعة وبين تأكيد الكتاب وإنزاله من السماء والرسالة وعلاقتها بالسماء يدعونا للقول: إنه إنما جئ بها لغاية قرع الأسماع وهز القلوب ودفع الناس إلى استماع القرآن الكريم والإنصات إليه(١).

الحادي عشر: ما ذهبنا إليه بقولنا هل هي أسماءٌ لها؟ وليست إلا في (٢٨) سورة وهي أقل من ربعها، فلماذا لم تسم بها ثلاثة أرباعها؟

ثم للمصدرة بها أسماءٌ غيرها إلا قليلاً منها، وهي خمسة سور وهي: (طه، ويس، وص، وق، و ن) ثم الباقية الـ(٢٣ لها أسماء غيرها) لا بد وأن تُعرب عن مسمياتها بما تحمل من معاني ولا معاني معروفة لهذا الحروف إلا عند أهلها.

أم هي تنبيهات أن آياتها البالغة ذروة معارج الإعجاز هي مركبة عنها؟ إذاً فلماذا لم تتصدر بها أوائلها نزولاً كالحمد والعلق والمزمل والمدثر؟ وهي أخرى بالتنبيه لها؟ ولماذا لم تستغرق المكية الـ(٨٦) إلا في (٢٥) منها

(١) تفسير القرآن العظيم:ج١:ص ٦٨، وتفسير المنار:ج ٨:ص ٢٥٦ – ٢٨٩.

دون الـ(٦١) الأخرى ونراها في ثلاث لم تستغرق المكية الـ(٨٦) إلا في (٢٥) الأخرى، فمجموع المصدرة بها بين (١١٤) سورة ليست إلا (٢٨) وعلى هذه الأطروحة ما عليها من ملاحظات[1].

١- أما أنها فصول بين السور، وقد تحققت بالبسملات، اللهم إلا البراءة وهي يتيمة عنها، وهي متحققة بأسماءها إلا قليلاً منها، ثم ولا يجوز الفصل بما هو أجنبي عن القرآن الكريم.

٢- أو أنها للإسكات، فالجواب الذي يرد هذه الأطروحة ايضا، هو لماذا تصدرت السور المكية ولا سيما أولياتها بها، وكذلك مهام الآيات وفي أوساط السور دون اختصاص باوائلها، وأن الإسكات لا يناسب حروفاً لا يفهمونها الناس.

٣- أو هي المعاني النازلة ليلة القدر، فكذلك الأمر، ولماذا تحرم عنها سورة الحمد التي تعد من أمهات السور؟

٤- أو أنها تعني ما يعنيه حساب الأعداد، وهذا بتلك لا حجة فيه إلا خيالات إسرائيليات وكما زيفت بروايات إسلامية. جاء في الرواية عن محمد بن قيس قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يحدث أن حييا وأبا ياسر ابني أخطب ونفرا من يهود أهل نجران أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا له: أليس فيما تذكر فيما أنزل الله عليك «الم»؟ قال: بلى. قالوا: أتاك بها جبرائيل من عند الله تعالى؟ قال: نعم. قالوا: لقد بعثت أنبياء قبلك وما نعلم نبيا ومنهم أخبرنا مدة ملكه وما أجل أمته غيرك قال: فأقبل حيي بن أخطب على أصحابه فقال لهم: الالف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون. فهذه إحدى وسبعون سنة، فعجب ممن يدخل في دين مدة ملكه وأجل أمته إحدى و سبعون سنة ! قال:

---

(١) راجع مقدمة تفسير الفرفان، للأستاذ، ج ١ ص ٢٢.

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال له: يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: نعم. قال هاته، قال: «المص» قال: هذه أثقل وأطول، «الألف» واحد، و «اللام» ثلاثون، و «الميم» أربعون، و «الصاد» تسعون، فهذه مائة وإحدى وستون سنة. ثم قال لرسول الله ﷺ: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم. قال: هاته. قال ﷺ: «الر» قال: هذه أثقل وأطول. «الالف» واحد و «اللام» ثلاثون، «والراء» مائتان: ثم قال لرسول الله ﷺ: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم. قال: هاته. قال: «المر» قال: هذه أثقل وأطول. «الالف» واحد، و«اللام» ثلاثون، و «الميم» أربعون، و «الراء» مائتان. ثم قال له: هل مع هذا غيره؟ قال: نعم. قالوا قد التبس علينا أمرك فما ندري ما أعطيت ! ثم قاموا عنه، ثم قال أبو ياسر للحيي أخيه: ما يدريك. لعل محمدا قد جمع له هذا كله وأكثر منه. قال: فذكر أبو جعفر عليه السلام أن هذه الآيات أنزلت فيهم منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات. قال: وهي تجري في وجه آخر على غير تأويل حيي وأبي ياسر وأصحابهما(١).

٥- أو هي اسم الله الأعظم مقطعة في القرآن الكريم، ولا أعظم من (الله) الأعظم الظاهر ولا من (هو) الأعظم الباطن وأن المركب منها سلسلة حروف لا تؤلف اسماً عربياً، ثم ولا حجة تثبتها أيضا.

٦- من المؤكد أن لهذه الحروف معانٍ، وإلا لم توضع في كلام الله تعالى، ولعل الفصل في الوقوف على حقيقتها، يقودونا إلى القول أنها رموز خاصة بين الله ورسوله الكريم ﷺ أختص الله بها رسوله ﷺ بعد عموم سائر القرآن المكلفين، فهي إذاً صفوة القرآن كما جاء عن الإمام علي عليه السلام: إن لكل صفوة كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي(٢).

---

(١) معاني الأخبار: الشيخ الصدوق ص ٢٣.
(٢)البحار:ج٨٨ ص ١١.

فليس لغير صاحب السر التنقب عن معانيها، أو التخرس بالغيب فيها، اللهم إلا ما ثبت منها عن رسول الله ﷺ أو الأئمة من آل الرسول عليهم السلام.

ومن أجمل ما نُقل في هذا الصدد ما ذهب إليه بعض أعلام التفسير من الأمة أمثال العلامة الطباطبائي (قدس) في تفسير حيث يقول:

ما ذهب إليه بعض أعلام التفسير:

قال العلامة الطباطبائي وعدة من العلماء: أما الأقوال العشرة الأخر فإنما هي تصويرات لا تتعدى حد الاحتمال ولا دليل يدل على شيء منها. ثم قال قدس سره بعد ذلك: إن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه وبين رسوله ﷺ خفية عنا لا سبيل لأفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها وبين المضامين المودعة في السور ارتباطا خاصا[١].

ويقول السيوطي بهذا الصدد أيضا: إن هذه الحروف التي تفتتح بعض السور هي من جملة المتشابهات في القرآن، وقولنا فيها أنها من أسرار الله التي لا يمكن لسواه أن يأتي على تأويلها وكشف معالمها[٢].

ويقول صبحي الصالح (وهو من العلماء المعاصرين): إن هذه الحروف تعد من المتشابهات. ويعقب بقوله: إن الورع لا يسمح أن يكون لنا رأي صريح بشأن هذه الحروف لأنها من متشابهات القرآن الكريم التي لا يعلمها إلا الله تعالى. ونقل أصحاب الأثر عن ابن مسعود والخلفاء الراشدين أن هذه الحروف هي من الأسرار التي اختص بعلمها الله تعالى وحده.

كما انه من الملاحظ على هذا الموضوع لذا بعضا من الكتاب القرآنيين

---

(١) تفسير الميزان: ج ١٨ ص ٨.

(٢) الإتقان: ج ٢ ص ٨.

شوهدت لديهم تأويلات وخرافات وتأويلات لهذه الحروف، بل إنهم -على حد تعبير بعض المتخصصين- ضربوا تخمينات وأحداساً بمقتضى رغباتهم وميولهم وأهوائهم بشأن ذلك الأمر، بحيث إنهم آلموا مشاعر وأحاسيس كل مسلم، ونذكر من جملة هذه التأويلات ما يلي:

١- ما نقل من قول الشيخ محي الدين ابن عربي في كتاب (الفتوحات المكية) بما مضمونه: إعلم أن بدايات هذه السورة مجهولة لغير أصحاب السور المعقولة الذين توصلوا إلى حقائقها، والله سبحانه افتتح تسعا وعشرين سورة بهذه الحروف. وكمال هذه الصورة تكمن في قوله تعالى: ﴿وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ حيث عدد المنازل هو ٢٩ منزلا. إذا المهم هو القطب الذي هو قوام الفلك وعلته، وهذا القطب هو الحروف ا لثمانية الواردة في سورة آل عمران «الم، الله». ولو لم تكن هذه لما تحققت ال ٢٨، وتكرار هذه (٢٨ حرفا) يؤدي بالضرورة إلى تحقق تلك العبارات. إذ العدد (٨) في هذه الحقيقة لا يمثل إلا جزء، حيث يقول النبي ﷺ: الإيمان بضع وسبعون جزء، وهذه الحروف هي ٧٨ حرفا، ولا يصل العبد إلى نيل كمال أسرار الإيمان حتى يعلم حقيقة هذه الحروف التي اشتملت عليها السورة[١].

٢- الكلام المنقول عن نصوح طاهر الفلسطيني يقول فيه: إن قيمة هذه الحروف هو ذلك المقدار الذي يحصل عندما تقع هذه الحروف في سورة ما فتبين عدد آيات تلك السورة. ثم يقول: ولقد كان هذا التطابق موجودا حتى في عهد عثمان عندما كانت حروف هذه الفواتح تحسب بحساب الجمل، فتحدد آيات السورة التي وقعت فيها[٢]. واستنادا إلى ذلك فإن

(١) مباحث في علوم القرآن: القطان، ص ٢٣٨.

(٢) رسالة الإسلام: العدد الثاني السنة الحادية عشرة، دار التقريب - القاهرة.

سورة البقرة التي تفتتحها «الم» وهي بحساب حروف الجمل (٧١) عددا فتشتمل على (٧١) آية ! بينما الواقع يؤكد أن عدد آياتها (٢٨٦) آية. وهكذا الحال في سورة آل عمران فهي تشتمل على (٢٠٠) آية في حين أن الفرض يقتضي أن تشتمل على (٧١) آية لأن «الم» قد وقعت في أولها، وهكذا أيضا بالنسبة إلى سورة العنكبوت المشتملة على (٦٩) آية في حين كان المفترض بناء على هذا القول أن تشتمل على (٧١) آية لأن «الم» وقعت في أولها، وهكذا في بقية السور الأخرى.

٣- ما نقل من قول المستشرق الألماني (نولد كه) بأن كل حرف من حروف هذه الكلمات ما هو إلا إشارة إلى أحد الصحابة، مثلا (س) إشارة إلى سعد بن أبي وقاص، و (م) إلى المغيرة، و (ن) إلى عثمان بن عفان، و (ه) إلى أبي هريرة، وهكذا. ولكن في النهاية تراجع هذا المستشرق عن قوله ذلك معربا عن خطئه. ولكن بعض المستشرقين من أمثال (بهل) و (هرشفليد) نادوا بكل حماس بهذا الرأي وحاولوا إحياءه من جديد[1]. بيد أنه يبدو أن مثل هؤلاء الأشخاص قد تأولوا متشابهات القرآن دون الاستعانة بالراسخين في العلم، ومن الطبيعي أنهم سيسقطون في وادي الخرافات والهذيان. وكم أدت مثل هذه التأويلات إلى تخيل وجود التحريف في القرآن الكريم، واشتماله على الألغاز والأحاجي، أعاذنا الله من شرور أنفسنا.

الخلاصة: من كل ما سبق يتضح لنا وجود المتشابهات في القرآن الكريم، ولا يوجد هناك بحث يشتمل على الاتفاق والإجماع في توضيح تأويلاتها، بل إن موضوعها مورد خلاف عامة المسلمين وخاصتهم، سواء في الماضي أو في الحاضر، وأن الأخبار المروية والمتضمنة لمطالبها لا يمكن الاستناد إليها لعدم صلاحيتها، وأن التعريف اللغوي والعرفي للمتشابه

(١) مباحث في علوم القرآن: ص ٢٤٢.

يشتمل على هذه الحروف، ولكن بالنتيجة يتأكد أن هذه الحروف هي في حقيقتها من المتشابهات، وهذا ما يمكن القبول به[1].

(١) بحوث في تاريخ القرآن: السيد مير محمدي زرندي ص ٢٣.

الدرس الرابع:

أهم الطرق في تفسير القرآن الكريم

لعل قوة التحديات التي واجهها القرآن الكريم على مر عصوره منذ نزوله على عقول الناس، جعلت منه مادة علمية رصينة لتناول تفسيره بمختلف الطرائق التي مرت عليه، فكان طابع كل زمان تفسيره الخاص به بحسب ما تقتضيه المادة العلمية أو الحوادث التاريخية أو السياسية أو الاجتماعية لذلك العصر.

وعلى رغم التحديات التي وجهت من قبل خصومه إلا أنه تمكن من الصمود في وجوههم ومحاربته بالتي هي أحسن، فالدعوة الإسلامية -التي كانت القرآن الناطق- واجهت وهي بمكة تحديات الوثنية المادية، أو تحديات الشرك، واتهامات المادين: للقرآن بأنه: سحر وخداع.. وبأنه أساطير الأولين اكتتبها الرسول ﷺ.. وبأنه أضغاث أحلام يصعب تفسيرها...وبأنه مؤلف ومنقول ونسبت افتراء إلى وحي الله.

كما واجهت الدعوة الإسلامية اتهامات هؤلاء المادين، أو المشركين لرسول الله ﷺ بأنه: كاهن.. ومجنون.. وشاعر.. ومسحور، وبشر.. وليس يملك.. وأنه ليس من الأثرياء ولا من العظماء والزعماء.. وأنه تعلم القرآن

ونقله من غيره.

كما أنهم وجهوا سوء تصورهم لله على أنه، سبحانه: يلد ينسل وأن الملائكة بنات، وأن له شركاء من الجن.. والأصنام،...و الأنس.

وقد تكفل القرآن الكريم في السور المكية فيه بالرد على هذه الإدعاءات[1].

إن التحديات التي يواجهها القرآن الكريم اليوم هي بمثابة الأمس، ولكن تبدل أهلها في ثوب جديد، جعلت من القائمين على الشؤون القرآنية يمعنون التفكير بطرائق جديدة لتفسير القرآن الكريم، لكي يتأقلم مع سائر الأطروحات العلمية المعاصرة، فكان من الضروري أن ينتهج بعض المهتمين بهذه الأمور منهجية خاصة لتفسيره، ونحن هنا لسنا في صدد عرضها أو نقدها، بل في صدد ذكر المناهج التفسيرية التي قد يكون عليها إجماع الأمة، وماهو أهمها بالنسبة إلينا؟

فكانت هناك عدة مناهج وطرائق لتفسير القرآن الكريم وهي تتلخص في مايلي:

١- المنهج الشائع:

وهو: شبيه بالمنهج التخصصي، الذي تسلكه العلوم الحديثة، كأن تكون هناك دراسات متخصصة في علم واحد فقط، لذلك يختص بتفسير القرآن عن طرائق متعددة منها:

- التفسير بالأثر.
- التفسير البياني.
- التفسير التشريعي.

---

(١) انظر نحو القرآن: البهي، ص١٢٣.

- التفسير اللغوي.
- التفسير الأدبي.
- التفسير الموضوعي.

ولكل منحى من هذه المناهج أعلامها ومتخصصوها، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم.

٢- المنهج الكلامي أو الفلسفي:

ويعتمد هذا المنهج على سرد الآيات التي تتحدث عن أسرار الخليقة، أو الطبيعة، أو الكون، أو ما وراء الميتافيزيقيا وغيرها فيقيم الدليل على ثبوتها إيجابا وسلبا بالنسبة للقارئ.

ولعل هذا ما يطلق عليه عند المعاصرين اليوم بالمنهج التطبيقي، أي أن في القرآن الكريم مجموعة من القواعد الكلية أو شبهها في العقيدة والكون والتاريخ والمجتمع، هذه القواعد تنسجم بالشمولية أو نحوها، ومن روائع القرآن الكريم وجود مفردات تطبيقية لهذه القواعد الكلية الشاملة على ما يدعيه خصوم القرآن الكريم، وبهذا المنهج نكتشف التطابق التام بين النظرية ومفرداتها، ومن الأمثلة على ذلك:

قاعدة كونية عريضة تؤكد أن كل ما في الكون خلق بقدر، أي محدود، أما على صعيد الزمان أو الطاقة أو الحجم أو العدد أو الكثافة، وتختلف الحدود من موجود إلى آخر، وينفرد الله تعالى بصفة المطلق الذي لا يحد ولا يعد، هذه القاعدة أو النظرية الكونية أسسها القرآن الكريم في متن العقيدة ولم يطرحها مجردة، بل حولها مفردات متناثرة هنا وهناك فقال تعالى: إنا كل شيء خلقناه بقدر(١) ونوعا ما هذا المنهج مقبول.

---

(١) انظر: المدخل لتفسير القرآن: غالب حسن، ص١١.

٣- المنهج الصوفي:

وهو المنهج الذي يعتمد في نظرته للقرآن الكريم على التفسير الباطني، كالتفسير بالرأي القائم على أساس الهوى والبدع والأضاليل، أو القناعات الشخصية دون تمحيص أو استنباط. وهذا ما جاء النهي عنه:

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده في النار[١].

وعن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ فهو أبعد من السماء[٢].

وكل هذه الأحاديث وغيرها التي جاءت في النهي عن تفسير القرآن بالرأي جاءت تنهي المفسر الذي يفسر القرآن دون الرجوع إلى غيره، ولازمه وجود استقلالية للمفسر في فهم القرآن وهذا يجعله غير مؤهل لفهمه، وذلك لعدم توفر آليات فهم النص القرآني لديه، من حصول العلوم التي يجوز معها التفسير وهي: خمسة عشرة علما سوف نتحدث عنها في دروس مستقلة إن شاء الله.

٤- المنهج العلمي:

وهو المنهج الذي يذهب إلى استخراج جملة العلوم القديمة والحديثة من آيات القرآن الكريم، ويقوم المفسر بتطبيقها على الزمان والمكان الذي يعيش فيه، لذلك أصحاب هذا المنهج يرون من القرآن منهجا ودستورا ومصدراً غنياً للباحثين في مختلف الشؤون العلمية، فالطبيب يتمكن أن يستخرج علاجات شافية ومن آيات القرآن الكريم، ويمكنه أن يشخص

(١) الكافي: باب فضائل القرآن الكريم: ج١، ص ٣٨٧.
(٢) المصدر السابق.

الأدواء التي تعج بها البشرية اليوم، وكذلك الفلكي، وكذلك أصحاب الصناعات المتخلفة، فالقرآن مستوفي كافة العلوم من حيثياتها المختلفة.

ولعل الغزالي صاحب إحياء العلوم، أول من استوفى في هذا المجال عندما تحدث عن فهم القرآن الكريم وتفسيره بالرأى.فقال:وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عزوجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في العمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهرة التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات، والمعقولات ففي القرآن رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها...[(١)].

وممن تمسك بهذا المنهج واشتهر تفسيره به، الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات، فقد حشده بالعلوم الطبيعية والكونية والنفسية والصناعية، وعالج به المكتشفات والاختراعات العصرية، وتناول به الطب والتشريح والجبر والهندسة والفيزياء والكمياء وعلم النبات والأحياء والتواريخ، فهو يضع الآيات على بساط البحث أدبيا وفلسفيا وعلميا ثم يتبعها بحكايات وأحاديث وعجائب ولطائف على حد تعبيره، ثم يسرد لازم الحكاية ومتعلقها.

وسار على هذا المنهج من المثقفين المعاصرين، الأستاذ عبد الرزاق نوفل في القرآن والعلم الحديث، والأستاذ عبد الغني الخطيب، في أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة، والأستاذ مصطفى محمود في عدة

---

(١) الغزالي: إحياء العلوم، ج ١ ص ٢٨٩، ط دار المعرفة.

كتب، وقد توصل هؤلاء إلى رأي مجمع عليه عندهم، أن القرآن يواكب العلم الحديث، وإن كانوا قد ابتعدوا كثيرا عن منهج التفسير الصحيح للقرآن الكريم بالخصوص طنطاوي جواهري الذي يعتبر فرضية انفصال الأرض عن الشمس لمفترضيها الأوروبيين قانوناً علمياً ثم يختلق لها تفسيراً لبعض الآيات كالتي في سورة الأنبياء آية (٢١-٢٩) متقولا عليها أن السماوات هنا تعني الشمس والأرض هي هذه الأرض حيث فتقها الله عن الشمس بعد رتقهما، أو لم ير الماضي تعني هذا المستقبل الزاهر أن العلماء الكفار الغربيين يرون انفصال الأرض من الشمس، وفي ذلك تحميل على الآية ما لا تتحمله من تحويل ماضيها إلى مستقبلها، وتفسير سماواتها إلى شمسها التي هي ذرة صغيرة من ادني الجزر السماوية الأولى إلينا، ومن ثم فتقهما، لا فتق الأرض من السماوات والشمس(١).

٥- المنهج التاريخي:

يميل أصحاب هذا المنهج إلى أن الوقوف على حقيقة تفسير القرآن لا تتسنى للمفسر إلا إذا وقف على حقيقة أسباب النزول التاريخي للآيات الكريمة، وهذا يعني الابتداء بسورة العلق تفسيرا والانتهاء بآية الإكمال للدين والإتمام للنعمة.

وللوقوف قليلاً على تصويب هذا الرأى أو تخطئته، لا بد من دراسته دراسة مستقلة، ولكن الملاحظة التي تغنينا والتي نصل من خلالها إلى تخطئة هذا الرأي أيضا، أن حصر الترتيب الزمني لانقطاع الرواية في ذلك لا سيما وأن الاختلاف واقع حتى في أوائل ما نزل منه وخواتيمه، فكيف بالقرآن كله وغاية ما ضبط العلماء مكيه من مدنيه على اختلاف في جملة عديدة من

---

(١) مقدمة التفسير:ج١ ص ٣٠ للأستاذ.

الآيات.

ثانياً: لو تم هذا المنهج، لكنا قد جزأنا القرآن، ورتبناه ترتيبا جديداً يتنافى مع ترتيبه التوقيفي الذي اجمع عليه العلماء، أي أن ترتيب السور بموضعها من المصحف، وترتيب الآيات بمواضيعها من السور عمل توقيفي من الله تعالى، ولا يجوز أن يضع شيئا منه مكان شيئ آخر على أرجح الأقوال(١)

وقد اشتهر هذا المنهج على يد الشيخ محمد عبده، الذي تبني هذا المنهج وحاول أن يؤكده عبر مصنفاته ومحاضراته، إذ عرض آرائه العلمية حول هذا المنهج، وتمكن من ربط الاكتشافات العلمية الحضارية بما توصل إليه علماء التفسير من خلال نظرياتهم التاريخية في القرآن الكريم وتطبيق ما جاء فيه على واقعنا المعاش(٢)

٦- المنهج الموضوعي:

ويميل أتباع هذا المنهج إلى أنه يقوم، جملة من المتخصصين على دراسة شذرات ونجوم من القرآن كل حسب تخصصه، فيجمع مادة موضوع من مواضيع القرآن ويستقصيها إحصاء لتكون هيكلاً مترابطاً يشكل وحدة موضوعية متكاملة واحدة، ثم يقوم بتفسيرها بحسب منهجه فالمتخصص بالأحكام يبحث آيات الأحكام والمتخصص بالعقائد يحصي آيات العقائد، وهكذا.

وقد أشار الشهيد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ في محاضراته القرآنية لهذا المنهج بشكل مفصل، نلخصه بحسب الحاجة يقول: وهو المنهج الذي لا يتناول المفسر فيه

---

(١) وللوقوف على حقيقة هذا المنهج راجع، دراسات قرآنية ج ٣ ص ١١٨، د/ الصغير.

(٢) السيد أحمد خليل: دراسات في القرآن ص ١٥.

تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها في المنهج التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات القرآن العقائدية أو الاجتماعية، كعقيدة التوحيد، أو النبوة، أو سنن التأريخ في القرآن... ويستهدف التفسير الموضوعي من القيام بهذه الدراسات تحديد موقف نظري للقرآن الكريم، ومن ثم للرسالة الإسلامية من ذلك الموضوع. ومن أجل أن يتضح موضوع البحث ومركز الاختلاف لا بد أن نفهم مصطلح (الموضوعية) فإن هناك ثلاثة معان لمصطلح (الموضوعية) ذكرها الشهيد الصدر قدس سره، وهي: أولا: (الموضوعية) في مقابل (الذاتية) و (التحيز)، والموضوعية بهذا المعنى عبارة عن الأمانة والاستقامة في البحث والتمسك بالأساليب العلمية المعتمدة على الحقائق الواقعية في نفس الأمر والواقع، دون أن يتأثر الباحث بأحاسيسه ومتبنياته الذاتية ولا أن يكون متحيزا في الأحكام والنتائج التي يتوصل إليها. وهذه (الموضوعية) أمر صحيح ومفترض في كلا المنهجين: (التجزيئي) و (الموضوعي) ولا اختصاص لأحدهما بها. ثانيا: (الموضوعية) بمعنى أن يبدأ في البحث من (الموضوع)، الذي هو (الواقع الخارجي) ويعود إلى (القرآن الكريم)

لمعرفة الموقف تجاه الموضوع الخارجي. «فيركز المفسر - في منهج التفسير الموضوعي - نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدمه الفكر الإنساني من حلول وما طرحه التطبيق التأريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني... ويبدأ معه حوارا، فالمفسر يسأل والقرآن يجيب، وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح وقد يسمى هذا المنهج أيضا بالمنهج (التوحيدي) باعتبار أنه يوحد بين (التجربة البشرية) و (القرآن الكريم) لا بمعنى أنه يحمل التجربة البشرية على القرآن، بل بمعنى أنه يوحد

بينهما في سياق واحد لكي يستخرج نتيجة هذا السياق المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدد موقف الإسلام تجاه هذه التجربة أو المقولة الفكرية.

ثالثا: «وقد يراد من (الموضوعية) ما ينسب إلى الموضوع، حيث يختار المفسر موضوعا معينا ثم يجمع الآيات التي تشترك في ذلك الموضوع فيفسرها». ويمكن أن يسمى مثل هذا المنهج منهجا توحيديا أيضا باعتبار أنه يوحد بين هذه الآيات ضمن مركب نظري واحد. ولا شك أن المعنى الأول ليس موضوع البحث إذ لا يختلف التفسير الموضوعي عن التفسير التجزيئي في ضرورة توفر هذا الوصف فيه، ويبقى عندنا المعنى الثاني والثالث. وهناك مرجحات للمنهج التفسيري الموضوعي على منهج التفسيري التجزيئي:

منها مرجحات رئيسة للمنهج الموضوعي على المنهج التجزيئي أشار إليها الشهيد الصدر قدس سره في بحوثه القرآنية، وهي: الأول: إن التفسير الموضوعي يرجح على التفسير التجزيئي لأنه يمثل حالة من التفاعل مع الواقع الخارجي، إذ إن المفسر يبدأ من خلاله بالواقع الخارجي ثم ينتقل إلى القرآن الكريم»، ثم يعود إلى الواقع الخارجي مرة أخرى بنتاج بحثه داخل القرآن، مما يجعل القرآن الكريم ملبيا وبشكل مستمر لكل متطلبات الحالة الإنسانية والاجتماعية التي تفرضها حركة التأريخ والحركة التكاملية لهذا الإنسان. «ومن هنا تبقى للقرآن قدرته الدائمة على القيمومة والعطاء المستجد الذي لا ينفد والمعاني التي لا تنتهي التي نص عليها القرآن نفسه ونصت عليها أحاديث أهل البيت عليهم السلام ولا توجد مثل هذه الخصوصية والميزة في منهج التفسير التجزيئي والذي يبدأ من القرآن وينتهي إلى القرآن، حيث يفترض الشهيد الصدر قدس سره هذا النوع من التفسير ما يشبه التفسير اللغوي ويتوقف فيه على المعنى والمفهوم اللغوي واللفظي للقطعة القرآنية التي يراد تفسيرها، دون التعمق في تفسير المعنى من أجل الوصول إلى

المصاديق المرتبطة بحركة الواقع وظروفه، مما يجعلنا غير قادرين على الإجابة على كثير من المسائل التي تواجهنا في الواقع المعاش[(١)]

وقد استجاب كثير من أعلام الفكر العربي والإسلامي لأطروحة هذا المنهج، فألفوا فيها كتبا وذهب إلى نظريات وآراء، يستحسن مراجعة بعض تلكم المصادر، التي اعتمدنا عليها في هذا الدرس.

٧- مناهج معاصرة:

والمتأمل في تفسير أعلام المسلمين لكافة المذاهب الإسلامية المعاصرة، يرى أن هناك تفاوت واضح بين ما ذهبت إليه المدارس العلمية للمذاهب الإسلامية السابقة، وبين الأجيال التي خرجت بعد حقبة زمنية من عصر الثورة الثقافية، التي انبهرت بعصر التكنولوجيا، وعصر الإنترنت والعولمة، والتي أثرت بدورها على عقلية المفسر للقرآن، فإذا كانت ثقافته سياسية تأطر تفسيره بالسياسية، وإذا كان المفسر ثوريا تحول تفسير إلى الثورة والانقلابات وتكوين الأحزاب، وإذا كان من أتباع الحديث كان تفسيره روائيا وهكذا هي أغلب تفاسير العالم الإسلامي اليوم، وهي بعيدة تماماً عن ما يسمى علميا بـ(التفسير الصحيح للقرآن الكريم) ولعل الواقف على جملة كبيرة من تلكم التفاسير يرى حقيقة ما ذهبنا إليه.

---

(١) المدرسة القرآنية: المحاضرة الأولى: ١٢ - ١٣، وللمزيد من المعرفة راجع- تفسير سورة الحمد- السيد محمد باقر الحكيم ص ٩٢.

الدرس الخامس:

علوم القرآن الكريم

قلنا في أبحاث الدروس السابقة، أن القرآن كتاب حياة، وليس مقبولا أن نتعامل معه كما نتعامل مع سائر الكتب الثقافية أو العلمية أو الأدبية والأخلاقية، ولكونه كتاب حياة وجامع لكافة العلوم، فهو إذاً مرجع لكافة العلوم والفنون، فالقرآن الكريم يحتوى على علوم شاملة لمناحِ الحياة الإنسانية.

فقد قَدر علماء التفسير علوم القرآن الكريم بـ(٧٧٤٥٠) على عدد كلم القرآن، مضروبة في أربعة[1].

وفي آخر كتاب التبيان لأبي جعفر الطوسي ﵀ إشارة إلى ذلك. قال ما هذا لفظه: جميع آي القرآن في البصري ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع آيات وفي المدني الأخير ستة آلاف ومائتان وأربع عشرة والكوفي ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية وجميعها نزل بمكة خمسة وثمانون سورة على الاختلاف وبالمدينة تسع وعشرون سورة على الخلاف في ذلك فذلك مائه

(١) السيوطي: الإتقان، ج ١ ص ١٢٨.

وأربع عشرة سورة وعلى ما رويناه من أصحابنا أو عن جماعة متقدمين مائتا واثنتا عشرة سورة وجميع عدد كلمات القرآن تسع وسبعون ألفا ومائتان وسبع وسبعون كلمه ويقال سبع وثمانون كلمه ويقال تسع وثلاثون كلمة وجميع عدد حروف ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا[(١)]

وقبل الخوض في غمار البحث عن علوم القرآن يجدر بنا أن نقف عند تعريف العلوم:

فنقول:

تعريف علوم القرآن لغةً، واصطلاحاً:

أولاً: العلم لغةً:

مأخوذ، من علم علماً، بفتحة وكسرة_أي حصلت له حقيقة العلم، ويقال علم الشيء: أي عرفه، وتيقنه، وأدركه. ويذهب الراغب في مفرداته: إلى أن العلم يتكون من أشياء: الحقيقة، المعرفة، اليقين، الإدراك، ولهذا قيل أن العلم:هو الإدراك الجازم المطابق للواقع، أو هو إدراك الشيء بحقيقته[(٢)].

وقال الحكماء: أن العلم حصول صورة الشيء في العقل، أو حصول الصورة في العقل، أو تعلق النفس بالشيء على جهة انكشافه[(٣)].

والمتكلمون: يعرفون العلم: بأنه صفة يتجلى بها الأمر لمن قامت به، وهو مراد من قال منهم: إنه صفة توجب لمحلها تميزاً لا يحتمل النقيض، ولو

(١) سعد السعود: ابن طاؤس، ص١٢.

(٢) الراغب: المفردات، ص٣٤٣.

(٣) الجرجاني: التعريفات، ص ١٣٥.

كان هذا التميز بوساطة الحواس كما هو رأي الأشعري[(١)].

ويطلق العلم في لسان الشرع العام: على معرفة الله تعالى وآياته، وأفعاله في عباده وخلقه.

والعلم عند الماديين: أنه ليس إلا خصوص اليقينات التي تستند إلى الحس وحده[(٢)]

ثانياً: العلم إصطلاحاً:

تطلق كلمة العلم ويصطلح بها على أحد المعاني التالية:

أولها: الموضوع ذاته: فيقال علم الفلك، وعلم الطب، وعلم النفس، وعلم التفسير، وعلم الكلام، وهكذا.

ثانيها: معرفة الموضوع: فيقال: لفلان علم بموضوع النجوم، أو علم بالأنساب، أو علم بالأنوار الجوية، أي لديه إلمام ومعرفة بمسائل وقواعد هذه العلوم.

وثالثها: القدرة على معرفة الموضوع: وهي المعرفة بالقوة، أي القدرة على معرفة مسائل وقواعد الموضوع، وإن لم تكن حاصلة بالفعل.

ولعل ما يوافق بحثنا هنا هو: الأول، لأننا في صدد تعريف علوم القرآن الكريم.

وهذا ما أشار إليه الزرقاني عندما تحدث عن تعريفات العلم، وهو يشرح عبارة السعد في كتابه (المقاصد) بقوله: وما يفيد أن العلم المدون قد

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: الزرقاني، ج ١ ص٥.

(٢) المصدر السابق. ص٧.

يطلق على طائفة من التصورات، أي المفردات التي تصورها العقل مضبوطة بجهة واحدة... ويمكن أن نستخلص من ذلك كله أن العلم في عرف التدوين الاصطلاحي العام يقال: على المعلومات المنضبطة بجهة واحدة سواء أكانت وحدة الموضوع أم وحدة الغاية، وسواء أكانت تلك المعلومات تصورات كعلم البديع، أم تصديقات، وسواء أكانت تلك التصديقات قضايا كلية أم جزئية أم شخصية كعلم الحديث وروايته[١].

تعريف القرآن لغةً واصطلاحاً:

وحتى تكتمل صورة مطالب بحثنا عن علوم القرآن تماماً، يجدر بنا أن نقف أيضاً على تعريف القرآن الكريم، ليسهل على الطالبين الوقوف على حقائقه ومعانيه وألفاظه وآدابه وعلومه.

القرآن لغةً:

تطلق لفظة (القرآن) ويراد منها ثلاث معانٍ هي:

أ- القرآن المقروء المكتوب:

يقال قرأ قراءة وقرآناً، أي نطق بالمكتوب فيها، ومنه قوله تعالى:﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ ويكون الأقرء: الأفصح قراءة، كما يكون بمعنى إلقاء النظر على الرسالة ومطالعتها صمتاً.

وهو مصدر مرادف للقراءة، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله.

---

(١) المصدر السابق.

أما القول بأنه وصف من القَرء بمعنى الجمع، أو أنه مشتق من القرائن، أو أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء، أو أنه مرتجل أي موضوع من أول الأمر علماً على الكلام المعجز المنزل، غير مهموز ولا مجرد من أل، فكل أولئك لا يظهر له وجه وجيه، ولا يخلو توجيه بعضه من كُلفة.

وعلى الرأي المختار، فلفظ قرآن مهموز، وإذا حذف همزة فإنما ذلك للتخفيف، وإذا دخلته (أل) بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف[١].

ب- الجمع:

ويسمى قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها. قال ابن الأثير: إن الأصل في لفظة القرآن هو: الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته، وسمي قرآناً لأنه جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور، بعضها إلى البعض.

وقال الراغب: والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في التنزيل، وليس يقال ذلك لكل جمع، لا يقال قرأت القوم إذا جمعتهم[٢].

جـ- اسم لكتاب الله تعالى:

ويرجح بعض الأعلام، أن القرآن اسم وليس بمهموز لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل. قال أبو بكر بن مجاهد المقرئ: كان أبو عمرو بن العلاء لا يهمز القرآن، وقال الراغب: والقرآن في الأصل مصدر، نحو كفران ورجحان[٣].

---

(١) الزرقاني: مصدر سابق، ج١ ص ٧.

(٢) الراغب: المفردات، ج ٢ ص ١٦٥.

(٣) الراغب: مصدر سابق ج١ ص ٤٠٢.

ولعل ما ذهب إليه ابن الأثير وجماعة من اللغويين بقولهم: أن الأصل في القرآن هو: الجمع، هو أقرب المعاني انسجاماً ومناسبة، مع واقع القرآن الكريم، فيما ضم من الأحكام العامة وجمعها من القواعد الكلية، والأسس الرئيسة للشريعة الإسلامية. وإن كانت هناك الألفاظ تطلق على القرآن بلغت (خمسة وخمسين) لفظا كما ذهب إليه صاحب البرهان، والتبيان[١] إلا أن اللفظ الجامع لكلمة قرآن هو: الجمع، ولأنه اسم واقع على كتاب الله تعالى.قال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[٢].

القرآن اصطلاحاً:

المعروف أن الكلام بما هو كلام، ينقسم إلى قسمين، لفظي ونفسي، فالكلام البشري اللفظي بالمعنى المصدري: هو تحريك الإنسان للسانه وما يساعده في إخراج الحروف من المخارج، والكلام اللفظي بالمعنى الحاصل بالمصدر: هو تلك الكلمات المنطوقة، التي هي كيفية في الصوت الحسي، وكلا هذين ظاهر لا يحتاج إلى توضيح كما أكدته كتب البلاغة والأدب.

أما الكلام النفسي بالمعنى المصدري فهو: تحضير الإنسان في نفسه بقوته المتكلمة الباطنة للكلمات التي لم تبرز إلى الجوارح، فيتكلم بكلمات متخيلة يرتبها في الذهن بحيث إذا تلفظ بها بصوت حسي كانت طبق كلماته اللفظية، والكلام بالمعنى الحاصل بالمصدر: هو تلك الكلمات النفسية والألفاظ الذهنية المترتبة ترتيباً ذهنياً منطبقاً عليه الترتيب الخارجي.

كذلك القرآن كلام الله، يطلق تارة ويراد منه الكلام النفسي، وهو

---

(١) الزرقاني: مصدر سابق، ج ١ ص ٨.

(٢) سورة النحل، الآية ٨٩.

الذي يطلق على ألسنة المتكلمين، لأنهم المتحدثون عن صفاته ومعلوماته، والمقررون لحقيقته، أما من حيثيته إطلاق الكلام اللفظي، فالأصوليون والفقهاء وعلماء العربية يُبينون أحكامه وألفاظه لعامة الناس بحسب نطقه البلاغي والعربي.

ومحصلة ما تقدم:

أن القرآن اصطلاحا هو كلام الله سبحانه وتعالى، يطلق عليه أنه كلام نفسي من حيثية المتكلم بآياته، ويطلق أنه كلام لفظي بحسب ما توصل إليه علماء العربية والبلاغة من خلال آياته الإعجازية وتوصيلها لعامة الناس.

قال الغزالي في كتابه المستصفى ج ١ ص ٦٥، ط الأولى ما نصه: إن القرآن هو الكلام القائم بذات الله تعالى، وما نقل إلينا بين دفتي المصحف، نقلاً متواتراً[(١)].

(١) لعل التقيد لأنه وصل إلينا بالتواتر، وهو أن القرآن نقله إلينا قوم لا يتوهم اجتماعهم وتواطؤهم على الكذب لكثرتهم، وتباين أماكنهم، عن قوم مثلهم، وهكذا إلى أن يصل النقل إلى رسول الله ﷺ، وبهذا القيد خرج بالشهرة، القراءات الشاذة. الغزالي، المستصفى، ج ١ ص٦٥. ولعل الزرقاني يميل إلى أن كلام الله ينطبق عليه القسمان، النفسي واللفظي، راجع المصدر السابق من كتابه الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٨، ط الأولى.

الدرس السادس:

علوم القرآن تاريخُه وتقسيماته

وحتى نقف على حقيقة علوم القرآن وتقسيماته الكثيرة، و ما ذهب إليها علماء التفسير، يجدر الإلمام بتاريخه على سبيل الإيجاز لتعم بها الفائدة المرجوة إن شاء الله تعالى.

لمحة تاريخية عن علوم القرآن:

من الواضح أن الهدف الأكبر للأنبياء والمرسلين عليهم السلام كان تحرير الناس من الجهل والاستكبار والاضطهاد الفكري والمادي، وجعل مجتمعاتهم مجتمعات مثالية في الحياة البشرية، ولم يكن لحدث ذلك التغيير الجذري في حياة مجتمعاتهم لو لم تكن هناك دعوة صادقة في بث العلم ومحاربة مستنقعات الجهل المطبق.

وهذا ما أدركته الطلائع المؤمنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واهتمت بالعلم واعتبرته مفتاح لكل خير، حيث وعت تماما أن الشخصية الإسلامية عمادها الأول والأخير العلم، فانبرت تنهله، وترتاد رياضته، وتطلبه ليهديها إلى الحقائق الكونية والعلوية، ولتبلغ المراتب السامية في مدارج الرقي

الحضاري، تنافسوا وكانوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الالبَابِ**﴾[١].

ولقد فهم المسلمون الأوائل البون الشاسع بين الجهل والعلم في اعتبارات القرآن حين وقفوا عند قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٢].

فراحوا يُهرعون إلى مجالس رسول ﷺ فأحاط به الصحابة الأجلاء، لينهلوا منه العلوم، ويستضيئون بهداه، وكانت محورية تلك العلوم القرآن الكريم.

القرآن ومراحل التدوين:

ومن الملاحظ أن القرآن مر تدوينا بمراحل تاريخية، يجدر بنا تناولها ولو بشيء من الإيجاز، لنقف عند حقيقة تقسيمات علوم القرآن الكريم.

فتاريخ القرآن على صعيد تدوينه، لم توضع له مدونات كفنون العلم المدون، ولم توجد في كتب مؤلفه، لأن الصحابة لم تكن لهم حاجة لتدوينه أو تأليفه، لوجود شخص رسول الله ﷺ بين أيديهم، يوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه، ويبصرهم بحقائق آياته الكريمة.

أو لأنهم -أي الصحابة- كانوا على قدر كبير من الفهم والاستيعاب الصحيح، لفصاحتهم وبلاغتهم العربية الأصلية، ولأن القرآن الكريم: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**﴾[٣] أو لعسر الكتابة، وندرة أدواتها، وقلة الكتاب[٤].

---

(١) سورة الزمر، الآية ٩.

(٢) سورة الروم، الآية ٥٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية ١٩٣.

(٤) للمزيد راجع: العطار، مصدر سابق ص٢٦.

وكان القرآن على عهد رسول صلى الله عليه وآله وسلم مدونا ومحفوظا كما هو عليه اليوم، تماما لا زيادة ولا نقيصه، وهذا هو أرجح الأقوال التي عليها طائفة الإمامية منذ العصور الأولى وإلى هذا اليوم.

ومما يؤيد ذلك الروايات الكثيرة عندنا عن أهل البيت عليهم السلام.

فقد جاء في روي في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله انه أمر علياً عليه السلام بجمع القرآن وقال يا علي القرآن خلف فراشي في المصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة فانطلق علي فجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه(١) وهذه الرواية تدل على أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمر بجمع القرآن وعلي هو الذي جمعه بأمر مباشر من الرسول وذلك في حياته صلى الله عليه وآله وسلم كما يستفاد من ظاهر الرواية.وعلى ذلك اتفقت كلمة جمهور فقهاء الشيعة ففي مجمع البيان نقلاً عن السيد المرتضى قدس سره انه قال: إن القرآن جمع في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشكل الذي هو اليوم بأيدينا. قال وذكر أيضاً رضوان الله عليه – إشارة للسيد المرتضى قدس سره إن القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجموعا مؤلفا على ما هو عليه الآن واستدل على ذلك إن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتى عين على جماعة من الصحابة في حفظهم له وأنه كان يعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتلى عليه وأن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدة ختمات وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعا مرتبا غير مبتور ولا مبثوث(٢). وقال بمقالته قبله الشيخ الصدوق والشيخ المفيد قدس سرهما وغيرهما من كبار علماء الشيعة. وقال بمقالته بعده شيخ الطائفة الشيخ

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٤٥١ سورة الناس.

(٢) تفسير مجمع البيان:ج١ ص١٥.

الطوسي قدس سره والمفسر الكبير الشيخ الطبري قدس سره المتوفى سنة ٥٤٨هـ وباقي علماءنا الأبرار إلى يومنا هذا. وعن زيد بن ثابت انه قال كنا نجمع القطع المتفرقة من آيات القرآن ونجعلها بأمر رسول في مكانها المناسب ولكن مع ذلك كانت الآيات متفرقة فأمر رسول الله علياً عليه السلام أن يجمعها في مكان واحد وحذرنا من تضييعها.وعن الشعبي انه قال جمع القرآن في عهد رسول الله من قبل ستة نفر من الأنصار. الله و منها إن النبي كان يقول في حديث الثقلين المروي عن الفريقين متواتراً. إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً[١] فالكتاب الذي يخلفه رسول الله في أمته هو الكتاب المجموع والمرتب لا الآيات المتفرقة إذ لا يطلق عليها الكتاب[٢] وقد سبق الله تعالى رسوله في هذا التعبير حيث أطلق مراراً وفي آيات متعددة كلمة الكتاب على القرآن إشارة إلى انه مجموع ومرتب عنده تعالى في اللوح المحفوظ كما قال به بعض المفسرين وانه تعالى أطلع رسوله على جمعه وترتيبه لديه وأمره بأن يجمع القرآن على ما هو مجموع في اللوح المحفوظ ويرتبه وفق ترتيبه وفعل النبي ذلك. قال تعالى: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[٤].

---

(١) راجع: بحار الأنوار ج١٣ ص١٤٧ ب٧ ح١١١ وفيه إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.

(٢) ورد في لسان العرب مادة كتب الكتاب اسم لما كتب مجموعاً وفي المنجد مادة كتب. الكتاب ما يكتب فيه سمي بذلك لجمعه أبوابه وفصوله ومسائله.

(٣) سورة الأنعام ٩٢.

(٤) سورة الأنعام ٥٩.

ومنها روايات ختم القرآن الكريم، ما ورد من أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بختم القرآن في شهر رمضان وفي غيره من سائر الأيام وبيان ما لختمه من الفضيلة والثواب. ولولا أن القرآن مجموع ومرتب لم يكن لختم القرآن معنى لأن الختم يقال لما يبدأ من أوله وينتهي بآخره[١] قال رسول الله من ختم القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه ولكنه لا يوحى إليه[٢] وقال العلامة المجلسي قدس سره في بحار الأنوار روى البخاري ومسلم ابن حجاج والترمذي في صحاحهم وذكره في جامع الأصول عن أنس قال جمع القرآن على عهد رسول الله أربعة كلهم من الأنصار أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وأبو زيد وزيد يعني ابن ثابت[٣].

لكن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصبحت الحاجة ماسة لتدوينه في كتاب مستقل ليسهل تداوله بين عامة الناس، فكان لمحرز لقصب السبق في ذلك الإمام علي عليه السلام كما أكدته روايات ومصادر الفريقين. منها:

رواية السيوطي في كتابه الإتقان ج ١ ص ٥٧، عن صاحب كتاب (الفهرست، لابن النديم) قال: عن ابن المنادى: حدثنى الحسن بن العباس، قال أخبرت عن عبد الرحمن بن أبى حماد عن الحكم بن ظهير السدوسى عن عبد خير عن على عليه السلام انه رأى من الناس طيرة عند وفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأقسم انه لا يضع عن ظهره ردائه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القران، فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه، وكان المصحف عند أهل جعفر. ورأيت أنا في زماننا عند أبى يعلى حمزة الحسنى رحمه الله مصحفا بخط

---

(١) ورد في لسان العرب مادة ختم ختم فلان القرآن إذا قرأه إلى آخره وفي معجم. الوسيط ختم الشيء أتمه وبلغ آخره وفرغ منه يقال ختم القرآن وفي المنجد الختم قراءة الكتاب كله.

(٢) متشابه القرآن ج٢ ص٧.

(٣) بحار الأنوار ج٨٩ ص٧٧ ب ٧ بيان.

على بن أبى طالب يتوارثه بنو الحسن على مر الزمان[1].

---

(١) فهرست ابن النديم: ابن النديم البغدادي ص ٣٠- وقد يقول قائل: إن هذا المصحف الذي كتبه الإمام عليه السلام بيده ثبت فيه الزيادة في بعض سوره فنقول في الجواب: ولا يرعونه. وهذه الرواية تفسر التحريف الوارد في بعض مرويات الكافي وغيره من كتب الحديث والتفسير. ومن خصوص الزيادة الموجودة في مصحف علي عليه السلام كما جاء في بعض المرويات، لو تغاضينا عن العيوب الموجودة في أسانيدها والتزمنا بصحتها من ناحية السند، فلا بد وان تكون الزيادات المزعومة من قبيل التفسير والتوضيح للمراد من تلك الآيات عن طريق الوحي أو النبي صلى الله عليه وآله كما نص على ذلك جماعة من علماء الإمامية. ويدل على ذلك ما جاء في الكافي عن أبي بصير انه قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾. فقال: نزلت في علي والحسن والحسين عليهم السلام قلت له: أن الناس يقولون: فما له لم يسم عليا والحسن والحسين في كتاب الله؟ قال: قولوا لهم: أن رسول الله نزلت عليه الصلاة ولم يسم لهم ثلاثا ولا أربعا حتى كان رسول الله هو الذي فسر ذلك لهم. فروايات التحريف رواها بعض محدثي الشيعة كالكليني وغيره، ورواها أهل السنة في صحاحهم كالبخاري ومسلم وغيرهما وهي عندهم أكثر منها عند الشيعة وبشكل أبشع وأسوأ أثرا مما رواه محدثوا الشيعة، والذين آمنوا بها من السنة لا يقلون عمن آمن بها من الشيعة، وان كانوا لا يمثلون رأي الجمهور في ذلك، لان أكثرهم من المنكرين لها، كما هو الحال بالنسبة إلى الشيعة أيضاً. ولو أن الذين كتبوا من السنة وقفوا عند عرض وجهة نظر الفريقين واقتصروا على تفنيد هذا الرأي ا أيا كان قائله، لكان ذلك اقرب إلى منطق الدين والعقل، وابعد عن التحيز والتعصب الذي يثير الشحناء والبغضاء ولا يخدم إلا العدو الذي يستغل هذه المهاترات لأغراضه ومصالحه. ولكنهم بدلا من ذلك، ومع وجود تلك المرويات في صحاحهم ومجاميعهم وقفوا موقف المهاجم العنيد والخصم الحاقد على الشيعة ليقذفوا بمفترياتهم تلك الحصون المنيعة التي بنيت بتعاليم علي وأهل بيته الطيبين المستوحاة من الرسول الأعظم والكتاب الكريم ونسي هؤلاء أن حصونهم وبيوتهم من الزجاج الذي لا يصمد لهبات النسيم فضلا عن العواصف والأحجار. لقد تعرض لمسألة التحريف من المتأخرين الشيخ أبو زهرة في كتابيه (الإمام الصادق، والإمام زيد بن علي) ووصف فيهما الكليني بالنفاق والخروج عن مخطط الإسلام، ودعا إلى التشكيك بجميع مروياته في الكافي وفي نفس الوقت تعرض للسيوطي في الإتقان وغيره ممن روى هذه المرويات وانتهى إلى

والجدير بالذكر أن جمع الإمام علي عليه السلام القرآن لا يعني أنه لم يكن مدوناً، بل كان مدوناً في الرقاع والعسب ونحوها، قام الإمام عليه السلام بتدوينه مصحفاً وذلك بترتيب (الجذاذات) المدون عليها وتوحيدها.

أما مسألة قرآن علي عليه السلام الذي جاء به فلم يقبلوه فإنما يراد به ما جمعه من التفسير والتأويل كما ذكر ذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام بنفسه في رواية

النتيجة التالية. ان ما نقله السيوطي وأشباهه لا يجعل مساغاً للتشكيك في دينهم، وان كنا لا نوافق على سرد الأقوال ذلك السرد الذي سلكه السيوطي في كتابه من غير تمحيص له (انظر ص ٣٢٦ من (كتابه الإمام الصادق) وإذا كان السيوطي مع انه دون هذه الأحاديث في كتابه من غير تمحيص لها لا يصح التشكيك في دينه كما يدعي أبو زهرة، فبماذا يعتذر حضرته عن البخاري الذي اختار جامعه من ستمائة ألف حديث ولا بد وان يكون قد محصها تمحيصا دقيقا حتى انتهى إلى العدد المختار في صحيحه الذي بلغ نحوا من سبعة آلاف وستمائة حديث تقريباً، ومع هذا التمحيص فقد روى أحاديث النقص وما يشبهها غرابة واستهجانا كحديث سحر النبي، ووضع الرب رجله في جهنم، وحديث موسى مع الحجر ونحو ذلك من الأحاديث التي عرضنا قسما منها، وكتابه اصح كتب الحديث بل اصح كتاب بعد كتاب الله على حد تعبيرهم، وإذا أخذنا بمقاييس أبي زهرة يجب التشكيك بدينه والنقد الواعي لجميع مروياته أو طرحها، ولكنه لم يطبق هذا المبدأ إلا على الكليني وحده. فقد قال عندما تحدث عن البخاري محاولا تبرير موقفه من وجود مرويات غير مرضية في صحيحه، قال: والبخاري ذاته هو اصح الكتب إسنادا قد أخذت عليه أحاديث: وما كان ذلك مسوغا لتكذيب البخاري ولا كان ذلك مسوغا لنقض الصحيح الذي رواه. ونحن لا ننكر عليه أن وجود بعض المرويات المكذوبة في أي كتاب كان لا يوجب الطعن والتفسيق لصاحب الكتاب، ولا سقوط جميع مروياته، والذي أنكرناه انه كان من المفروض عليه وهو يدعى التجرد والإخلاص للحق أن لا يفرق بين الكليني والبخاري، وان يحكم عليهما بحكم واحد، لان كلا منهما قد روى أحاديث النقص والتحريف. وأخذت عليه أحاديث لا يمكن الالتزام بها والاطمئنان إليها، فلماذا وهو الباحث المجرد على حد زعمه، كانت تلك المرويات المكذوبة في الكافي موجبة للطعن في دينه والتشكيك بجميع مروياته والمرويات المكذوبة في البخاري لا توجب شيئا من ذلك. للمزيد راجع (دراسات في الحديث والمحدثين- هاشم معروف الحسيني ص ٣٥٢).

رويت عنه ومن المعلوم أنهم لم يكونوا يريدون التفسير والتأويل لأنه كان امتيازا له، وأما مسألة جمع عمر وجمع عثمان على فرض الصحة فالمراد بالجمع إن المصاحف المتشتتة التي كتب كل من الصحابة لنفسه جزء منه أتلفت حتى لا يكون هناك مصحف كامل ومصاحف ناقصة إذ من الطبيعي أن مدرس الفقه أو الأصول مثلاً الذي يجمع كلامه تلاميذه يختلفون فيما يكتبونه عنه حيث أن بعضهم يكون غائبا لمرض أو سفر أو ما أشبه فلا يكتب هذا الغائب الكل مع أن الأستاذ بنفسه أو بعض التلاميذ دائمي الحضور يكتبون الكل، وعمر وكذلك عثمان إنما أبادا مثل هذه المصاحف المختلفة والمتشتتة لا القرآن الكامل الذي كان في زمان الرسول.هذا وقد لاحظت أن مصاحف كتبت قبل ألف سنة وكانت في خزانة روضة الإمام الحسين فلم تكن إلا مثل هذا القرآن بدون أي تغيير إطلاقاً، كما أن هناك عدة مصاحف موجودة من خط الأئمة في كل من إيران والعراق وتركيا وكلها كهذا القرآن بلا تغيير أصلاً(١).

ثم جاءت خلافة عثمان، وقد اتسعت رُقعة الإسلام، واختلط العرب الفاتحون بالأمم التي لا تعرف العربية، وخيف أن تذوب خصائص العروبة من العرب من جراء هذا الفتح والاختلاط، بل خيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه إن لم يجتمعوا على مصحف، فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير، لهذا أمر أن تُنسخ نُسخ منه ويُبعث بها إلى أقطار العالم الإسلامي، ولهذا يقال: أنه أول من وضع رسم القرآن الكريم أو علم الرسم العثماني(٢).

ثم جاء من بعد عهد الخلافة الراشدة، دور الصحابة الأجلاء، ومشاهير التابعين، فاتجهوا لنشر علوم القرآن الكريم بالرواية والتلقين، و

---

(١) متى جُمع القرآن: الشيرازي قدس سره ص ١٢.

(٢) الزرقاني: مصدر سابق ص٢٣.

بالكتابة والتدوين. وسوف نتحدث عن هذه الحقب الزمنية بشيء من التفصيل على حسب القرون.

الزرقاني، وتدوين علوم القرآن:

ولعله يعلم أو لا يعلم، عندما نفى أن تكون هناك محاولات تدوينية لهذا الفن في القرن الأول، والثاني، والثالث، والرابع، والخامس، بل يميل أنه دون في القرن السابع. بقوله:... لقد كان المعروف لدى الكاتبين في تاريخ هذا الفن، أن أول عهد ظهر فيه هذا الإصلاح أي صلاح علوم القرآن، هو القرن السابع[(١)].

لكن استدرك بعد ذلك وقال: لكني ظفرت في دار الكتب المصرية بكتاب لعلي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي أسمه (البرهان في علوم القرآن) وهو يقع في ثلاثين مجلداً والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً غير مرتبة ولا متعاقبة... إذن نستطيع أن نجزم بتاريخ هذا الفن نحو قرنين من الزمان أي إلى بداية القرن الخامس بدلا من القرن السابع[(٢)].

ولعله لا يريد أن يعطي الشيعة قصب السبق في تدوين هذا الفن، ولذلك لم يعترف بالقرون السابقة، لأن علماء الإمامية كانوا السابقون لتدوين هذا الفن، وهذا ما سوف نلاحظه من خلال البحوث القادمة.

تدوين علوم القرآن في القرن الأول للهجرة:

من ضرب بسهمه في هذا المضمار الخلفاء الأوائل، وأبن عباس حبر الأمة. قال الزركشي: وصدر المفسرين من الصحابة، علي ثم ابن عباس، إلا

---

(١) مناهل العرفان: مصدر سابق ج ١ ص ٢٧.

(٢) مناهل العرفان: مصدر سابق ج ١ ص ٢٨.

أن ابن عباس كان قد أخذ عن علي[١].

وقد ورد أن رسول الله ﷺ دعا لأبن عباس بقوله: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل[٢].

ومن المعتنين أيضا، الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري (٧٤هـ) الذي عده أبو الخير في طبقات المفسرين من الطبقة الأولى، ومنهم عبدالله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري، ومنهم الصحابي الجليل أُبي بن كعب، وهو أول من صنف في فضائل القرآن الكريم، وهو سيد القراء، وعده أبو الخير في الطبقة الأولى من المفسرين، وهو ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ[٣].

ومنهم سعيد بن جبير، التابعي وهو من أعلم التابعين في التفسير. قال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة.... وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير[٤].

تدوين علوم القرآن في القرن الثاني للهجرة:

وممن اهتموا بعلوم القرآن وعنوا بها: أبان بن تغلب (ت١٤١هـ) فهو أول من صنف في القراءة ودون علمها، وأول من صنف في معاني القرآن، وأول من صنف في غريب القرآن الكريم.

ومنهم طاووس بن كيسان (ت١٠٦هـ) وهو من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليهما السلام عده الشيخ ابن تيمية من أعلم الناس بالتفسير، ومنهم المعز بن السائب الكلبي، ومن أصحاب الإمام الباقر عليه السلام وهو أول من صنف في

(١) البرهان: الزركشي، ج ٢ ص١٥٧، ط الأولى.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الطبرسي: مجمع البيان، ج ١ ص ٧، ط الأولى.
(٤) السيوطي: الإتقان، ج ٢ ص ١٧٩.

أحكام القرآن، ومنهم شعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، والسدي (ت١٢٧هـ) وأبو حمزة الثمالي صاحب الإمام زين العابدين عليه السلام[١].

تدوين علوم القرآن في القرن الثالث للهجرة:

ومن مشاهير المهتمين بعلوم القرآن في هذا القرن: الفراء يحيى بن زياد (ت٢٠٧هـ) فقد صنف في معاني القرآن، ومنهم علي بن إبراهيم القمي وله كتاب تفسير القرآن، ومنهجه منحى التفسير بالمأثور عن أهل البيت عليهم السلام، وعليه المعول عند الكثيرين من المهتمين بالشؤون القرآنية، لأن المؤلف أدرك الإمام العسكري عليه السلام وأخذ عنه الكثير وهو من أعيان القرن الثالث.

ومنهم محمد بن جنيد، يُعد من مشاهير العلماء، وهو من المبادرين الأوائل الذين صنفوا في الفِقه المقارن، وهو أول من صنف في الأمثال القرآنية.ذكره ابن النديم في كتبه الفهرست. قال: كتابه الأمثال لأبن جنيد، يُعد من المصنفات النادرة، وهو أول من صنف في هذا العلم، وله مصنفات كثيرة، وهو من معاصري والد الشيخ الصدوق قدس سره[٢].

ومنهم العياشي محمد بن مسعود، فقد ذكر المؤرخون أن له ما يقرب من مائتي مصنف، منها كتاب التفسير المعروف بـ(تفسير العياشي) والحسن بن علي بن فضال له كتاب (الناسخ والمنسوخ) وكان من خواص الإمام الرضا عليه السلام توفي سنة ٢٢٤هـ ومنهم محمد بن العباس بن علي المعروف بابن الحجام له في كل علوم القرآن كتب مفردة وله كتاب (ما نزل في أهل البيت

(١) الفهرست: ابن النديم، المصدر السابق، ج ١ ص ١٣٢.
(٢) ابن النديم: المصدر السابق، وراجع كتاب تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، ص٣٠٩، ٣٠٥.

من القرآن) وهو ألف ورقه. ومنهم علي بن المديني (ت٢٣٤هـ) له كتاب (أسباب النزول)، وأبو عبيد القاسم بن سلام له كتاب(الناسخ والمنسوخ) و(القراءات) و(فضائل القرآن)، ومنهم محمد بن أيوب الضريس (ت٢٩٤هـ) صنف في المكي والمدني[١].

تدوين علوم القرآن في القرن الرابع للهجرة:

وفي هذه المرحلة من مراحل تدوين علوم القرآن الكريم نشط العلماء في تكريس جهودهم في تدوين علومه بصورة واسعة، فكان من أشهرهم: أبو علي الكوفي (ت٣٤٦هـ) له كتاب (فضائل القرآن) ومنهم ابن جرير الطبري (٣١٠هـ) له كتاب (فضائل القرآن) وتفسيره المشهور(تفسير الطبري) ومنهم ابن عقدة أبو العباس وهو وحيد دهره في حفظ الحديث (ت٣٣٣هـ) له كتاب تفسير في القرآن بالمأثور عن أهل البيت عليهم السلام ومنهم أبو بكر بن القاسم الأنباري (ت٣٢٨هـ) له مصنف في (عجائب علوم القرآن) وأبو الحسن الأشعري له كتاب(المختزن في علوم القرآن) ومحمد الأدقوي (ت٣٨٨هـ) وله كتاب (الاستغناء في علوم القرآن) في عشرين مجلداً، وعبدالله بن أبي داود سليمان الأشعث (ت٣١٦هـ) له كتاب (المصاحف) والسيد الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ) وله كتاب (تلخيص البيان في مجازات القرآن)[٢].

تدوين علوم القرآن في القرن الخامس للهجرة:

وفي هذا القرن ازداد ازدهار المؤلفات، وكثرت المصنفات فظهر منها تفسير (البرهان في علوم القرآن) وكتاب(البيان في علوم القرآن) للشيخ

---

(١) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص٣٢٠.

(٢) المصدر السابق.

المفيد محمد بن النعمان (ت٤٠٩ هـ، وقيل ت٤١٣هـ) وكتاب (التبيان في تفسير القرآن) للشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥هـ - ٤٦٠هـ) وكتاب (التيسير في القراءات السبع) وكتاب (المحكم في اللفظ) لأبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) وكتاب (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ).

تدوين علوم القرآن في القرن السادس للهجرة:

من المصنفين المبدعين في هذه الفترة: الشيخ رشيد الدين محمد بن علي بن شهرأشوب(ت٥٨٨هـ) له كتاب (أسباب النزول) وكتاب(متشابه القرآن) ومنهم الشيخ أبو الفتوح الرازي له كتاب(روض الجنان في تفسير القرآن الكريم) في عشرين مجلداً.

ومنهم أمين الدين الطبرسي (ت٥٤٨هـ) وقيل (٥٥٢هـ) صاحب اشهر تفسير عند الشيعة الإمامية وهو(مجمع البيان في تفسير القرآن) ومنهم ابن الجوزي(ت٥٩٧هـ) صاحب كتاب (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن).

تدوين علوم القرآن في القرن السابع للهجرة:

ومن علماء هذا القرن علم الدين السخاوي (ت٦٤٣هـ) له كتاب (جمال القراء وكمال الأقراء) والعز بن عبدالسلام (ت٦٦٠هـ) صنف في مجاز القرآن، وأبو شامة (ت٦٦٥هـ) له كتاب (المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز).

تدوين علوم القرآن في القرن الثامن للهجرة:

وفي هذا القرن ألف بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي (٧٥٤هـ-٧٩٤هـ) له كتاب (البرهان في علوم القرآن).

تدوين علوم القرآن في القرن التاسع للهجرة:

أزداد في هذا القرن التأليف وتنوع: فصنف جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) كتابا أسمه (الإتقان في علوم القرآن) وهو من اشهر ما صنف في هذا الفن، وكتابه (التحبير في علوم التفسير) وكتابه (معترك الأقران في تفسير القرآن). وصنف جلال الدين البلقيني كتابه (مواقع العلوم في مواقع النجوم).

ثم استمر العلماء في إغناء المكتبة الإسلامية بكثير من المصنفات التي تخصصت ففي شؤون تدوين علوم القرآن وتفسيره، فقد أبدع صاحب كتاب(قلائد الدرر) الشيخ أحمد الجزائري (ت١١٥١هـ) في هذا الفن، وفي القرن الأخير ظهرت بدائع المؤلفات ونفائسها الكثيرة التي أثرت المكتبة القرآنية فكان من بينهم صاحب تفسير (الميزان في تفسير القرآن)، وهو من أجود الكتب التفسيرية التي اعتنت بشؤون القرآن الكريم.

الدرس السابع:

مراحل تكوينية لمنهج التفسير

لقد مر تفسير القرآن الكريم بمراحل متعددة، كان لكل مرحلة من تلكم المراحل منهجها وآلياتها بحسب زمانها وآليات معرفتها وقربها بزمان الصدور، وهذه التفاسير التي نراها في متناول أيدي المسلمين، كلها كانت بعد عهد رسول الله ﷺ ورحيله إلى عالم الآخرة، إذا ما كان أحد من الصحابة في عهد الرسول ﷺ من يجرأ على تفسير شيء من القرآن طالما أن الرسول ﷺ كان بين ظهرانيهم بل كانوا هم بدورهم يفزعون إليه ﷺ عند كل مشكل يحيق بهم أو أمر يغم عليهم أو غموض في بعض الألفاظ أو تراكيب منه، فيشرح لهم الرسول ﷺ كل ما طلب منه ويجيب على كل استفسار يوجه إليه بسبب (إنما يعرف القرآن من خُوطب به).

ولكن بعد انتقال الرسول ﷺ إلى رحاب الخلد وانقطاع الوحي عن الأرض لم يكن بد بعد ذلك أمام الأئمة عليهم السلام وأقطابهم من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم من أن يرووا للناس ويفسروا لهم كل ما كان يغم عليهم من معاني الآيات الكريمة، وفقاً لما سمعوه من أقوال الرسول ﷺ أو شاهدوه من الظروف والأسباب التي نزل بها القرآن، أو بتفسير القرآن بالقرآن نفسه

لأن القرآن ينطق بعضه ببعض.

وإن كان هناك أختلاف واضح عند علماء التفسير في المقدار الذي شرحه رسول الله ﷺ من القرآن لأصحابه، فبعضهم ذهب إلى القول: بأن الرسول ﷺ شرح لأصحابه كل معاني القرآن وأغراضه وألفاظه.

ومنهم: من ذهب إلى القول: أن الرسول ﷺ لم يشرح لأصحابه من القرآن إلا القليل هو الذي طلب منه شرحه أو تطلب الحال تبيان معناه.

ولعل الراجح عندنا وعند كثير من علماء التفسير: أن الرسول ﷺ قد شرح كثيراً من معاني القرآن لأصحابه ولكنه لم يبين لهم كافة معانيه وحقائقه بالنظر للفترة القصيرة نسبياً التي عاشها ﷺ وما حفلت من أحداث وأزمات تخص نشر الدعوة وتعضيد الدولة مسائل الحرب والسلم، وعلى هذا الرأي عدد ليس بالقليل من أساطين الأعلام عند فرق المسلمين(١).

عرضٌ موجز لمراحل تفسير القرآن:

قلنا أن تفسير القرآن الكريم مر بمراحل متعدد بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولكل مرحلة من هذه المراحل أساليبها وآلياتها بحسب مقتضى ذلك الزمان وبحسب مقدرة المُفسر العلمية، واتصاله بقرب النزول أو صدور النص القرآني أو أخذه من حملته كأهل البيت عليهم السلام أو الصحابة أو التابعين رضي الله عنهم.

ويمكن أجمالها بشيء من الإيجاز وهي عبر ثلاث مراحل وهي:

١- مرحلة التكوين (صدور النص من النبي صلى الله عليه وآله):

يُعد النبي ﷺ أول مفسر للقرآن الكريم، ولا يختلف في ذلك اثنان،

---

(١) لمحات من تاريخ القرآن: محمد علي الإشيقر، ص٢٤٦.

إذ تمكن خلال فترة حياته الشريفة أن يكون مبيناً ومفسراً لآيات القرآن الكريم لأهل البيت أولا ومن ثمة لأصحابه الأجلاء وهم بدورهم لعامة المسلمين، وإن لم تسعفه ظروفه الحياتية والسياسية والاجتماعية لتبين كامل حقائقه لهم، كما أسلفنا القول فيه، إلا أنه على الأقل تمكن من تفسيره وشرح آياته بكاملها لأهل بيته عليهم السلام وهم بدورهم كانوا يكملون تعاليمه وحقائقه لعامة الناس بما في ذلك الصحابة الأجلاء.

وقد تصدى للتفسير في صدر الإسلام ممن هضم كل أو بعض الحالات المتقدمة كثيرون ويأتي على رأسهم الإمام علي عليه السلام ومنهم عبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت وأنس بن مالك، وجابر بن عبدالله الأنصاري، ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير...[١]

وجاء في كتاب الوصائل إلى الرسائل:إن القرآن الحكيم كما نستظهره من الأدلة ومن الحس لم ينقص منه حرف ولم يزد عليه حرف ولم يغير منه حتى فتح أو كسر أو تشديد أو تخفيف ولا فيه تقديم ولا تأخير بالنسبة إلى ما رتبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وفسره لأهل بيته وأصحابه، وإن كان فيه تقديم وتأخير حسب النزول فإن القرآن الذي كان في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو نفس القرآن الموجود بأيدينا الآن. فقد عين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه مواضع الآيات والسور حسب الذي نجده الآن وهناك روايات تدل على ذلك فقد روي متواتراً إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال من ختم القرآن كان له كذا. فلو لم يكن القرآن مجموعا كاملا في زمانه لم يكن معنى لختمه كما أن القرآن كان في زمانه مكتوبا بكامله وموضوعا في مسجده عند منبره يستنسخه من أراد هذا وكان الآلاف من المسلمين قد حفظوا القرآن كله كما في التواريخ. وهكذا بقي القرآن الذي

(١) الزركشي: مصدر سابق ص ٢٥، والإشيقر، مصدر سابق ص٢٤٦.

كان في زمن الرسول ﷺ إلى اليوم غضا سالما على ما كان عليه من الترتيب والتنظيم...[١]

نعم قد اختصت شريحة من المسلمين واستأثرت بعلوم رسول الله ﷺ بما في ذلك الفهم المعمق للقرآن الكريم، وهم أهل البيت عليهم السلام لا سيما مولانا أبي الحسن علي عليه السلام، وهذا يعود إلى أنه كان ألصق الناس برسول الله ﷺ بل حسنة من حسناته وإن الرسول لم يُخفِ عليه شيء مما كان ينزل عليه لأنه منه بمنزلة هارون من موسى.

قال صاحب كتاب التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج١ ص ٢٧٦، ط ما نصه:.. ويُعد الإمام علي عليه السلام أول مفسر للقرآن بعد رسول الله ﷺ لأنه كان موضع سره وحامل أختامه ووارث علمه وأقرب الخلق إليه وأولهم إسلاماً وأقدمهم بدين الله، إضافة إلى أنه تفرغ من مهام الخلافة مدة طويلة حتى نهاية خلافة عثمان وتأخر وفاته عليه السلام إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسر لهم ما خفي عنهم من معاني القرآن[٢].

ويتجلي مصداق هذا في أقواله أيضا، إذ يقول عليه السلام: إني لأعرف ناسخه من منسوخة ومحكمه من متشابهه وفصله من فصاله وحروفه من معانيه والله ما من حرف نزل على محمد ﷺ إلا أني أعرف فيم نزل وفي أي يوم وفي أي موضوع ولو اعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته[٣].

وكما أشار الإمام علي عليه السلام في بعض كلماته بقوله: علينا نزل القرآن

(١) الوصائل إلى الرسائل ج٢ ص٩٧-١٠٠.
(٢) الذهبي: التفسير والمفسرون، ج ١ ص ٢٧٦.
(٣) الكافي: باب القرآن ج ١ ص٢٧٦.

قبل الناس، ولنا فسر قبل أن يفسر في الناس، فنحن نعلم حلاله من حرامه وناسخه من منسوخة، وسفريه وحضريه وفي أي ليلة نزلت وفيمن نزلت[(١)].

وعن أهل البيت عليهم السلام تلقى أقوال وشروح القرآن الكريم، جملة كبيرة من الصحابة والتابعين، من أبرزهم سعيد بن جبير، ومجاهد وعكرمة والحسن البصري، وطاووس اليماني، ويحي بن يعمر والضحاك وعطاء بن أبي رباح وعطاء بن أبي مسلم وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرطبي وقتادة، وعطية وزيد بن أسلم و...و...الخ.

طرائق التفسير النبوي للقرآن:

وكان الطابع العام لتفسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن الكريم كان التفسير بالمأثور، ولا يمكن لأحد مهما أوتي من العلوم أن يستغني عن تفسيره صلى الله عليه وآله وسلم أي الوقوف على أحاديثه وكلماته، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم الأعلم بمراد الله تعالى. وقد أشار إلى هذه الحقيقة المحقق أبو الفتح الكراجي في كتابه (كنز الفوائد ج١ ص ١٤٨) بقوله:إن الكتاب وإن لم يفرط فيه الله تعالى من شيء إلا أن الأمة لم تستغن به عن تفسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعانيه وتنبيهه لمراد الله تعالى فيه ولا علمت بسماع تلاوته جميع أحكام الله تعالى في شريعته بل مفتقرة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الإيضاح والبيان معتمدة عليه في السؤال عن معاني القرآن وهو نبيها مؤيد معصوم كامل العلوم يرشد ضالها ويعلم جاهلها ويجيب سائلها وينبه غافلها ويزيل الاختلاف[(٢)].

ولعل المتتبع لكتب أهل الاختصاص في الشؤون القرآنية، يرى

---

(١) الوسائل: ج ١٨ ص١٤٢، باب القرآن، ح، ٥٠.

(٢) كنز الفوائد: الكراجي، ج ١ ص ١٤٨.

واضحا أن أهل البيت عليهم السلام والصحابة الأجلاء أخذوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تفسير القرآن بالمأثور، فأخبارهم شاهدة على ذلك. وقد جمع السيوطي مجمل هذه الروايات التي صدرت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتم بموجبها تفسير بعض النصوص القرآنية على شكل آيات متقطعة ومجزأة، اعتباراً من سورة البقرة وختاما بسورة الناس -وقال السيوطي- فهذا ما حضرني من التفاسير المرفوعة المصرحة برفعها[١].

وربما كان تفسيره صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن توضيحا بآية أخرى، إذاً القرآن يفسر بعضه بعضا، وهذا ما نراه في منهج تفسير القرآن عند أهل البيت عليهم السلام فقد كانوا يفسرونه بآياته فكل آية كانت تفسر الأخرى.

وقد نبغ في هذا المجال على صعيد التفسير بالقرآن والمأثور، جملة كبيرة، فعلى صعيد أهل البيت عليهم السلام الإمام علي عليه السلام وزوجته الطاهرة الزهراء عليها السلام والحسن والحسين عليهما السلام الذين كانوا ينقلون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعامة الناس بما فيهم صحابته الأجلاء.

قال (بروكلمان) في كتابه (تاريخ الأدب العربي، ص٤) ما نصه: أن المرحلة الأولى في تكوين التفسير كانت مرحلة الرواية الممتدة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من قبل أهل البيت عليهم السلام والصحابة والتابعين وتابعيهم، أما المدونات فقد سبق إليها جمهرة من التابعين واثنان من أئمة أهل البيت عليهم السلام وطائفة من أصحابهم[٢].

إذن: أن الأمة لم تستغنِ عن تفسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لآيات القرآن الكريم، وكانت تفسيراته خاضعة تحت نوعين هما:التفسير بالقرآن،

---

(١) الإتقان: السيوطي، ج ٤ ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ص٤.

والتفسير بالمأثور «الأخبار والشرح بلسانه الطاهر ﷺ، أخذا هذا العلم بادي ذي بدأ أهل البيت عليهم السلام وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام إذ كان محلا لثقة رسول الله، وهو ربيب الوحي، من ثم أخذوا جملة الصحابة عنه، والتابعين عن الصحابة.

وكان أول مؤلف في التفسير، الإمام علي عليه السلام الذي كتب مصحفا خاصا يحمل القرآن وتفسيره، من ثم كان ابن عباس حبر الأمة والذي فسر القرآن في كتاب، قد طبع باسم (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) لمجد الدين الفيروز آبادي، وهو في نحو أربعمائة صفحة، والذي هو بدوره أخذ التفسير عن الإمام علي عليه السلام، كما نص على ذلك الزركشي في كتابه مناهل العرفان، ج ٢، ١٥٧، ط الأولى.

٢- المرحلة الثانية التأصيل (ودور أهل البيت عليهم السلام والتابعين):

من ثم جاء دور أهل البيت عليهم السلام والتابعين رضي الله عنهم الذين لعبوا دورا كبيرا في مراحل التأصيلية لتفسير القرآن الكريم، وإن كان أهل البيت عليهم السلام لم ينهجوا منهجا خاصا يختلف عن جدهم رسول الله ﷺ إذا أنهم ساروا على غرار منهجه في التفسير بالمأثور أو تفسير بعض الآيات بالقرآن نفسه، كذلك هم الصحابة أيضا.

وليس من شك أن حديث أهل البيت عليهم السلام من أهم مفاتيح معرفة كتاب الله، ولا يمكن لأي مفسر يريد أن يفهم كتاب الله تعالى أن يستغني عما أثر عنهم عليهم السلام في هذا الميدان، وإذا لم يضع نصب عينيه الخطوط الأساسية التي رسموها عليهم السلام لفهم القرآن الكريم، فإن الفشل سيكون نصيبه.

أما على صعيد التأليف في مثل هذا المنهج التأصيلي لتفسير القرآن الكريم، فقد كان من التابعين الأوائل، التابعين الجليل سعيد بن جبير

(ت٩٣هـ) ومن بعد ألف إسماعيل السدي (ت١٢٧هـ)، ثم محمد بن السائب الكلبي(ت١٤٦هـ) وهو صاحب التفسير الكبير، ثم أبو حمزة الثمالي [١] أحد خواص الإمامين السجاد والباقر عليه السلام له تفسير أخذه عن الإمامين السجاد والباقر عليهما السلام طبع مؤخرا برعاية آية الشيخ محمد هادي معرفة، اعد

(١) هو: العلم اللائح والطود الشامخ صاحب الإمام السجاد – ع – والراوي عنه ذلك الدعاء الأثري الجليل، ثابت بن دينار، المكنى بأبي حمزة الثمالي الكوفي، رجل العلم الشهير. صحب أربعة من أئمة أهل البيت ولازمهم ونشر آثارهم، الإمام السجاد والإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الكاظم عليهم السلام. قال الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق بشأنه: «أبو حمزة في زمانه مثل سلمان في زمانه» وكفى به مدحا وثناء عليه. وقال الإمام أبو الحسن الرضا – أيضاً – بشأنه: «أبو حمزة في زمانه كلقمان في زمانه. وذلك أنه خدم أربعة منا: علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وبرهة من عصر موسى بن جعفر عليه السلام». وسأل الإمام الصادق أبا بصير عن أبي حمزة، فقال: خلفته عليلا. قال الإمام: «إذا رجعت إليه فأقرئه مني السلام... قال أبو بصير: جعلت فداك، والله لقد كان فيه أنس وكان لكم شيعة ! قال: صدقت. ما عندنا خير له...». والثناء بشأنه عن لسان الأئمة عليهم السلام كثير، الأمر الذي ينبؤك عن انقطاعه إلى أبوابهم الرفيعة والاستقاء من فيض أحاديثهم الشريفة في مختلف العلوم والمعارف الإسلامية العريقة، والتي من أهمها وأفضلها العلم بتفسير القرآن، فقد اشتهر مترجمنا بهذه السمة الجليلة، وانتشرت عنه آثار كريمة، طفحت بها كتب التفسير والحديث. وقد ضبط له أصحاب التراجم مؤلفات منها كتاب التفسير. قال بن خلكان: الثمالي، بضم الثاء المثلثة وفتح الميم وبعد الألف لام هذه النسبة إلى ثمالة واسمه عوف بن أسلم وهو بطن من الأزد، قال المبرد في كتاب " الاشتقاق ": إنما سميت ثمالة لأنهم شهدوا حربا فني فيها أكثرهم فقال الناس: ما بقي منهم إلا ثمالة، والثمالة: هي البقية اليسيرة. (وفيات الأعيان: ج ٤، ص ٣٢٠). وفي تنقيح المقال: لقب عوف بالثمالي لأنه أطعم قومه وسقاهم لبنا بثمالته. للمزيد من المعرفة عنه راجع:(١) اختيار معرفة الرجال: ج ٢، ص ٤٥٥. (٢) الفهرست: الترجمة ١٣٦، ص ٧١. (٣) رجال ابن داود: الترجمة ٢٧٧، ص ٥٩. (٤) رجال العلامة الحلي: الترجمة ٥، ص ٢٩. (٥) تهذيب التهذيب: ج ٢، ص ٧. (٦) تهذيب الكمال: ج ٤، الترجمة ٨١٩. (٧) طبقات المفسرين: ج ١، ص ١٢٦.

جمعه وتأليفه الأستاذ، عبدالرزاق محمد حسين حرز الدين، مجلد واحد، طبع عام ١٤٢٠هـ، دار النشر، دار المفيد، بيروت. ثم أبو بصير الأسدي صاحب الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وله تفسير جليل وهو من تابعي التابعين.

كما أن المؤرخين ذكروا لنا بعض مصنفات الأئمة عليهم السلام في هذا المضمار، فقد نقلوا: أن هناك كتاب مستقل لتفسير القرآن الكريم ألفه الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام[(١)].

وُنقل أيضاً أن هناك تفسيرا للإمام العسكري عليه السلام قد أملاه على محمد بن خالد البرقي، واسمه (تفسير العسكري)، كما أن ابن النديم في كتابه الفهرست عندما ذكر جملة المصنفات في التفسير؛ أشار إلى أسبقية أهل البيت عليهم السلام وتابعيهم في هذا المضمار، إذ أنهم أوائل من سبق إلى برمجة تفسير القرآن الكريم[(٢)].

ولعل من الملاحظ على منهجية التأصيل عند أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن، في هذه المرحلة، أنها لم تخرج عن نطاق التفسير بالقرآن تارة، والتفسير بالمأثور تارةً ثانية.

وأمامنا تراث ضخم وفذ من تفسير أهل البيت عليهم السلام والذي يُعد من مراحل التأصيل التفسير للقرآن الكريم، والذي -كما أسلفنا- خاضعة تحت نوعين هما (التفسير بالقرآن، والتفسير بالمأثور) حيث تمكن من جمعه السيد هاشم البحراني المتوفى سنة ١١٠٧ هـ، في كتابه (البرهان في تفسير القرآن)، والشيخ عبد علي بن جمعة العروسي المتوفى سنة ١١١٢ هـ في تفسيره (نور

---

(١) ذكر ذلك صاحب المناقب، ابن شهراشوب، وابن النديم في كتابه، الفهرست ص٣٦.
(٢) الفهرست: ص٣٦، في أسماء المصنفة في تفسير القرآن.

الثقلين) وتفسير سفيان الثوري، فضلا عن تفاسير فرات الكوفي والعياشي وعلي بن إبراهيم المعروف بـ(تفسير القمي)، وتفسير ابن جرير الطبري(٢٢٤-٣١٠هـ) والذي يُعد من أجل التفاسير بالمأثور عند المسلمين، لما ورد فيه عن الصحابة والتابعين، وكذلك تفسير جلال الدين السيوطي المسمى(الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور) وهو من أجل التفاسير أيضاً. وسوف تعرف مزيد بيان عنها في الفصل الخاص بذلك تحت عنوان(لمحُة سريعة لأهم تفاسير المسلمين).

٣- المرحلة الثالثة: مرحلة التجديد (حداثة الخطاب القرآني):

لعل القارئ يقول: هل الخطاب الديني يتجدد أو قابل للتجديد؟ وكيف يكون متجددا وهو النص التوقيفي الذي صدر عن الله تعالى؟

والجواب على ذلك يتطلب مقدمة بسيطة ألا وهي:

لقد جاء القرآن بعد الإنجيل رسالة السيد المسيح عليه السلام بست قرون، ولذلك فهو يذكر الإنجيل والتوراة من قبله، كما يذكر الكتب السماوية السابقة كثيراً، بل أن من صفات المؤمن الحق في الإسلام الإيمان بالكتب السابقة والملائكة والرسل السابقين على الإسلام، وفي هذا يشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾[2].

---

(١) سورة النساء، آية ١٣٦.

(٢) سورة البقرة، آية ٤.

وكثيرة هي الآيات التي تشير إلى أن القرآن يدعو أتباعه من المسلمين والمؤمنون به أن يؤمنوا بالكتب والرسل السماوية الأولى، ولعل هذه الدعوة الصادقة منه لإتباعه تشير إلى مدى اهتمامه بكل ما يتصل بالله والسماء، فخطابه كان خطاباً متجدد ومنفتحاً على الآخر، بل أن من يقرأه يشعر أن الآيات الكريمة تنطق عن الماضي، والحاضر والمستقبل معا، وهي إحدى الإشارات الغيبية التي خص الله به آياته الكريمة.

يقول أحد الباحثين الغربيين: فإن القرآن يؤكد المكانة البارزة التي يحتلها رسل الله في تاريخ التنزيل مثل نوح وإبراهيم وموسى والأنبياء خاصة المسيح الذي يحتل مكانة بارزة بينهم وهذا يدل على أن الخطاب القرآني متجدد وصالح لكل زمان ومكان[١].

ويشير إلى حقيقة تجديده أيضاً (الفيكونت دوطرازى) في بحث له بعنوان (القرآن بحث علمي تاريخي أثري): من روائع تأثير القرآن أن أئمة المسلمين من غير العرب يرتلونه بلغته العربية، ويحافظون على تجويده، ويشرحونه لأبناء لغتهم في أناء الأمصار، وإذا أمعنا النظر في أولئك المسلمين غير العرب ألفينا عددهم بالملايين وهم منتشرون في أغلب الأقطار شرقاً وغرباً، أعني تركيا وإيران وكردستان وكرجستان وأفغانستان وبلوخستان وفي روسيا والبلقان والهند وجاوه والصين واليابان والحبشة وقلب أفريقيا وبعض أنحاء أوربا وأمريكا واستراليا، تلك مزية تفرد بها القرآن دون سواه من الكتب المنزلة، فالتوراة مثلاً لا يقرؤها بلغتها العبرية إلا أحبار اليهود، ونفر من تفرغوا لدرسها، وأما سائر اليهود، فإن كلا منهم لا يقرأ التوراة إلا بلغة سكان البلاد التي يعيش فيها، وقس عليهم كل المسيحيين في أنحاء العالم بأسره، فأنهم يقرأون الكتاب المقدس مترجما إلى اللغة الجارية

(١) القرآن الحكيم: رؤية منهجية جديدة، ص١٣، د/ صلاح رسلان.

الاستعمال لدى كل شعب أو كل ملة منهم، فلا يقرأه بلغاته الأصلية أعنى العبرية والسريانية واليونانية إلا العلماء فقط وفئة من نصارى الشرق الأدنى، وفريق من نصارى الملبار في الهند الإنجليزية[١].

إذن: ما نفهمه أن التجديد في الخطاب القرآني غير وارد، إذا كان المقصود به التجديد في الآيات وتنسيقها على حسب الموضوعات أو وضع آية محل أخر، فهذا هو التحريف بعينه!

أما التجديد بحسب ما يفهم المفسر اليوم من الآيات الشريفة، فهذا عائد لمقدار ما يفهمه المفسر بحسب موروثه العلمي وسعة إطلاعه وقوة مداركه العلمية والعقلية، فليس لهذا صلة بمفهوم التجديد في الخطاب القرآني، وحتى هذه الأطروحة ليست بصحيحة فلو نظرنا نظرة المتأمل في الآيات لنر أنها جاءت تخاطب الماضي والحاضر والمستقبل وأن القرآن له قدرة عجيبة على مواكبة الزمان والمكان، فالقرآن صالح لكل زمان ومكان.وهذا ما اعترف به كبار علماء الحضارة الغربية. يقول: (هملتون جب في كتابه دراسات في حضارة الإسلام، سنة ١٩٦٤م، ص٢٥٤) أن القرآن سجل لتجربة حية مباشرة في ميدان الإلوهية، تجربة ذات طرفين: واحد مطلق، وآخر متصل بشؤون الحياة العامة، ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته ليتمكن من الأخذ بنصيب في تلك التجربة، وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليسكنه روح تعاليمه، لا بفكرة فحسب بل بقلبه وروحه أيضا، فإنه يحاول أن يستملك شيئا من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسول...[٢].

(١) مقال نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٩، سنة ١٣٦٣هـ-١٩٤٤م، ص٤١٨.

(٢) هملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، سنة ١٩٦٤م، ص٢٥٤.

ولعل الخطاب التجديد في القرآن جاءنا بعد انتشر العلوم الحديثة في العصر الأخير، فقد اتسع نطاق البحث عن علوم القرآن، والسعي لتفسيره تفسيرا يواكب العصرنة التي يعيشه الإنسان العصري، فقد تأثر الأزهر الشريف بهذه الدعوة مما جعله يُدخل في نظامه التعليمي الدراسات القرآنية المعاصرة، بل أضيفت مباحث علوم القرآن عند الأنواع التي عنى ببعض المؤلفون القدامى، بل أضيفت مباحث عصرية متقدمة من الدراسات المعاصرة كل ما يتعلق بالإنسان، والكون، والحياة، وفق الآيات الشريفة، فراح قسم كبير من المفسرين يُفسر القرآن الكريم ويحمل آياته الشريفة مالا تحتمل، ولا مجالا لذكر بعضها هنا، وسوف نستعرض لها في بحوث خاصة بذلك.

كما أننا نلاحظ هذا المنهج في سيرة بعض الصحابة والتابعين من المفسرين، إذ أن بعضهم كان يتأثر بالبعض الأخر، ويبتان هذا التأثر على منهجيته في التفسير. يقول أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام ص١٧٧: وهكذا كانت كل طبقة تروي عمن سبقها وتضيف إلى ذلك ما تجتهد فيه وتستنبطه وما يعرض لها متأثرة في ذلك بالحركة العلمية في عصرهم وما استجد من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية حتى لنستطيع إذا ما لاحظنا تفسيراً ألف في عصر من العصور أن تتبين فيه مقدار الحركة العلمية وأي المذاهب كان سائداً وشائعاً فيه(١).

وعلى هذا السبيل تكونت لدى العلماء وأرباب الفكر تفاسير عديدة ومختلفة والتي جمعت ووحدت في مؤلفات ومجلدات خاصة، فكانت تنقسم منهجيتها إلى قسمين هما:

---

(١) فجر الإسلام: أحمد أمين المصري، ص١٧٧.

١- **التفسير بالمأثور**: ويدعوه بالتفسير بالرواية ويعتمد هذا على صحيح المنقول ويشمل تفسير القرآن أو بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما نقل عن أهل البيت عليهم السلام والصحابة والتابعين، وعلى هذا كثير من المفسرين؛ سوف نستعرضهم في الصفحات القادمة.

٢- **التفسير بالرأي**: والمراد منه هو التفسير الإستحساني أو الترجيحي الظني، ويدعوه البعض بالتفسير بالدراية ويعتمد هذا على الفهم الخاص والاستنباط بالرأي المجرد، وهو تفسير القرآن الكريم بالاجتهادات بعد الإلمام بكلام العرب كالنحو والصرف والبلاغة وأن يكون متمكناً من أصول الدين ومن مبادئ الفقه وأصوله، فضلاً عن الإدراك الكامل لأسباب النزول والناسخ والمنسوخ(١).

ولكل مُفسر طريقته في الكتابة فهو إما أن يأخذ بالمأثور (الأثر) أو بالرأي أو بكلاهما، وهذا ما سوف نلاحظه - في منهجية أغلب المفسرين بالخصوص المعاصرين منهم- في الدروس القادمة إن شاء الله تعالى.

---

(١) لمحاتٌ من تاريخ القرآن:ص٢٥٩، مصدر سابق.

الدرس السابع:

تنزيل القرآن الكريم

إن دراسة هذه المرحلة من مراحل تاريخ القرآن العظيم، تؤكد إلينا ما لا يقبله الشك أن القرآن غير محرف ولا تتمكن قدرة في العالم البشري أن تمس سلامته بالتحريف، إذا أن الله تبارك وتعالى قد تعهد بحفظه وسلامته وصيانته على مر الزمان وأختلف المكان، فمسألة نزول القرآن تؤكد إلينا أنه مصان إذ تدخل الوحي الإلهي بنزوله سالما كما هو اليوم بين يدي المسلمين على قلب رسول الله ﷺ والتي تُعد الحقبة الذهبية من تاريخ الرسالة المحمدية في عصر صاحب الرسالة، والعناية بها منبثقة عن عناية الوحي بصاحبها، وبتواجده معه، يحمله العبء حيناً، ويلقي له بالمسؤولية حيناً آخر، ويتناوب عليه بآيات الله بين هذا وذاك. إن نزول القرآن الكريم بأرقى صور الوحي، وتأريخ نزوله يمثل تأريخ القرآن في حياة النبي ﷺ وهو تأريخ يستغرق ثلاثة وعشرين عاماً من تاريخ الجهاد والعطاء الرسالي(١).

وقبل أن نشرع في البحث حول (نزول القرآن الكريم) ينبغي لنا المرور

(١) هناك عدة أقوال في مدة نزول القرآن سوف نستعرضها في الصفحات الخاصة بتلكم البحوث إن شاء الله تعالى.

على بعض المعاني التي لها صلة وثيقة بهذا البحث، وهي:

معنى النزول:

النزول هو: الحلول، ونزلهم وبهم وعليهم ينزل نزولاً ومنزلاً، حل، ونزله تنزيلاً، وأنزلاً ومنزلاً كمجل، واستنزله بمعنى وتنزل: نزل في مهلة[١].

وفي المصباح المنير: نزل من علو إلى أسفل ينزل نزولاً ويتعدى بالحرف والهمزة والتضعيف، فيقال: نزلت به، وأنزلته ونّزلته واستنزلته بمعنى: أنزلته والمنزل: موضع النزول، والمنزلة مثله، وهي أيضا المكان[٢].

إذن: لغةً يطلق ويراد منه: الحلول، يقال نزل فلان بالمدينة حل بها.

ويطلق أيضا على تحريك الشيء من علو إلى أسفل، يقال: نزل فلان من الجبل، والمتعدى منه معناه: التحريك من علو إلى أسفل، ومنه قوله تعالى: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾[٣]

أراء مدارس التفسير في نزول القرآن الكريم:

لعل الرأي المشهور بينهم أن للقرآن الكريم نزولين، ولكل مدرسة رأي يبتني على الدليل العلمي؛من حيث الضعف والقوة وهما:

الأول: نزول القرآن من اللوح المحفوظ:

نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، جملة

---

(١) الصحاح: الجوهري، ج ١ ص ١٣٠، مادة، نزل.

(٢) المصباح المنير: ج ١ ص ٢٧٦، مادة نزل.

(٣) سورة الرعد، آية ١٧.

واحدة وهذا النزول كان بعد نبوته ﷺ، وكان هذا النزول في ليلة القدر.

الدليل على هذا الرأي:

قوله تعالى:﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ وقال في سورة الدخان:﴿**حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾ وقوله في سورة البقرة: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ..**﴾ ولإنزال أكثر ما يرد في لسان العرب، فيما نزل جملة واحدة، بخلاف النزول، فإنه يعبر به في جانب ما نزل مفرقا فدلت الآيات على أن القرآن نزل جملة واحدة في ليلة القدر، أخذا من سورة القدر، وهي الليلة المباركة، أخذاً من آية الدخان وهي من ليلة شهر رمضان أخذاً من آية البقرة.

وما أخرجه النسائي، والحاكم والبيهقى من طرق دواد بن هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ثم قرا: ﴿**وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ...**﴾ و﴿**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾.

وقد ذكر السيوطي في كتابه (الإتقان ج١ ص٤٠، عن القرطبي: أنه حكى الإجماع على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة في السماء الدنيا[١]

الثاني: نزول القرآن إلى الأرض:

بقى القرآن في اللوح المحفوظ؛بأيدي الملائكة الكرام البررة حتى أذن الله لهذا النور الإلهي أن يسطع في أرجاء الأرض، على قلب رسول الله ﷺ

---

(١) السيوطي: الإتقان، ج ١ ص ٤٠، ط الأولى.

وهذا هو النزول الثاني للقرآن الكريم، والشواهد على ذلك مايلي:

الدليل على هذا الرأي:

قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ...**﴾

قوله تعالى:﴿**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا...**﴾

وقد كان هذا النزول عن طريق جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منجماً مفرقاً، على حسب الوقائع، والحوادث، وحاجيات الناس ومراعاة للظروف والملابسات، وقد اختلف العلماء في مدة هذا النزول، فقيل: عشرون سنة، وقيل ثلاث وعشرون سنة، وقيل:خمس وعشرون سنة، وقيل: ثلاث عشرة، وقيل: خمس عشرة، ولو راعينا التدقيق والتحقيق تكون مدة نزول القرآن اثنين وعشرين سنة، وخمسة أشهر، بناءٍ على أن ما ذهب إليه جمهور العلماء من مراعاة زمن ولادته ووفاته صلى الله عليه وآله وسلم.

الرأي الفصل في مسألة نزول القرآن:

ولعل الرأي الفصل في هذه المسألة ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي قدس سره إذ أنه قبل كل شيء، ثمة فرق بين مصطلح (النزول) ومصطلح (الإنزال). قال قدس سره:

ولعل الرأي الراجح في معناه والذي يتفق مع نزول القرآن الكريم هو: والنزول هو الورود على المحل من العلو، والفرق بين الإنزال والتنزيل أن الإنزال دفعي والتنزيل تدريجي، والقرآن اسم للكتاب المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم باعتبار كونه مقروا كما قال تعالى:﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ**

تَعْقِلُونَ﴾[١]، ويطلق على مجموع الكتاب وعلى أبعاضه. والآية تدل على نزول القرآن في شهر رمضان، وقد قال تعالى:﴿**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾[٢]، وهو ظاهر في نزوله تدريجا في مجموع مدة الدعوة وهي ثلاث وعشرون سنة تقريبا، والمتواتر من التاريخ يدل على ذلك، ولذلك ربما استشكل عليه بالتنافي بين الآيتين. وربما أجيب عنه: بأنه نزل دفعة على سماء الدنيا في شهر رمضان ثم نزل على رسول الله ﷺ نجوما وعلى مكث في مدة ثلاث وعشرين سنة -مجموع مدة الدعوة- وهذا جواب مأخوذ من الروايات التي جاءت عن أهل البيت عليهم السلام.

وأما عن مسألة نزول القرآن في ليلة القدر فأجاب بقوله:

وقوله:﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾[٣]، فإن ظاهر هذه الآيات لا يلاءم كون المراد من إنزال القرآن أول إنزاله أو إنزال أول بعض من أبعاضه ولا قرينة في الكلام تدل على ذلك. والذي يعطيه التدبر في آيات الكتاب أمر آخر فإن الآيات الناطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة منه إنما عبرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدال على الدفعة دون التنزيل كقوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾[٤] وقوله تعالى:﴿**حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾[٥]، اعتبار الدفعة أما بلحاظ اعتبار المجموع في الكتاب أو البعض النازل منه كقوله تعالى: ﴿**كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء**﴾[٦]، فإن المطر إنما ينزل تدريجا لكن النظر هاهنا معطوف إلى

---

(١) سورة الزخرف، آية ٣.

(٢) سورة الاسراء، آية ١٠٦.

(٣) سورة القدر، آية ١.

(٤) سورة البقرة، آية ١٨٥.

(٥) سورة الدخان، آية ٣.

(٦) سورة يونس، آية ٢٤.

أخذه مجموعا واحدا، ولذلك عبر عنه بالإنزال دون التنزيل وإما لكون الكتاب ذا حقيقة أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي الذي يقضى فيه بالتفرق والتفصيل والانبساط والتدريج هو المصحح لكونه واحدا غير تدريجي ونازلا بالإنزال دون التنزيل.. وهذه الاحتمال الثاني هو اللائح من الآيات الكريمة فإن هذا الأحكام مقابل التفصيل، والتفصيل هو جعله فصلا فصلا، وقطعة قطعة فالأحكام كونها بحيث لا يتفصل فيه جزء من جزء ولا يتميز بعض من بعض لرجوعه إلى معنى واحد لا أجزاء ولا فصول فيه، والآية ناطقة بأن هذا التفصيل مشاهد في القرآن إنما طرء عليه بعد كونه محكما غير مفصل.

وملخص ما يذهب إليه العلامة الطباطبائي قدس سره أن هناك حكمة من نزول القرآن على دفعة جمليا على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن ثم كان له نزولا تدريجيا تم في ثلاث وعشرين عاما بحسب الحوادث، والحاجيات[١] وهذا ما عليه جملة كبيرة من علماء التفسير من مدرسة الإمامية، وبعض المذاهب الإسلامية، كما ذهب إلى هذا الرأي شيخ الأزهر د/ محمد محمد أبو شهبه، عميد كلية أصول الدين، في كتابه (مدخل لمدارسة القرآن الكريم ص٤٩، الطبعة الثانية) وللمزيد من الإطلاع راجع ما ذُكر من المصادر السابقة.

---

(١) تفسير الميزان: السيد الطباطبائي ج ٢ ص ١٥، وج ٢٠، ص٣٣٠.

الدرس الثامن:

كيفيات الوحي في نزول القرآن الكريم

يُستحسن بنا أن نقف قليلا على معنى الوحي أولاً، فنقول:

للوحي معنى في اللغة، ومعنى في الاصطلاح، كما أن له أقسام تشعبت فيها أقوال العلماء، ولكن ما يهمنا في هذا الدرس أن نلقى بالأضواء على معنى الوحي لغة، واصطلاحا، ومن ثمة نذكر أهم أقسامه بالنسبة لعلماء التفسير من أهل الفن والاختصاص.

الوحي لغةً:

قال في الصحاح:الوحي، الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك، فيقال: إليه الكلام وأوحيت، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه[1].

وفي القاموس المحيط: الوحي: الإشارة، والكتابة، والمكتوب والرسالة، والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقيته لغيرك من السري أو الكلام[2].

---

(١) الصحاح: الجوهري، ص٢٨٣.

(٢) القاموس: ج٢ ص ١٨٧.

وقال الراغب في المفردات: أصل الوحي: الإشارة السريعة ولتضمن السرعة، قيل: أمر وحى، يعنى: سريع، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعويض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة بعض الجوارح وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى:﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ، أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ أي أشار إليهم ولم يتكلم(١).

فالخلاصة في التعريف اللغوي: أن الوحي هو: الإعلام الخفي السريع، والذي يكون على شكل هالة نورانية بحته لا يراها إلا من أختص بها، وهو ما جرى مجرى الإيماء والتنبيه على شيء من غير أن يفصح به.

الوحي اصطلاحا:

يعنى الطريقة الخاصة التي يسلكها الله تعالى في التحدث مع أنبيائه ورسله لإعلامهم ألوان الهداية والعلم والتبليغ، وهي في الغالب تكون مخفية عن إطلاع الآخرين ولذلك عبر عنها الله تعالى بالوحي. قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**﴾(٢)

وهذه الطريقة في تلقي بالوحي على سبعة طرق، سوف نذكرها سبعتها ومن ثم نتحدث عن أهمها اتفاقا عند علماء.

قال السهيلي أنواع الوحي سبعة:

الأول: الرؤيا الصادقة لقوله تعالى: ﴿**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**﴾.

---

(١) الراغب: المفردات، ج ١ ص ١٤٣.

(٢) سورة النساء، آية ١٦٣.

الثاني: النفث في الروع لقوله ﷺ: إن روح الأمين نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب[١].

الثالث: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليه وكان كذلك ليستجمع عنده تلك الحالة فيكون أدعى لما يسمع.

الرابع: أن يمثل له الملك رجلا كما كان يأتيه في صورة دحية الكلبي. وكان دحية حسن الهيئة وحسن الجمال.

الخامس: أن يتراءى له جبرائيل عليه السلام في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح ينتشر منها اللؤلؤ والياقوت.

السادس: أن يكلمه الله تعالى من وراء حجاب في اليقظة كما في ليلة الإسراء.

السابع: ما ثبت أن إسرافيل وكل به ﷺ ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي ثم وكل به جبرائيل فجاءه بالقرآن. قوله: (وحين جمع له النبوة – الخ) أي حين جمع له أسباب النبوة من الرؤية في المنام وسماع الصوت من غير معاينة وغيرها مما أوحاه جبرائيل عليه السلام وكلمه عيانا ومواجهة فهو نبي ورسول. ومن الأنبياء من جمع له أسباب النبوة ولم يعاين الملك في اليقظة فهو نبي وليس برسول، فالرسول أخص مطلقا من النبي[٢].

أهم الطرائق لتلقي الوحي:

وهذه الطريقة لها ثلاثة معان وهي:

١- إلقاء المعنى في قلب النبي ﷺ أو النفث في روعه، بحيث يحس بأنه تلقاه عن الله تعالى، كما قال ﷺ: إن روح القدس نفث في روعي، وأنه

(١) الكافي: ج١ص٨٠ باب، المعاش.

(٢) شرح الأصول: المازندراني ج ٥ ص ١١٨.

لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها[(١)].

٢- أن يلقي ملك الوحي المرسل من قبل الله تعالى إلى أحد أنبيائه، ما كلف بإلقائه إليه، سواء أكان هذا الملك على هيأته الملكية، أم على هيأة رجل، ويميل إلى هذا الرأي، السيوطي في كتابه (معترك الأقران، ج ٢ ص ٢١٥، وكتابه الإتقان، ج ١ ص ٤٤).

٣- تكليم الله تعالى النبي من وراء حجاب، كما نادي الله تعالى موسى عليه السلام من وراء الشجرة، فسمع نداءه قائلاً: ﴿**وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾[(٢)]

وهذه الطرائق الثلاثة ما نطقت به الآيات الكريمة من سورة الشورى.قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[(٣)]

وقفة مع الآية الكريمة:

ويُستحسن بنا أن نقف على معنى هذه الآية الكريمة التي حصرت طرائق تلقي الوحي للأنبياء والمرسلين عليهم السلام بثلاثة طرق، فقد أسهب القول في شرح هذه الآية، الشريف المرتضى في أمالية، بقوله: إن سأل سائل عن تأويل قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ**﴾ الآية.. فقال أو ليس ظاهر هذا الكلام يقتضى جواز الحجاب عليه

(١) الرواية ذكرت في أكثر من مصدر، ولكننا اعتمدنا رواية الكافي، في ج ١ ص ٨٠، باب الإجمال في الطلب من كتاب المعاش، ومعنى النفث، النفخ، ونفث الله الشيء في القلب من باب ضرب ألقاه، والروع بالضم الخاطر والقلب.

(٢) سورة النساء، آية ١٦٤.

(٣) سورة الشورى، آية ٥١.

تعالى وأنتم تمنعون من ذلك.. الجواب قلنا ليس في الآية أكثر من ذكر الحجاب وليس فيها أنه حجاب له تعالى ولمحل كلامه أو لمن يكلمه وإذا لم يكن في الظاهر شيء من ذلك جاز صرف الحجاب إلى غيره عز وجل مما يجوز أن يكون محجوبا فقد يجوز إن يريد تعالى بقوله أو من وراء حجاب أنه يفعل كلاما في جسم محتجب عن المتكلم غير معلوم له على سبيل التفصيل فيسمع المخاطب الكلام ولا يعرف محله على طريق التفصيل فيقال على هذا هو متكلم من وراء حجاب.. وروى عن مجاهد في قوله تعالى:﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا**﴾ قال هو داود عليه السلام أوحى في صدره فزبر الزبور أو من وراء حجاب وهو موسى عليه السلام أو ترسل رسولا وهو جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.. فأما أبو على الجبائي فإنه ذكر أن المراد بالآية:﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ**﴾إلا مثل ما يكلم به عباده من الأمر بطاعته والنهى لهم عن معاصيه وتنبيهه إياهم على ذلك من جهة الخاطر أو المنام أو ما أشبه ذلك على سبيل الوحي.. قال وإنما سمي الله ذلك وحيا لأنه خاطر وتنبيه وليس هو كلاما لهم على سبيل الإفصاح كما يفصح الرجل منا لصاحبه إذا خاطبه والوحي في اللغة إنما هو ما جرى مجرى الإيماء والتنبيه على شيء من غير أن يفصح به فهذا هو معنى ما ذكره الله تعالى في الآية.. قال وعنى بقوله:﴿**أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ**﴾ أي يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلا من يريد أن يكلمه به نحو كلامه لموسى عليه السلام لأنه حجب ذلك عن جميع الخلق إلا موسى وحده في كلامه إياه أولا فأما كلامه إياه في المرة الثانية فإنه إنما أسمع ذلك موسى عليه السلام والسبعين الذين كانوا معه وحجبه عن جميع الخلق سواهم فهذا هو معنى قوله عز وجل:﴿**أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ**﴾ لان الكلام هو الذي كان محجوبا عن الناس.. وقد يقال أنه تعالى حجب عنهم موضع الكلام الذي أقام الكلام فيه فلم يكونوا يدرون من أين يسمعونه لان الكلام عرض لا يقوم إلا في جسم ولا يجوز أن يكون أراد تعالى بقوله:﴿**أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ**﴾ أن الله تعالى كان:﴿**مِن وَرَاء حِجَابٍ**﴾ يكلم

عباده لان الحجاب لا يجوز إلا على الأجسام المحدودة..

قال وعنى بقوله:﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء﴾ إرساله ملائكة بكتبه وكلامه إلى أنبيائه عليهم السلام ليبلغوا عنه ذلك عباده على سبيل إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنزاله سائر الكتب على أنبيائه عليهم السلام فهذا ضرب من الكلام الذي يكلم الله تعالى عباده ويأمرهم فيه بطاعته وينهاهم عن معاصيه من غير أن يكلمهم على سبيل ما كلم به موسى عليه السلام وهذا الكلام هو خلاف الوحي الذي ذكره الله تعالى في أول الآية لأنه قد أفصح تعالى لهم في هذا الكلام بما أمرهم به ونهاهم عنه والوحي الذي ذكره تعالى في أول الآية إنما هو تنبيه وخاطر وليس إفصاح وهذا الذي ذكره أبو علي أيضا سديد والكلام محتمل لما ذكره.. ويمكن في الآية وجه آخر وهو أن يكون المراد بالحجاب البعد والخفاء ونفى الظهور وقد تستعمل العرب لفظ الحجاب فيما ذكرناه يقول أحدهم لغيره إذا استبعد فهمه واستبطأ فطنته بيني وبينك حجاب وتقول للأمر الذي تستبعده وتستصعب طريقه بيني وبين هذا الأمر حجاب وموانع وسواتر وما جرى مجرى ذلك فيكون معنى الآية أنه تعالى لم يكلم البشر إلا وحيا بأن يخطر في قلوبهم أو بأن ينصب لهم أدلة تدلهم على ما يريده أو يكرهه منهم فيكون من حيث نصبه للدلالة على ذلك والإرشاد إليه مخاطبا ومكلما للعباد بما يدل عليه وجعل تعالى هذا الخطاب من وراء حجاب من حيث لم يكن مسموعا كما يسمع الخاطر وقول الرسول ولا ظاهرا معلوما لكل من أدركه كما أن أقوال الرسل المؤدين عنه تعالى من الملائكة بهذه الصفة فصار الحجاب هناك كناية عن الخفاء وغيره مما يدل عليه الدلالة وليس لأحد أن يقول إن الذي تدل عليه الأجسام هو من صفاته تعالى وأحواله ومراده ولا يقال أنه تعالى متكلم لذاته وذلك أن غير ممتنع على سبيل التجوز أن يقال انه تعالى فيما يدل عليه الدليل الذي نصبه الله تعالى ليدل على مراده ويرشد إليه إنه مكلم لنا ومخاطب ولهذا لا يمتنع المسلمون من أن يقولوا إنه تعالى خاطبنا بما دلت عليه الأدلة العقلية

وأمرنا بعبادته واجتناب ما كرهه منا وفعل ما أراده وهكذا يقولون فيمن فعل فعلا يدل على أمر من الأمور قد خاطبنا فلان بها فعل من كذا بكذا وكذا وقال لنا وأمرنا وزجرنا وما أشبه ذلك من الألفاظ التي يجرونها على الكلام الحقيقي وهذا الاستعمال أكثر وأظهر[١].

كما أن هناك رواية تدل على هذه الطرائق الثلاث منها:

١- عن إبراهيم والفضل ابني محمد الاشعريين عن عبيد بن زرارة، عن أبيه، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا انزل عليه الوحي؟ فقال: ذاك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلى الله له، قال: ثم قال: تلك النبوة يا زرارة، و اقبل متخشع[٢].

ومن هذه الرواية يُفهم أن هذه الغشية التي تأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نزول الوحي، ليست الملائكة بعينها، إنما هذه الغشية من خطاب الله تبارك وتعالى المباشر لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ما أشار إليه الشيخ في كتابه الاعتقادات بقوله: الاعتقاد في نزول الوحي من عند الله عز وجل بالأمر والنهي: اعتقادنا في ذلك أن بين عيني إسرافيل لوحاً، فإذا أراد الله عز وجل أن يتكلم بالوحي ضرب اللوح جبين إسرافيل، فينظر فيه فيقرأ ما فيه، فيلقيه ميكائيل، ويلقيه ميكائيل إلى جبرائيل عليه السلام، ويلقيه جبرائيل إلى الأنبياء عليهم السلام، وأما الغشية التي كانت تأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يثقل ويعرق فإن ذلك كان يكون منه عند مخاطبة الله عز وجل إياه فأما جبرائيل فإنه كان لا يدخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يستأذنه إكراماً له، وكان يقعد بين يديه قعدة العبد[٣].

(١) الأمالي: السيد المرتضى ج ٤ ص ١١٥.

(٢) التوحيد: الشيخ الصدوق ص ١١٥، وراجع أيضا كتاب، كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ص٨٥.

(٣) الاعتقادات: للشيخ الصدوق، ص ١٠٠.

الدرس التاسع:

كيف كان يتلقى النبي ﷺ القرآن؟.

لعلنا ندرك ما ذهب إليه علماء الأصول في مباحثهم العلمية الخاصة بـ(مباحث الألفاظ) وهل الخطابات الشفهية تعم الحاضرين فقط، أم أنها تعم غير الحاضر كالمعدومين أيضا، وهذا البحث خارج عن محل بحثنا هنا، وموكول إلى مباحثه الخاصة في علم الأصول، ولكن لنا معه وقفة بسيطة من حيث أن الخطاب النازل على رسول هل هو بواسطة أم بغير واسطة.

فنقول:

يمكن أن يقال بعدم وصول خطاب لفظي منه تعالى بلا واسطة إلى رسوله غالبا ﷺ أيضا، لان الظاهر من الآيات والروايات أن نزول الوحي كان بتوسط أمين الوحي جبريل وهو كان حاكيا لتلك الخطابات منه سبحانه إلى رسوله ﷺ فليس هنا خطاب لفظي حقيقي إذ النبي الأكرم ﷺ لم يكن طرف المخاطبة له تعالى، ولا المؤمنون المقتفون به، بل حال الحاضرين في زمن النبي ومجلس الوحي كحال غيرهم من حيث عدم توجه خطاب لفظي من الله سبحانه إليهم. وبالجملة لو تأملت في أن خطابات الله وكلامه لم تكن مسموعة لأحد من الأمة، وان الوحي كان بتوسط أمينه بنحو الحكاية

لرسوله ﷺ تعرف عدم خطاب لفظي من الله لا إلى نبيه ولا إلى عباده بل تلك الخطابات القرآنية كسائر الأحكام الذي لم يصدر بألفاظ الخطاب من غير فرق بينهما وتكون أشبه بالخطابات الكتابية.

إذا عرفنا ذلك نذهب لما قررناه سابقا في دروس سابقة من أن القرآن الكريم تمكن من فرض أطروحته الصائبة الذي ذهب إليه من أن هناك ثلاثة طرق في مخاطبة السماء للمرسلين والأنبياء عليهم السلام وهي ما جاءت به سورة الشورى آية ٥١ في قوله تعالى:﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾(١)

إذ فصلت هذه الآية الشريفة الطرائق التي يتلقى فيها الرسول أو النبي ﷺ الخطاب الإلهي وهي محصورة في ثلاث:

الأول: أن يكلمه الله وحيا، أي إلهاماً وإلقاء في القلب.

الثاني: أن يكلمه من وراء حجاب.

الثالث: أن يكلمه بواسطة ملك، وذلك بأن يرسل رسولا فيوحي بإذنه.

ما عليه شبه الإجماع هو أن جميع القرآن قد انزل على محمد ﷺ بواسطة رسول ألقاه إليه، وهو جبرائيل. وتدل على ذلك آيات، منها قوله تعالى:﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾(٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾(٣)

---

(١) سورة الشورى، آية ٥١.

(٢) سورة الشعراء، آية ١٩٢ - ١٩٤.

(٣) سورة النحل: ١٠٢ و ١٠٣.

ومنها قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾.

كما أن المخاطب بالروح الأمين، ليس هو الله:، بل أن من الواضح أن المراد بالروح الأمين في الآيات الأول ليس هو الله عز وجل، وذلك بقرينة الآية الثانية التي تقول: ﴿**نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ**﴾ حيث إنها تدل على أن روح القدس والروح الأمين هو الواسطة بين الرب وبين عبده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلا يعقل أن يكون هو نفس الله عز وجل. روح القدس هو جبرائيل:

الثانية: أن الروح الأمين أو روح القدس في الآيات الأول يراد به جبرائيل عليه السلام وذلك بقرينة الآية الأخيرة التي تقول: ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ**﴾. فإنها صريحة في أن منزل القرآن من الله تعالى على قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو جبرائيل، فلو كان المراد بالروح الأمين أو روح القدس غير جبرائيل لوقعت المنافاة بين الآيات. جبرائيل نزل بجميع القرآن: إذا تمهد هذا القول، قلنا: إنه يظهر من هذه الآيات المذكورة أن جبرائيل قد نزل جميع القرآن على قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا بعضه، وذلك لأن الضمائر الواردة في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ و ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**﴾و ﴿**نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ**﴾ لا يرتاب أحد في ظهورها في القرآن الشريف الكائن بين الدفتين[1].

وإن الله سبحانه أكمل عقل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فعرفه وأطلعه على المصالح والمفاسد ومقتضيات الأحكام بل وأسبابها قبل نزول الوحي بها وان ذلك حصل لهم ببعض طرقهم من العلم كالنفذ في قلوبهم وهو من طرق الوحي الخفي، فليس هو من النطق عن الهوى لكنه مأمور بالوقوف وعدم النطق حتى ينزل الوحي ظاهراً لمصالح هناك لا تحتملها عقول الضعفة من خلقه.

---

(١) بحوث في تاريخ القرآن: السيد مير محمدي زرندي ص ٩.

الدرس العاشر:

فلسفة تدرج نزول القرآن

تقتضي حكمة الله تعالى بنزول آياته تنجيماً على قلب رسول الله ﷺ، إذا كان هو بدوره ﷺ مأمور بتبليغه على حسب مقتضى الظروف والأحداث والزمان، وان لا يعجل بنشره خوفا من عدم تقبله من قبل ذوي العقول الضعيفة والساذجة.

لذلك نزلت الآيات القرآنية نجوما مفرقة سورة سورة وآية آية بحسب بلوغ الناس في استعداد تلقي المعارف الأصلية للاعتقاد والأحكام الفرعية للعمل، واقتضاء المصالح ذلك ليُقارن العلم العمل ولا يجمح عنه طباع الناس بأخذ معارفه وأحكامه واحدا بعد واحد كما لو نزل دفعة وقد نزلت التوراة دفعة فلم يتلقها اليهود بالقبول إلا بعد نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة. لكن الأوفق بسياق الآيات السابقة وفيها مثل قولهم المحكي: ﴿**حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ**﴾ الظاهر في اقتراح نزول القرآن دفعة هو أن يكون المراد بتفريق القرآن إنزاله سورة سورة وآية آية حسب تحقق أسباب النزول تدريجا وقد تكرر من الناس اقتراح أن ينزل القرآن جملة واحدة كما في: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً**﴾، وقوله حكاية عن أهل الكتاب: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ**﴾.

ويؤيده تذييل الآية بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ فإن التنزيل وهو إنزال الشيء تدريجا أمس بالاعتبار الثاني منه بالأول. ومع ذلك فالاعتبار الثاني وهو تفصيل القرآن وتفريقه بحسب النزول بإنزال بعضه بعد بعض من دون أن ينزل جملة واحدة يستلزم الاعتبار الأول وهو تفصيله وتفريقه إلى معارف وأحكام متبوعة مختلفة بعدما كان الجميع مندمجة في حقيقة واحده منطوية مجتمعة الأعراق في أصل واحد فارد. ولذلك فصل الله سبحانه كتابه سورا وآيات بعدما البسه لباس اللفظ العربي ليسهل على الناس فهمه كما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ثم نوعها أنواعا ورتبها ترتيبا فنزلها واحدة بعد واحدة عند قيام الحاجة إلى ذلك وعلى حسب حصول استعدادات الناس المختلفة وتمام قابليتهم بكل واحد منها وذلك في تمام ثلاث وعشرين سنة ليشفع التعليم بالتربية ويقرن العلم بالعمل.

والمتأمل بدقة في فلسفة نزول الآيات تدريجا للحياة المعاشية للمجتمع الإسلامي آنذاك؛ تُريك إتقان الحكمة الإلهية من ذلك، والتي أثرت أثرا بالغا في تقبل الدعوة الإسلامية ومبادئ الدين الحنيف. وهذا ما سوف نعرفه من خلال استعراضنا لبعض الغاية الحكيمة من نزول آيات القرآن تدريجيا.

الحكم التي من أجلها نزل القرآن تدريجاً:

هناك غايات كثيرة من أجلها أنزل الله تعالى القرآن تدريج للناس، ولعلنا نتمكن من إجمالها فيما يلي:

الحكمة الأولى: إيقاعية أثره في النفوس:

نحن نعلم على مرور أكثر من أربعة عشر قرن من الزمان تمكن رسول الله من نشر دعوة الإسلام، ومارس ﷺ عدة أساليب لتغير المجتمع الإسلامي، كانت تتطلب المراحل العمرية للرسالة مناحٍ متعددة وكثيرة

بحسب الظروف الاجتماعية والعقدية للمجتمع، حيث بدأ الإسلام بتغيير عقائد الناس وأفكارهم أولاً، ومن ثم راح يضع لهم القوانين والتعاليم، التي تنظم الفرد والمجتمع ثانياً، وذلك لأن الإنسان يُسهل عليه أن يغير فكرة سبق أن آمن بها، وأن يقتنع بفكرة جديدة قام الدليل على رجحانها، في حين يعسر عليه أن يغير تعاملاً سلوكياً سار عليه واعتاده، وهذه الأطروحة أشار إليها القرآن الكريم في الآيات المكية التي نزلت في مكة في بداية الدعوة الإسلامية؛ وسوف تعرف مزيد بيان في الدرس الخاص بـ(الفرق بين المكي والمدني في الآيات القرآنية).

ولعلنا لا نستغرب أساليب القرآن الكريم في بث الآيات الكريمة لعموم الناس، لأنه يهدف لإصلاحهم نحو حياة أفضل ولا يُريد أن يصطدم بممارستهم الخاطئة التي يمارسونها في مجتمعاتهم آنذاك، ومن أجل هذه الغاية العظيمة في ممارسة القرآن لإصلاح الناس كان القرآن الكريم ينزل منجما مقسطا حتى يداوي أدواء المجتمع بالهوينى، واللين، والصبر، وفي هذا جاءت الروايات تؤكد هذه الأطروحة للقرآن الكريم، إذ أنه أنزل الآيات التي تتحدث عن الجنة والنار حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو أنزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً، ولقد نزل بحسب ما يتلاءم مع عقلية الناس وعواطفهم وحياتهم الاجتماعية والعلمية والاقتصادية، فعلاج شؤونهم، وداو أمراضهم، وتمكن من تغير نحو حياة أفضل.

نعم هناك أحكاما مرتبطة بالعادات والتقاليد احتاج القرآن الكريم ورسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإصلاحية زمانا أوسع، ومقومات متكررة وتحضيرية، لا سيما على الصعيد النفسي للمجتمع في ذلك الوقت، مثال ذلك:

قضية شرب الخمر، والربا، والتبني، وهناك أحكام فطرية لا تحتاج إلا

إلى تنظيم تشريعي مثل الصلاة، والزكاة، والحج، وفضائل ألأخلاق، فهي مسنونة من قبل ولا تتأبى عليها طبائع البشر، ولهذا وغيره كان القرآن نزل منجماً ليأخذ بيد المجتمع إلى بر السلامة دون مضاعفات أو تقلبات، أو اصطدامات مع الطبائع البشرية المختلفة في ذلك المجتمع.

من هنا نفهم، أن هناك حكمة تجلت في نزول القرآن تدريجي للناس، لأن الإصلاح وأثاره لا تقع في النفوس إلا إذا كانت أساليبه موفقة لفطرة الناس وعواطفهم وحياتهم، ولذلك دأبت الحركات الإصلاحية الواعية على أساليب التدرج وتربية النفوس والعقول والملكات الوجدانية ليقع التغيير مصاحبا للمطالب التي تريدها الناس حتى تكون الرقابة تلقائية من المجتمع والفرد نفسه لا يحتاج إلى رقابة خارجية سوى العقيدة والامتثال والطاعة، وهذا ما أشار إليه القرآن نفسه في قوله تعالى: ﴿**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾(١)

الحكمة الثانية: التثبيت:

لقد أُنيطت مهمة تغيير المجتمعات وإصلاح الإنسان وأُرسى قواعد العدل والفضيلة برسوله الكريم محمد ﷺ ومن الواضح أن مثل هذه المهمة الكبرى كانت تتطلب منه ﷺ الصمود والمواصلة والمثابرة، لتحرير الناس من الشقاء الأبدي، وليس الشقاء المؤقت في الدنيا، لذلك لاقى ﷺ صعوبة كبيرة لتحرير الناس من العبودية لغير الله ونشر معالم القرآن ومبادئه للناس، فكان من الضروري -كما هي أحوال كل مصلح- من جهة قوية يستمد من المصلح عزماً وثباتاً وصمود، فكانت السماء المصدر الأولى الذي يستمد منه ﷺ عزمه وصموده، وذلك من خلال تكرار نزول الوحي عليه، وتوالى

(١) سورة الإسراء، آية ١٠٦.

آياته وما اشتملت عليه الآيات من أن رسالته حق لا شك فيها، وأن العاقبة للمتقين، والنصر إنما هو للأنبياء وأتباعهم، وأن الله مؤيده وناصره، ولطالما كان الملك جبريل، ينزل إليه لتسليته ويقول عن الله له: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**﴾(١).

وقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**﴾(٢).

وكان ﷺ كثيراً ما يتحسر على قومه لعدم إيمانهم، فكانت السماء تشد من عزمه وتقويه بقولها: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾(٣).

وكان الوحي بأمر الله تعالى، يدرأ عنه ﷺ ما يكال له من تهم ويحاك ضده من أكاذيب، ويخبره بمأمورات الكفار ضده. قال تعالى ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾(٤).

هكذا كانت الغاية الثانية من نزول القرآن تدريجي على قلب رسول لبلاغه بحسب مقتضي الأحوال والأحداث والمناسبات، فقد كان ينزل عليه الوحي بين الفترة والأخرى يُسليه ويثبته ويحمله على الصبر ويحدثه بأخبار الماضين وقَصص الغابرين من سيرة الأنبياء والمرسلين والأقوام

(١) سورة المزمل، آية ١٠.
(٢) سورة الأحقاف، آية ٣٥.
(٣) سورة الكهف، آية ٦.
(٤) سورة الأنعام، آية ٣٤.

والحضارات، ويخبره كما لاقى إخوانه الأنبياء والمرسلين عليهم السلام والمصلحين في العالم البشري من معاناة وصعوبات كبيرة لتحرير الناس من العبودية المطلقة، وتأكيد الرؤية التوحيدية التي جاءت لنجاة الناس من النار.قال تعالى: ﴿**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[١].

الحكمة الثالثة: تيسير حفظه للناس:

إن القرآن قد جعل ذا قطعات مختلفة تلتئم كل قطعة مع بعضها البعض، بحيث يتداعى قراءة الآية الأولى منها ذكرى الآية الثانية وهكذا، فيسهل ذكرها وقراءتها من حفظ، ومصداق هذه القطعات في هذه السورة عند تمام قوله عز وجل:﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[٢] فكانت الحكمة الإلهية تقتضي نزوله مُيسرا لُيسهل فهمه لسامعيه من عامة الناس وخاصة الصحابة الأجلاء. وبهذا أشارة رواية ابن مسعود لهذا المعنى بقوله: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات من القرآن لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهنّ، وقال عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العلم فتعلمنا القرآن والعلم معاً[٣].

ومن البراهين التي تؤكد حقيقة تيسير القرآن ليتمكن عامة الناس والصحابة من حفظه، أن الله تبارك وتعالى جعل آيات سهلت المعاني يفهم القارئ بمجرد قراءتها لأول وهلة، إلا بعضها فتحتاج لمتخصص يشرحها ويُسهل مطالبها للآخرين.

(١) سورة هود، آية ١٢٠.

(٢) سورة القمر، آية ١٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم:ج ١ ص ٣، ط الأولى- الطبري.

ومما ينقل: أن قسيساً دخل إلى الإسلام بسبب سهولة حفظ آيات القرآن الكريم، إذا أنه جلس في الكنيسة ثلاثون عاماً لم يتمكن من حفظ بعض مقاطع الإنجيل، وعندما عُرض عليه القرآن تمكن خلال فترة وجيزة من حفظ مُعضم سور القرآن.

ولعل أشارات الآيات القرآنية لهذه الحقيقة (تيسير القرآن من أجل سرعة حفظه) كانت دعوة سماوية من الله لنبيه محمد ﷺ.لذلك لم يخترع لنفسه طريقة خاصة لإفهام مقاصده، وأنه كلم قومه بما ألفوه من طرائق التفهيم والتكلم وأنه أتى بالقرآن ليفهموا معانيه، وليتدبروا آياته فيأتمروا بأوامره، ويزدجروا بزواجره، وقد تكرر في الآيات الكريمة ما يدل على ذلك نكتفي بهذه الآية في قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾[١] والتيسير يعني: التسهيل، وقيل: أن معناه: أنزلناه بلسانك العربي الذي تتحدث به مع قومك يا رسول الله ﷺ.

وهذا ما ذهب إليه صاحب الميزان العلامة الطباطبائي بقوله:

أن الغاية من هذا التيسير أن يبشر به المتقين من عباده وينذر به قوماً لدا خصماء، ثم لخص إنذارهم بتذكير هلاك من هلك من القرون السابقة عليهم. قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾ التيسير وهو التسهيل ينبئ عن حال سابقة ما كان يسهل معها تلاوته ولا فهمه وقد أنبأ سبحانه عن مثل هذه الحالة لكتابه في قوله: ﴿**وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾، فأخبر أنه لو أبقاه على ما كان عليه عنده -وهو الآن كذلك- من غير أن يجعله عربياً مقروءً لم يرج أن يعقله الناس وكان كما كان علياً حكيماً أي آبياً متعصياً أن يرقى

---

(١) سورة مريم، آية ٩٧، وأشار إلى هذه الحقيقة الإمام الخوئي في تفسيره ص٢٣٢، فراجع.

إليه أفهامهم وينفذ في عقولهم. ومن هنا يتأيد أن معنى تيسيره بلسانه تنزيله على اللسان العربي الذي كان هو لسانه صلى الله عليه وآله وسلم فتنبئ الآية أنه تعالى يسره بلسانه ليتيسر له التبشير والإنذار. وربما قيل: إن معنى تيسيره بلسانه إجراؤه على لسانه بالوحي واختصاصه بوحي الكلام الإلهي ليبشر به وينذر.

وهذا وإن كان في نفسه وجها عميقا لكن الوجه الأول مضافا إلى تأيده بالآيات السابقة وأمثالها أنسب وأوفق بسياق آيات السورة.

وقوله: ﴿**وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾ المراد قومه صلى الله عليه وآله وسلم، واللد جمع ألد من اللدد وهو الخصومة. قوله تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**﴾ الإحساس هو الإدراك بالحس، والركز هو الصوت، قيل: والأصل في معناه الحس، ومحصل المعنى أنهم وإن كانوا خصماء مجادلين لكنهم غير معجزى الله بخصامهم فكم أهلكنا قبلهم من قرن فبادوا فلا يحس منهم أحد ولا يسمع لهم صوت...[١].

الحكمة الرابعة: مسايرة الأحداث:

لم ينتهي الصراع بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والفئة المؤمنة بنزول القرآن الكريم على رسوله الأمين ليبلغه على مكثٍ للناس، بل أن الصراع أخذ منحاً آخر ألا وهو بث الشائعات، والأكاذيب والشك في صفوف المسلمين، مما خلق في ذهنيتهم بلبة فكرية تتطلب منه صلى الله عليه وآله وسلم إصلاحها بشكل حكيم.

ولعب اليهود والنصارى أدواراً مهمة في التكذيب والتشكيك، ولكن ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم من الحق قد يتفق مع الحق الذي بقي لديهم من التوراة والإنجيل وإنكار الحقائق المشهورة، لديهم تعرضهم للتناقض والاختلاف

---

(١) تفسير الميزان: السيد الطباطبائي ج ٤١، ص ١١٧.

ولهذا يحجمون عن كثير من الحقائق والصفات والنواميس، التي تبعث بها الرسل خشية من أن يظهر منهم ما يؤيد رسالة رسول الله ﷺ ولكنهم لم يألوا جهداً في التشكيك والطعن في الرسالة وظهروا أمام الناس بمظهر المحافظ على عهود الله واحترام مواثيقه فإنهم يقولون ما تركوا الإيمان بمحمد ﷺ حسداً له إنما تركوا ذلك لأنه لم يأت بالمعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به لأنه ليس نبياً صادقاً في زعمهم!! كما أنهم تمكنوا من نشر كثير من العقائد الفاسدة في المجتمع الإسلامي آنذاك، مما جعل القرآن الكريم يُسير تلكم الأحداث العلمية والاجتماعية ويُنزل بحسب مقتضاها(١).

وقد نلمح هذا التجاوب مع مسايرة الأحداث في زمان نزوله، مجاراة القرآن الكريم للأقضية والأحداث التي تكاثرت في المجتمع الإسلامي يومها، فقد كان القرآن الكريم قديرا على مسايرتها أولا بأول، وهذه الحكمة التي أشارت إليها الآية الكريمة في قوله تعالى:﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾(٢).

صورٌ لمسايرة القرآن للأحداث:

١ - حادثة الإفك:

ما يندرج تحت الحكمة في مسايرة القرآن للأحداث والأقضية، حكمه

(١) مع أن اليهود والنصارى أساؤوا إلى نبي الإسلام ﷺ والإسلام إلا أن القرآن طلب من حملته وأتباعه أن يجادلوهم بالتي هي أحسن وبالحكمة، فقد استوعب القرآن الكريم هذا المضمون في كثير من الآيات والسور. لمزيد من المعرفة حول منهج الجدل في القرآن الكريم راجع كتاب مناهج الجدل في القرآن، د الألمعي.

(٢) سورة الفرقان، آية ٣٣.

سبحانه وتعالى ورحمته بالمؤمنين، ففي كل مرة تحدث حادثة أو واقعة تنزل الآيات الكريمة بوضع الحلول الناجعة لتلك الأحداث والوقائع، فعلى سبيل الأجمال، والمثال:حادثة (الأفك)(١) والتي أنزل الله تعالى في القرآن من سورة النور براءة السيد عائشة، الاتهام الرخيص الذي وجهه إليها رأس المنافقين عبدالله بن أُبي. وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾(٢).

٢- حادثة ظهار خولة الأنصارية:

ومثل حادثة خولة بنت ثعلبة الأنصاري. فعندما هاجر رسول الله ﷺ كان بالمدينة رجل من الأنصار يقال له: أوس بن الصامت، وكان أول رجل ظاهر في الإسلام فجرى بينه وبين امرأته كلام فقال لها: أنت علي كظهر أمي ثم إنه ندم على ما كان منه.

فقال: ويحك إنا كنا في الجاهلية تحرم علينا الأزواج في مثل هذا قبل الإسلام، فلو أتيت رسول الله ﷺ تسأليه عن ذلك، فجاءت المرأة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته.

فقال لها ﷺ: ما أظنك إلا وقد حرمت عليه إلى آخر الأبد، فجزعت وبكت.

وقالت: أشكو إلى الله فراق زوجي، فأنزل الله عز وجل: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللـهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**

---

(١) الإفك، هو أسوء الكذب وأبلغه، وقيل هو: البهتان، مجمع البحرين ج٥ ص٢٥٥.

(٢) سورة النور، آية ١١.

مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١]

فقال رسول الله ﷺ: قولي لاوس زوجك: يعتق نسمة،

فقالت: وأنى له نسمة، والله ما له خادم غيري.

قال ﷺ: فيصوم شهرين متتابعين.

قالت: إنه شيخ كبير لا يقدر على الصيام.

قال ﷺ: فمريه فليتصدق على ستين مسكينا.

فقالت: وأنى له الصدقة؟ فو الله ما بين لابتيها أحوج منا.

قال ﷺ: فقولي له: فليمض إلى أم المنذر فليأخذ منها شطر وسق تمر فليتصدق به على ستين مسكينا[٢].

٣- إجابات بحسب السؤال:

تعرض الرسول الأعظم ﷺ إلى وابل من الأسئلة موجهة من بعض المشركين والمسلمين في بداية الدعوة الإسلامية، وهذه كانت يتطلب الردود السريعة منه ﷺ ليشفي بها الغليل، ويدحض بها عناد المجادلين، ولذلك نجد في القرآن تلكم الأسئلة التي وجهت إليه ﷺ بلفظة (يسألونك) والتي تكررت في القرآن ثلاثة عشرة مرة. وهي:

-﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ البُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ

(١) سورة المجادلة، آية ١.

(٢) الوسائل: ج ١٥ ص٥٠٨.

اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

-﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(٢)

-﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٣).

-﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(٤).

-﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٥).

-﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ

---

(١) سورة البقرة، آية ١٨٩.

(٢) سورة البقرة، آية ٢١٥.

(٣) سورة البقرة، آية ٢١٧.

(٤) سورة البقرة، آية ٢١٩.

(٥) سورة البقرة، آية ٢٢٠.

يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١).

-﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(٢).

-﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللـهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

-﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ للـهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٤).

-﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٥).

-﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾(٦).

-﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾(٧).

-﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾(٨).

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٢٢.

(٢) سورة المائدة، آية ٤.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٨٧.

(٤) سورة الأنفال، آية ١.

(٥) سورة الإسراء، آية ٨٥.

(٦) سورة الكهف، آية ٨٣.

(٧) سورة طـه، آية ١٠٥.

(٨) سورة النازعات، آية ٤٢.

إن في تلكم الأسئلة التي وجهت لرسول الله ﷺ كانت تنم عن تفاعل العقلية والذهنية العلمية لبعض المنافقين والمشركين والمسلمين مع روح الدعوة بين مؤيد ومعارض، فجاءت الإجابة شافية لغليلهم وملتبس عليهم فهمه أو الإيمان به، ولعل هذا المنهج الجدلي الذي يبتني على روح الحوار العلمي الصريح، انتهجها نبي الإسلام ﷺ عبر آيات القرآن الكريم كسلاح لتغيرهم أجمعين.

وقد أثبتت لنا الأيام أن الأناة، والتؤدة، والمرحلية، والتخطيط، والتغيير المنظم، والخُلق الفاضل، والأسوة الحسنة، والتحلي بالصبر الطويل على إصلاح الناس، الأسس التي يجب أن يتحلى بها الدعاة، وأن يتمسكوا بها كأسلوب في معالجة القضايا الإسلامية الشائكة هذه الأيام، لقد أعطانا القرآن الكريم في هذا المنهج الدعوى، أن الإصلاح الحقيقي يبدأ من عبادة الله وحده، ثم الالتزام بمنهجه في الحياة المعيشية لنتمكن من إحداث تغيير جذري وشامل لمناحي الحياة.

قال تعالى: **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**[1]

الحكمة الخامسة: بيان إعجاز القرآن الكريم:

هناك تعاريف شتى للإعجاز، ففي اللغة العربية: يُعرف بالفوت. وجدان العجز. إحدائه كالتعجيز. فيقال: أعجزه الأمر الفلاني أي فاته، ويقال: أعجزت زيداً أي وجدته عاجزاً، أو جعلته عاجزاً.

وفي الاصطلاح: أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق

---

(١) سورة الأنفال، آية ٥٣.

نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهدا على صدق دعواه. وإنما يكون المعجز شاهدا على صدق ذلك المدعي إذا أمكن أن يكون صادقا في تلك الدعوى. وأما إذا امتنع صدقه في دعواه بحكم العقل، أو بحكم النقل الثابت عن نبي، أو إمام معلوم العصمة، فلا يكون ذلك شاهدا على الصدق، ولا يسمى معجزا في الاصطلاح وإن عجز البشر عن أمثاله.

كما أن الإعجاز في القرآن الكريم، وتُعد الحكمة من حكمه، فالتدرج بنزول الآيات كان دليلا قويا على إعجازه، فقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ طيلة ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة تقريبا، على نسق واحد، وسمو واحد، دون تعارض أو اختلاف وهذا يدل على إعجازه.

ومما لا إشكال ولا خلاف بين المسلمين في أن القرآن هو المعجزة الخالدة للنبي الأكرم ﷺ، ولقد تحدى القرآن كافة طبقات الخلق بما فيهم: الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وقد أشارت آيات القرآن الكريم لهذه الحقيقة في كثير من الآيات منها:

١ - قوله تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[(١)] فعجز الإنس والجن في ذلك العصر - عصر الفصاحة والبلاغة - وفي كل عصر عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا دليل على أن القرآن ليس من إنشاء بشر وإنما هو من خالق الكون والبشر.

٢ - وقوله تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ**

(١) سورةالإسراء: ٨٨.

يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللهِ﴾[١].

٣ – وقوله تعالى: **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**. فهو تعالى يقول لنبيه: قل لهم: إن كنتم تزعمون أن القرآن من إنشائي فائتوا أنتم بعشر سور بل بسورة من مثله، إذ لو كنت قادرا على الإتيان بالقرآن الذي هو قمة في الفصاحة والبلاغة وسائر المعارف وله هذا النظم الخاص فأنتم أولى بأن تأتوا بمثله لأنني منكم ونشأت بينكم أمياً لم أدرس ولم أتعلم عند أحد، فعجزكم عن ذلك وأنتم فصحاء العرب لهو أقوى دليل على أنه من الله جل ذكره. وأما مسيلمة ومن هم على شاكلته فإنهم عندما حاولوا معارضة القرآن وأظهروا كلمات وجملاً مسجعة افتضحوا وسخر الناس منهم للابتذال الظاهر المشاهد فيما أتوا به، ولرداءة نظمه وسخافة محتواه.

يذكر التاريخ أن مسيلمة الكذاب، زعم أنه أوحي إليه بكلام كالقرآن، ثم طلع على الناس بهذا الهذر: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، وبهذا السخف، والطاحنات طبخنا، والعاجنات عجنا والخابزات خبراً، وأنت خبير بمثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير[٢].

وخلاصة القول: إن إعجاز القرآن من الأمور التي لا يرقى إليها الشك، ولا يتطرق إليه الخلاف.، وبمشتمل عليه القرآن الكريم من أوجه الإعجاز، قد كتب له الخلود، فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت رسول الله ﷺ، بل هو قائم في فم الدنيا يحاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام وسعادة بني الإنسان.

---

(١) سورة هود: آية ١٣–١٤.

(٢) الزرقاني: مصدر سابق ج ٢ ص ٢٣٠، ط الأولى.

وقد أشار الإمام الخوئي قدس سره إلى هذا المبحث بشيء من التفصيل ذُكر في محله، في تفسيره (البيان في تفسير القرآن فراجع).

الحكمة السادسة: التدرج التشريعي للقرآن:

ولعلنا نقصد بالتدرج التشريعي للقرآن هو: ذلك التشريع الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم منذ اليوم الأول لبعثه الشريفة، فقد عاش التشريع الإسلامي في عهده صلى الله عليه وآله وسلم مرحلة التأسيس، وتمتد هذه المرحلة من بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث نزول أول أية من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحتى نهاية وفاته صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة المنورة.

أي أن هذه المرحلة استغرقت مدة ثلاث وعشرين سنة، وهذه المرحلة أيضا قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوظيفته تجاه التشريع الإسلامي خير قيام وأتمه، فلم يرحل عن هذه الدنيا إلا بعد أن قام بدور وضع الأساس للتشريع الإسلامي، وكان ذلك متمثلاً:

١-بتبليغه القرآن للناس تبليغاً كاملاً.

٢- وتبليغ السنة.

وهذا يتم طبعا بمراجعة الوحي في كل شهر من شهور رمضان للتأكد من سلامة التشريع القرآني منبى ومعني...[١]

وكان ذلك التشريع القرآني ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحسب حاجيات المجتمع الإسلامي إليه، فلا غرو إذاً أن الحكمة تقتضي من القرآن الكريم أن يتدرج في نشر الأحكام وإصلاح عقائد وأخلاقيات الناس شيئا

(١) تاريخ التشريع الإسلامي: د/ الفضلي، ص ١٧

فشيئا، فالرسالة الإسلامية بعامتها، والقرآن الكريم بخاصته، تمكن من إصلاح وضع الناس وتغيير مفاهيمهم الخاطئة رويداً رويداً بما يوافق تطويرهم من التشريعات، فنلاحظ سياسية التدرج هذه عندما نزل تحريم الخمر تدريجا، فقد نزل فيها أول ما نزل قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾[١]

ثم تلتها خطوة أخرى في صرفهم عنها بعض الوقت في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾[٢]

فضيق عليهم بذلك فرص السكر، وقلل مرات التناول حتى إذا تهيئو للإقلاع عنها جاء التحريم القاطع في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[٣]

فأصبحوا عندها على هبة الاستعداد لمقاطعتها ونبذها من حياتهم.

وعلى هذا قس كثير من التشريعات الإسلامية التي نزل بها القرآن الكريم بحكمة التدرج، فقد أحدث القرآن الكريم بهذه الحكمة العالية انقلاباً عقائدياً وتغييراً اجتماعياً، وتحولاً حضارياً لم تشهد له البشرية من

(١) سورة البقرة، آية ٢١٩.

(٢) سورة النساء، آية ٤٣.

(٣) سورة المائدة، آية ٩٠.

مثيل، فأرسى القرآن بهذه الحكمة العالية أيضا، قواعد التوحيد، وأقام عقيدة إلهية صافية، وشيد أُسس التنظيم، فبنا هيكل المجتمع والحياة على مبادئ الحق والعدل والإحسان، ونفذ إلى أعماق النفس الإنسانية فطهرها من كل انحرافاتها ومساوئها، فخلق الإنسان المثالي، والشخصية الإسلامية الفذة.

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم إذ جعل من نفسه دستورا ومنهجا للإنسان المسلم، وهدىً ورحمة لعامة البشر.

قال تعالى:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]

وقال الإمام علي عليه السلام: ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه، وسراجا لا يخبو توقده، وبحرا لا يدرك قعره، ومنهاجا لا يضل نهجه، وشعاعا لا يظلم ضوءه، وفرقانا لا يخمد برهانه، وتبيانا لا تهدم أركانه وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزا لا تهزم أنصاره، وحقا لا تخذل أعوانه. فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه. وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون وآكام لا يجوز عنها القاصدون. جعله الله ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاج لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونورا ليس معه ظلمة وحبلا وثيقا عروته، ومعقلا منيعا ذروته، وعزا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذرا لمن انتحله، وبرهانا لمن تكلم به، وشاهدا لمن خاصم به، وفلجا لمن حاج به، وحاملا لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسم،

(١) سورة النحل، آية ٨٩.

وجنة لمن استلام. وعلما لمن وعى، وحديثا لمن روى، وحكما لمن قضى..[1].

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام ج ٢ ص ١٧٦.

الدرس الحادي عشر:

أسباب النزول سردٌ وتحليل

من عظمة القرآن الكريم ككتاب سماوي، أنه يتميز بأسلوب أو طريقة خاصة في إيصال الأفكار، والمفاهيم، والمعارف المختلفة، مما جعل له أثر بالغ الأهمية على عملية الفهم، والاستنتاج، فاقتضت الحكمة الإلهية أن تنزل آياته الكريمة بمقتضى الحوادث والأسباب والحاجيات. وعلى هذا الأساس كانت آيات القرآن الكريم تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: الآيات التي نزلت لأجل الهداية والتربية والتنوير دون وقوع سبب معين - في عصر الوحي - أثار نزولها، كالآيات التي تصور قيام الساعة ومشاهد القيامة وأحوال النعيم والعذاب وغيرها، فإن الله تعالى أنزل هذه الآيات لهداية الناس من غير أن تكون إجابة عن سؤال، أو حلا لمشكلة طارئة، أو تعليقا على حادثة معاصرة.

والآخر: الآيات التي نزلت بسبب حادث وقع في عصر الوحي واقتضى نزول القرآن فيه، كمشكلة تعرض لها النبي والدعوة وتطلبت حلا أو سؤالا استدعى الجواب عنه، أو واقعة كان لا بد من التعليق عليها، وتسمى هذه الأسباب التي استدعت نزول القرآن بأسباب النزول. ولكي

نقف على حقيقة هذا الموضوع -أسباب النزول- لا بد لنا من إلمامة موجزة لمعنى سبب النزول.

معنى سبب النزول:

هو ما نزلت من أجله آية أو أكثر مجيبة عنه أو حاكية له، أو مبينة حكمه، أمور وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول الوحي بشأنها(١) ومن الأمثلة على ذلك:

١- قضية مسجد ضرار:

في مجمع البيان في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ**﴾ أي أرصدوا ذلك المسجد واتخذوه وأعدوا لأبي عامر الراهب، وهو الذي حارب الله ورسوله من قبل وكان من قصته أنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة حسده وحزب عليه الأحزاب، ثم هرب بعد فتح مكة إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام وخرج إلى الروم وتنصر وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة... وسمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا عامر الفاسق وكان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدوا وأبنوا مسجدا فإني أذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود واخرج محمدا من المدينة. فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم، فاطلع الله نبيه على فساد طويتهم وخبث سريرتهم... فوجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند قدومه من تبوك عاصم بن عوف العجلاني ومالك بن الدخشم... فقال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه، وروي أنه بعث عمار بن ياسر ووحشيا فحرقاه وأمر بأن يتخذ كناسة يلقى فيها الجيف. فنزلت هذه الآية الشريفة: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا**

(١) علوم القرآن: الحكيم، ص ١٧ مصدر سابق.

وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(1)

٢- إطعام الطعام المسكين واليتيم والأسير:

مرض الحسنان فعادهما جدهما ووجوه العرب، فنذر علي وفاطمة صيام ثلاثة أيام إن برئا، فكان ذلك. فاقترض علي ثلاثة أصوع من شعير من يهودي و روي أنه أخذها ليغزل له بها صوفا، فطحنت فاطمة عليها السلام صاعاً واختبزته فأتاهم مسكين فسألهم فأعطوه، وفي اليوم الثاني يتيم فأعطوه، وفي الثالث أسير فأعطوه، ولم يذوقوا الثلاثة إلا الماء فأتى علي بالحسنين وبهما ضعف إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فبكى فنزلت سورة **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾**(2).

---

(١) ومجمع البيان: ج٥ص١١٠ - البحار ج ٢١ ص٢٥٢باب ٣٠.

(٢) قال الجاحدون: السورة مكية فكيف تتعلق بما كان في المدينة؟ قلنا: ذكر الرازي في الأربعين، وابن المرتضى، والزمخشري، والقاضي في تفاسيرهم و الفراء في معالمه، والغنوي في شرح طوالعه، والواحدي، وعلي بن إبراهيم، و أبو حمزة الثمالي، وأسنده أحمد الزاهد، والحسكاني أنها مدنية، وكذا عن عكرمة، وابن المسيب، والحسن بن أبي الحسن البصري، ونحو ذلك قال خطيب دمشق الشافعي، وأورد القضية بجزئياتها الثعلبي وفي آخرها: بكى النبي صلى الله عليه وآله وقال: واغوثاه يا الله أهل بيت محمد يموتون جوعا، فهبط جبرائيل و قال: خذ ما هناك الله في أهل بيتك، ثم أقرأه (هل أتى). وزاد محمد بن علي صاحب الغزالي في كتابه البلغة أنه نزلت عليهم مائدة فأكلوا منها سبعة أيام، وعد أبو القاسم الحسين بن حبيب وهو من شيوخ المعاندين في كتاب التنزيل، ما نزل بالمدينة وهو تسعة وعشرون سورة وذكر هل أتى منها ولم يذكر خلافا فيها، ويقرب منه ما ذكره هبة الله المفسر البغدادي في الناسخ و المنسوخ، بل ذلك قد شاع وذاع، وقرع جميع الأسماع، وأنشد فيه:

أنا مولا لفتى أنزل فيه هل أتى
إلام ألام وحتى متى أفند في حب هذا الفتى

٣- مواقف أخلاقية:

ولعل الموقف يتطلب درسا أخلاقيا فتنزل آية من القرآن الكريم بسبب ذلك، فعن سلمان الفارسي قال جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا يا رسول الله أنك لو جلست في صدر المجلس.ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى - واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته، ولن تجد من دونه ملتحدا واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه - حتى بلغ - إنا أعتدنا للظالمين نارا - يتهددهم بالنار - فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا**﴾ الآية(١).

إلى غيرها من الآيات التي نزلت بخصوص مناسبة معينة اقتضت المصلحة نزول الآية أو السورة.

فوائد معرفة سبب النزول:

للوقوف على سبب النزول أهمية كبيرة في التعرف على مدلول الآية الكريمة ومعين على فهم الحوادث التي اتصلت بتلك الآية، بل أنه يُعطين

فهل زوجت فاطم غيره أفي غيره أنزلت هل أتى

راجع تفسير الكشاف، ج ٤ ص ١٦٩ أسباب النزول ص ٣٣١ تفسير الرازي ج ٣ ص ٢٤٣، تفسير القرطبي ج ١٩ الدر المنثور ج ٦ ص ٢٩٩، فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٣٣٨. على ما في ذيل إحقاق الحق ج ٣ ص ١٥٧.

(١) أسباب نزول الآيات: الواحدي النيسابوري ص ٢٠١، والبحار ج ١٧ ص١٣٥

معرفة تامة من الحكمة الإلهية التي بسببها أنزل هذه الآية بخصوص هذه الآية.

قال الواحدي لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها وقال ابن دقيق العيد بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن ولذلك قالوا: «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب» ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها(١).

وهذا يجعلنا نقر بحقيقة واضحة ألا وهي أن اقدر الناس على فهم أسباب النزول أقدرهم على تفسير القرآن الكريم، فهذا أمير المؤمنين علي عليه السلام أقدر الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على معرفة القرآن الكريم والإحاطة علماً بأسباب النزول وهو القائل: والله لم تنزل آية إلا أنا أعلم فيما نزلت، وفيمن نزلت وأين نزلت(٢).

وعن وهب بن عبدالله عن أبي الفطيل قال سمعت عليا في الكوفة يقول:سلوني فو الله لا تسألون عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار(٣).

لذا قلنا أن هناك فوائد جمه منها مايلي:

الفائد الأولى: الاستعانة على فهم الخطاب القرآني:

لا يمكن لنا معرفة مقاصد الآية الكريمة إلا إذا وقفنا على حقيقة نزولها (أي سبب النزول إن كان لها سبب نزول) لأن معرفة سبب النزول

---

(١) النقول: جلال الدين السيوطي ص ٣

(٢) كتاب سليم بن قيس: ص ٣٥٤.

(٣) زاد المسير: ابن الجوزي ج ٤ ص ١٨٦ وتاريخ دمشق ج ٢٤ ص ٣٩٨، ابن عساكر.

طريق قوي لمعرفة مقاصدها الشريفة، ومعيناً على فهم الخطاب القرآني. فعلى سبيل المثالي:

قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١] فالمتبادل من مفهوم مدلول ألفاظ الآية وسياقها، أن المصلي له أن يصلي إلى أية جهة كانت في السفر والحضر، فلله المشارق والمغارب، فأينما يولي المصلي وجهه فقد توجه إلى الله تعالى، وهذا خلاف الإجماع، وهو يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢]

يعني أن الفرائض لا تصلوها إلا إلى القبلة[٣].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤] فقد حكي أن البعض كان يقول أن الخمر مباحه ويحتج بالآية لجهله بسبب نزولها. فقد ذكر السيوطي في كتابه (الإتقان ج ١ ص ٢٢٩) لما نزلت تحريم الخمرة وأنها رجس من عمل الشيطان، قال بعض المسلمين كيف بإخواننا الذي ما توا وهم يشربونها، فنزلت هذه الآية:﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا

(١) سورة البقرة، آية ١١٥.
(٢) سورة البقرة، آية ١٥٠.
(٣) الطبرسي: مجمع البيان ج ١ ص ١١٩، السيوطي الإتقان، ج ١ ص ٢٩، وأبن كثير: التفسير ج ١ ص ١٥٩.
(٤) سورة المائدة، آية ٩٣.

طَعِمُواْ..﴾ الآية. فالإنسان العامي الذي لا يملك إطلاعاً على أسباب النزول وغير مأنوس به فهو مثله كمثل هؤلاء الذين حللول الخمرة وهم في غفلة عن سبب تحريمها بسبب النزول!

الفائدة الثانية: فهم الحكمة التعليلية:

كما أن معرفة سبب النزول تعين المسلم على فهم الحكمة التي يشتمل عليها التشريع القرآني، وفي ذلك فائدة للمؤمنين وغيرهم، لقد أمر الله تعالى الإنسان بالتكاليف الشرعية ولم يأمره بها إلا لما فيه من سعادته، وفي تركها من شقاء، فأمر بإقامة (الصلاة) توكيداً لعقيدة والتسليم لله الحق، بما فيها من ركوع وسجود وذكر وترتيل، وبما في مقدمتها من الطهارة عن الخبائث والأحداث، فتسبب تهيئة نفسية وراحة معنوية، حيث تسموا إلى رحاب الله العظيم.

وأمر بالصوم لما فيه من ترويض للنفس على الطاعة وسموها إلى سلم الكمالات المعنوية والإنسانية والنفسية العالية، والارتقاء بها إلى الضبط والتحكم بالشهوات المباحة في أوقاتها المخصوصة.. لعلها تخفف من طغيانها ونزاعاتها للشر.

ولما للصوم من فوائد نفسية ومعنوية واقتصادية واجتماعية وجسمية أيضاً.

وعلى هذا فقس سائر الواجبات من (الزكاة والخمس) و (الحج) و(الجهاد) و (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

وسائر الأخلاق الكريمة من (صلة الرحم) و (إعانة المظلوم) و (وبر الوالدين و (دفع الصدقات الواجبة) و (التبري والتولي) وغيرها.

وأما عن فلسفة المحرمات، فهي أكثر من أن تحصى، فقد حرم الزنا

واللواط ونكاح الأقارب، والعادة السرية والمساحقه وتبرج النساء، والخيانة الزوجية والتطلع لأعراض الناس وتناولها بالغيبة والنميمة، والكذب وقول الزور وأشاعه الفحشاء وتفشي المنكر، والخرافات، والبدع، و... وغير ذلك وكل ذلك لحفظ فطرة الحياة الإنسانية من أجل المحافظة على نظام الإنسانية والعودة إلى حياة الغاب وإيجاد السعادة في الدارين الدنيا والآخرة لما في ذلك من حصانة الفعلية الإسلامية والمحافظة على الجيل الناشئ في ظل أسرة أفضل.

ولما فيها من أضرار وعواقب وخيمة على الفرد والمجتمع، حيث تتفشى الأمراض المختلفة، النفسية منها والجسدية، والعقلية والتربوية والاجتماعية الكثيرة، وكل ذلك نطق به القرآن الكريم في آيات مختلفة لا مجال لسردها في هذه العجالة وهذا ما جعل المؤمن في حالة اطمئنان لما يأمر به القرآن الكريم، فعندما يتمعن الإنسان المسلم في علل بعض الأحكام التي جاءت بها الآيات الكريمة يصل إلى قناعة تامة أن الله تعالى حكيم ولا يريد لعباده إلا ما فيه صلاحهم وسعادتهم. قال تعالى:﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللـهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[1]

الفائدة الثالثة:معرفة من نزلت بحقه الآية:

وتعين المبهم فيها على القارئ أو السامع، وفي ذلك إسناد الفضل لأهله ونفي التهمة عن البريء الذي ألصق به ما هو براء منه، فمثلا الحديث الذي أصفقت الأمة عليه من أن عليا عليه السلام لبس برد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحضرمي الأخضر ونام على فراشه ليلة هرب النبي من المشركين إلى الغار وفداه بنفسه ونزلت فيه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ**﴾. قال أبو جعفر الاسكافي كما في شرح البلاغة لابن أبي الحديد ٣ ص ٢٧٠: حديث

(١) سورة الرعد، آية ٢٨.

الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحده إلا مجنون أو غير مخالط لأهل الملة.[١]

---

(١) وذكرها الكنجي في الكفاية ص ١٢٣ ونسبها إلى بعضهم وفيه: في تسع آيات جعلن كبارا. روى المفسرون كلهم: إن قول الله تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي﴾ الآية. نزلت في علي ليلة المبيت على الفراش. وروى الثعلبي في تفسيره: إن النبي صلى الله عليه وآله لما أراد الهجرة إلى المدينة خلف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه وأداء الودايع التي كانت عنده، وأمر ليلة خرج إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار أن ينام على فراشه وقال له: اتشح ببردي الحضرمي الأخضر ونم على فراشي فإنه لا يصل منهم إليك مكروه إنشاء الله تعالى ففعل ذلك علي عليه السلام فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل: إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب؟ آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه. فنزلا فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وجبرئيل ينادي: بخ بخ من مثلك يا علي؟ يباهي الله تبارك وتعالى بك الملائكة. فأنزل الله على رسوله وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي: ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله. وقال ابن عباس: نزلت الآية في علي حين هرب - رسول الله - من المشركين إلى الغار مع أبي بكر ونام على فراش النبي. وحديث الثعلبي هذا رواه بطوله الغزالي في (إحياء العلوم) ٣ ص ٢٣٨، و الكنجي في (كفاية الطالب) ص ١١٤، والصفوري في (نزهة المجالس) ٢ ص ٢٠٩ نقلا عن الحافظ النسفي. ورواه ابن الصباغ المالكي في فصوله ص ٣٣، وسبط ابن الجوزي الحنفي في تذكرته ص ٢١، والشبلنجي في نور الأبصار ص ٨٦، و في المصادر الثلاثة الأخيرة: قال ابن عباس: أنشدني أمير المؤمنين شعرا قاله في تلك الليلة:

وقيت بنفسي خير من وطئ الحصا ... وأكرم خلق طاف بالبيت والحجر
وبت أراعي منهم ما يسوؤني ... وقد صبرت نفسي على القتل والأسر
وبات رسول الله في الغار آمنا ... وما زال في حفظ الإله وفي الستر

ويوجد حديث ليلة المبيت في مسند أحمد ١ج ص ٣٤٨، تاريخ الطبري ج ٢ - ص ٩٩ - ١٠١، الطبقات لابن سعد ج١ ص ٢١٢، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٢٩ سيرة ابن هشام، و وتوجد هذه الأبيات في مناقب الخوارزمي مع زيادة بيت.

كما أن رواه صاحب العقد الفريد ٣ ص ٢٩٠، و تاريخ الخطيب البغدادي ١٣ ص ١٩١، وتاريخ ابن الأثير ٢ ص ٤٢، و تاريخ أبي الفدا، ١ ص ١٢٦، و مناقب الخوازمي ص ٧٥، والامتاع للمقريزي ص ٣٩، و تاريخ ابن كثير ٧ ص ٣٣٨، و السيرة الحلبية ٢ ص ٢٩.

أن يوضع هذا الحديث -مع عدم النظر إلى سبب نزول هذه الآية الكريمة بحق الإمام علي عليه السلام- في من لا يستحقه أمثال ابن ملجم فقد بذل معاوية بن أبي سفيان لسمرة بن جندب مائة ألف درهم ليروي أن قوله تعالى: ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله. نزل في ابن ملجم أشقى مراد. وقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ**﴾. الآية. نزلت في علي أمير المؤمنين. فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم، فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف درهم فقبل [١]وله من نظاير هذا شيء كثير. فليس من البدع اختلاقه على قيس وهو يفتعل على سيده النبي الأطهر ما لم يقله، و على أمير المؤمنين ما لم يكن، وعلى سروات المجد من بني هاشم الأطيبين ما هم عنه بعداء. فهو مبتدع هذه الخزايات العايدة عليه وعلى لفيفه في عهد ملوكيته المظلم، وعلى هذا كان دينه وديدنه، ثم تمرنت رواة السوء من بعده على رواية الموضوعات وشاعت و كثرت إلى أن ألقت العلماء وحفظة الحديث في جهود متعبة بالتأليف في تمييز الموضوع من غيره، والخبيث من الطيب. لم يزل معاوية دائبا على ذلك متهالكا فيه حتى كبر عليه الصغير، وشاخ الكهل وهرم الكبير، فتداخل بغض أهل البيت عليهم السلام في قلوب ران عليها ذلك التمويه، فتسنى له لعن أمير المؤمنين عليه السلام وسبه في أعقاب الصلوات في الجمعة والجماعات على صهوات المنابر في شرق الأرض وغربها حتى في مهبط وحي الله (المدينة المنورة) قال الحموي: لعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منابر الشرق والغرب ولم يلعن على منبر سجستان إلا مرة وامتنعوا على بني أمية حتى زادوا في عهدهم: وأن لا يلعن على منبرهم أحد. وأي شرف أعظم من امتناعهم من لعن أخي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على منبرهم

(١) تاريخ الطبري ٥ ص ٢٢٩، كامل ابن الأثير ٣ ص ١١٧، شرح ابن أبي الحديد ٢ ص ٢٤.

وهو يلعن على منابر الحرمين مكة والمدينة[١].

إذاً: معرفة سبب النزول ضرورة لمعرفة حقيقة الآية الكريمة ومقاصدها الشريفة، لذلك درج علماء التفسير على القول في معرض تفسير الآية الكريمة من القرآن: سبب نزوله هذه الآية كذا، وهذه العبارة نص في بيان السبب، ولا تحتمل غيرها ومثل هذه العبارة أن يذكر الراوي سؤالاً أو حادثة ثم يقول: فأنزل الله كذا، فهذا نص أيضاً، فمعرفة سبب النزول مهم لمعرفة مقاصد الآية. ومن هذه الأمثلة يمكن تلخيص أهمية معرفة سبب النزول بالأمور التالية:

١- معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.
٢- الوقوف على معنى المراد من الآية الكريمة.
٣- معرفة ما إذا كان اللفظ عاما ويقوم الدليل على التخصيص.

بالإضافة لما تقدم من الاستعانة على فهم الخطاب القرآني، وفهم الحكمة التعليلية، ومعرفة من نزلت بحقه الآية الكريمة.

(١) الحموي:في معجم البلدان ٥ ص ٣٨.

الدرس الثاني عشر:

تعدد الأسباب، والمُنزِل واحد

صرح جماعة من المتقدمين والمتأخرين بأن من القرآن ما تكرر نزوله. قال ابن الحصار: قد يتكرر نزول الآية تذكيرا وموعظة، وذكر من ذلك خواتيم سورة النحل وأول سورة الروم. وذكر ابن كثير منه آية الروح، وذكر قوم منه الفاتحة، وذكر بعضهم منه قوله: ما كان النبي والذين آمنوا الآية. وقال الزركشي في البرهان: قد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه وتذكيرا عند حدوث سببه خوف نسيانه. ثم ذكر منه آية الروح وقوله:﴿**أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ**﴾الآية. قال: فان سورة الإسراء وهود مكيتان وسبب نزولهما يدل على أنهما نزلا بالمدينة، ولهذا أشكل ذلك على بعضهم ولا إشكال لأنها نزلت مرة بعد مرة.

قال: وكذلك ما ورد في سورة الإخلاص من أنها جواب المشركين بمكة وجواب لأهل الكتاب بالمدينة. وكذلك قوله تعالى:﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ الآية.

قال: والحكمة في هذا كله انه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها فيوحى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلك

الآية بعينها تذكيرا لهم بها، وبأنها تتضمن هذه.

وفي جمال القراء للسخاوي بعد أن حكا القول بنزول الفاتحة مرتين فان قيل: فما فائدة نزولها مرة ثانية؟

قلت: يجوز أن يكون نزلت أول مرة على حرف واحد ونزلت في الثانية ببقية وجوهها نحو ملك ومالك والسراط والصراط ونحو ذلك انتهى. تنبيه - أنكر بعضهم كون شيء من القرآن تكرر نزوله، كذا رأيته في كتاب الكفيل بمعاني التنزيل، وعلله بأنه تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه. وهو مردود بما تقدم من فوائده، وبأنه يلزم منه أن يكون كلما نزل بمكة نزل بالمدينة مرة أخرى، فان جبرائيل عليه السلام كان يعارضه القرآن كل سنة. ورد بمنع الملازمة وبأنه لا معنى للإنزال إلا أن جبرائيل كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقرآن لم يكن نزل به من قبل فيقرؤه إياه. ورد بمنع اشتراط قوله لم يكن نزل به من قبل... إن لا بد من القول بتعدد النزول وتكرره في القرآن الكريم(١).

وإن كان هناك قول لبعضهم: أن تعدد النزول والتكرر تحصيل حاصل لا فائدة مرجوة منه ويميل إلى هذا القول السيوطي في الإتقان بعد أن سرد القول تفصيلا في تعدد النزول والتكرر في القرآن الكريم(٢).

تعدد النازل والسبب واحد:

وتارة تناقش هذه المسألة (التعدد والتكرر لسبب النزول) تحت عنوان، تعدد النازل والسبب واحد، كما يكون النازل واحداً والأسباب متعددة، يكون النازل متعدداً والسبب واحد، مثاله: ما روي أن أم سلمة قالت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يا رسول الله لا اسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فنزل

(١) الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٣٥.
(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٦ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللهِ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ..﴾ فهاتان آيتان متفرقتان نزلتا بسبب واحد أدرجت أحداهما في سورة آل عمران، والأخرى في سورة الأحزاب، وبذلك كان السبب في النزول واحدا وهو حديث أم سلمة مع النبي والمنزل متعدد.

مما تقدم يتضح لنا:

وتأسيساً على ما ذكرنا أن هناك غايات للقرآن الكريم بتعدد وتكرر النزول، والحكمة في هذا كله أنه قد يحدث سببٌ من سؤال أو حادثةٍ تقتضي نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فتؤدي تلك الآية بعينها إلى رسول الله ﷺ تذكيرا لقومه بآيات الله الكريمة.

كما هو الحال في تعدد السباب والنازل واحد، وكذا الحال إذا ما اختلفت الروايات في ما نزل من الآيات بسبب من الأسباب، فإنه جائز عند أكثرهم تعدد النازل والسبب واحد. قال الزركشي في البرهان ما نصه: وما يذكره المفسرون من أسباب متعددة لنزول الآية قد يكون من هذا الباب لا سيما قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها، وجماعةٌ من المحدثين يجعلون هذا من المرفوع المسند..[١]

بينما يميل السيوطي إلى القول: ومن الجائز أيضاً أن ينقل سبب للنزول

(١) الزركشي: البرهان، ج ١ ص ٣٢.

ويراد به التفسير، أي المعنى الذي تتضمنه الآية الكريمة، فيفهم من خلالها مراد الحكمة أو الغاية من نزولها، وهذا يُعين على فهم مدلول الآية الكريمة..[(١)]

إن تعدد الأسباب المنزل واحد، أو تعدد النازل والسبب واحد، يُفيد تذكير الناس بالله وأحكامه وسننه وغايته السامية التي من أجلها شرع الشرائع وبعث الأنبياء والمرسلين عليهم السلام رحمة للعالمين، ولكونه -أي القرآن الكريم- عهد الله ووثيقة ميثاقه، والرابطة المقدسة بين عالم الغيب والشهادة، وهو سجل الإرادة الإلهية، ومنهج العبودية لله سبحانه، وهو دفقة النور، وعبق الرحمة، ويسري في جسد الحياة لذا كانت تلاوته ونزوله المتكرر على عباده في مختلف الحوادث والأيام مصدرا لتثبيت عرى الإيمان، ودليل المسيرة التربوية للإنسان المسلم.

عموم اللفظ وخصوص السبب:

يُعد هذا المبحث من المباحث الأصولية التي عنى بها الأصوليون في كتبهم، وذلك لأنهم ينظرون في حال الدلالة من حيث إفادتها للأحكام من عموم وخصوص وإطلاق وتقييد ونحو ذلك وقد يكون الدليل عاما مع خصوص السبب فيحتاج الأصولي إلى بيان حال الدليل من حيث كونه يتخصص بسببه أو يعم باعتبار لفظه، ولا نظير للسبب إلا من حيث أن الأفراد التي يتناولها الدليل العام تكون من نوع ذلك السبب، وهو مع كونه من مباحث علم الأصول، فهو بسبب وثيق من مبحث أسباب النزول الذي هو من أنواع علوم القرآن الكريم.

لذلك قالوا: هل السبب الذي استدعى نزول الآية يخصص أو يقيد المدلول القرآني لها؟

---

(١) السيوطي: الإتقان ج ١ ص ٣٦، الطبعة الأولى.

وبعبارة أُخرى هل أن ما نزل من القرآن لسبب من الأسباب يقتصر على ذلك السبب في ما أفاد من حكم ومدلول؟ أو يتعداه إلى غيره من الأمور والوقائع المطابقة؟

الجواب على ذلك نقول:

إذا نزلت الآية بسبب خاص، وكان اللفظ فيها عاما فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يتقيد بالمدلول القرآني في نطاق السبب الخاص للنزول أو الواقعة التي نزلت الآية بشأنها، بل يؤخذ به على عمومه، لان سبب النزول يقوم بدور الإشارة لا التخصيص، وقد جرت عادة القرآن أن ينزل بعض أحكامه وتعليماته وإرشاداته على اثر وقائع وأحداث تقع في حياة الناس وتتطلب حكما وتعليما من الله، لكي يجئ البيان القرآني أبلغ تأثيرا وأشد أهمية في نظر المسلمين وان كان مضمونه عاما شاملا، فآية اللعان مثلا تشرع حكما شرعيا عاما لكل زوج يتهم زوجته بالخيانة وان نزلت في شأن هلال بن أمية، وآية الظهار تبين حكم الظهار بصورة عامة وان كان نزولها بسبب سلمة بن صخر. وعلى هذا الأساس اتفق علماء الأصول على أن المتبع هو مدى عموم النص القرآني وشمول اللفظ فيه، وأن سبب النزول مجرد سبب مثير لنزول الحكم العام وليس تحديدا له في نطاقه الخاص، لان مجرد نزول حكم اللعان عقيب قصة هلال ابن أمية مثلا لا يدل أطلاقا على أن الحكم يختص به، ولا يبطل عموم اللفظ وشمول النص لسائر الأزواج. وقد جاءت نصوص عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تعزز هذا المعنى وتؤيده، ففي تفسير العياشي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: إن القرآن حي لا يموت، والآية حية لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ماتوا فمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين[١].

(١) تفسير العياشي: ج ٢:ص ٢٠٣.

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: إن القرآن حي لم يمت وإنه يجري كما يجرى الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على أخرنا كما يجري على أولنا فلا تكونن ممن يقول للشيء: إنه في شيء واحد(١).

تفريعات على ما ذُكر:

كما أن هناك تفريعات على ما ذكره علماء التفسير في مبحث (عموم اللفظ لا بخصوص السبب) منها:

أن هناك تقسيمات أربعة ذكرت لهذا المبحث في علوم القرآن وهي:

تارة يكون كل من السبب واللفظ النازل عليه خاصاً.

وتارة يكون كل من السبب واللفظ النازل عليه عاماً.

وهذان القسمان ليسا محل خلاف بين علماء التفسير لأن المطابقة حاصلة بين السبب الذي هو بمنزلة السؤال وبين اللفظ المنزل عليه الذي هو بمنزلة الجواب له. ففي القرآن الكريم كثير من الأسئلة التي وجهت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت العامة والخاصة من الصحابة يحتاجون إلى جواب شافي فيها، فيأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأخبارهم بالجواب مثاله.

عندما سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾(٢)

كما أنه سئل عن الأهلة فنزل قول تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ**

(١) الكافي: ج ٢: ص١٥٦، الحديث ٢٨.

(٢) سورة الإسراء، آية ٨٥.

هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ البُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١)

كما أنه سئل عن الخمر فانزل قوله تعالى: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾**(٢) إلى غيره من الآيات الكثيرة التي جاءت بصيغة سؤال مواجه إلى رسول الله ﷺ فيأتي الجواب على لسانه ﷺ من الله تبارك وتعالى.

وتارة يكون السبب عاما واللفظ النازل عليه خاصاً.

أما عن هذا القسم وإن صح عقلا لكنه لا يجوز بلاغة لعدم التطابق بين السبب الذي هو بمنزلة السؤال واللفظ النازل عليه الذي بمنزلة الجواب له فيكون بمنزلة من يقول للمسلمين: أن يفعلوا كذا فيجاب بأن لفلان أن يفعل كذا ويترك حال الباقين، ومن ثم لم يقع هذا في آيات القرآن الكريم على حد تتبعنا للمسألة.

وتارة يكون السبب خاصاً واللفظ النازل عليه عاماً.

أما هذا القسم جائز عقلاً وواقع إذ لا ضير فيه ولا خلل بل هو أتم وأوفى بالمقصود. قال الزمخشري في الإتقان ج ١ ص ٢٦٥ في تفسير سورة الهمزة: يجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد عاما ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون ذلك جاريا مجرى التعريض(٣) وهذا ما يذهب إليه جمهور علماء التفسير أن العبرة (بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) فحادثة

---

(١) سورة البقرة، آية ١٨٩.

(٢) سورة البقرة، آية ٢١٩.

(٣) الزمخشري في الإتقان: ج ١ ص ٢٦٥.

خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، كانت سبباً لنزول آيات الظهار وهي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**﴾[١] فاللفظ النازل عام لأنه اسم موصول وهو من صيغ العموم ويدخل تحت هذا العموم خوله، ومن كان على شاكلتها ممن يظاهر منهن، وحادثة هلال بن أمية الذي رمى امرأته بشريك بن سحماء قد نزل بسببها آيات اللعان وهي قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾[٢] فاللفظ النازل عام وهو شامل لمن نزلت فيه الآية ولغيرة ممن هو شاكلته، وهذا هو رأي الجمهور.

كما أن بعض جمهور المفسرين ذهبوا إلى القول: أن العبرة بخصوص السبب يعني، أن لفظ الآية يكون قاصراً على من نزلت بسببه الآية، فآيات الظهار مثلاً لفظها خاص بخولة بنت ثعلبه ومظاهرة زوجها منها. وآيات اللعان لفظها خاص بهلال بن أمية، أما حكم غير هما ممن يشبههما فلا يكون مستفاداً من لفظ الآية.

إنما يستفاد بطريق القياس أو الاجتهاد لدخوله تحت القاعدة المعروفة عند علماء الأصول وهي: حكمي على الواحد حكمي على الجماعة[٣] وهذا لا يقول به إلا البعض من علماء التفسير.

(١) سورة المجادلة، آية ٢.

(٢) سورة النـــور، آية ٦.

(٣) المدخل لدراسة القرآن: ج ١ ص١٥٦، د/ محمد أبو شهبة.

الدرس الثالث عشر:

هل القرآن نزل على سبعة أحرف؟

أهتم علماء التفسير بهذه المسألة أيما اهتمام، فلا تجد كتاب يتحدث عن علوم القرآن الكريم إلا ويمرر عليها ويناقشها بين مثبت لها ونافٍ، بل أفرد لها بعضهم بالتأليف صفحات مطولة وذهب إلى عدة آراء في للفظ (سبعة أحرف) حتى بلغ بها -أي تلكم الآراء- خمسة وثلاثين قولاً[(١)].

ولعل هذه المسألة (نزول القرآن على سبعة أحرف) لعبت دورا في تعدد القراءات، والتي بدورها أدخلت على القرآن الكريم مسألة التحريف، فلو تمكن من إسقاطها لتمكن من قطعية القول بعدم تحريف القرآن الكريم، فعليه أن تعدد القراءات ساهم مساهمة كبيرةً في ما حصل من اختلاف بين المصاحف، ومن ثم ما حصل من اختلاف في النسخ -على ما افادة شيخنا الأستاذ في قوله عن النسخ في القرآن العظيم- المنسوخة عن مصحف واحد، ومن ثم ما حصل من تأويل لهذا الحديث الذي ترويه بعض المصادر الإسلامية؛ ويؤوله كل عالم بحسب ذوقه وفهمه وانتمائه.

---

(١) السيوطي: الإتقان، ج١ ص٢٨٧، ط الأولى.

وحتى نقف على تلك الحقيقة لا بد لنا أن نتحدث قليلا عن (النسخ في القرآن)

النسخ ما هو؟

القرآن -في جملة واحدة- ناسخ لسواه وليس منسوخاً بسواه، قبله أو معه أو بعده، وان كان فيه بعض التناسخ لنفسه في أحكام مؤقتة امتحانية كحكم النجوى والزنا وعدد الكفاح في قتال الكفار: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾.

ولان الحكم الناسخ يبطل الحكم المنسوخ، فعزة القرآن وغلبته تجعله بحيث لا يبطَل ولا يُنسخ جملة أو تفصيلا، كلا أو بعضاً من بين يديه من كتابات السماء حيث تؤيده ولا تبطله، «ولا من خلفه» حاضراً لديه كوحي السنة، او آتياً بعده كفتاوى الخلفاء والأئمة، فلو أن حكماً من الأحكام زمن الوحي أو بعده ينسخ حكماً من أحكامه فقد أتاه الباطل، الذي يبطله ويحوِّله. والقرآن هو نفسه يُحيل للرسول ملتحداً سواه: ﴿**وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا**﴾[1] فإنه الوحي الخالد الأم الذي يتبنى شريعة الإسلام طول الزمن، ومهما كان وحي السنة ايضاً وحياً ولكنه شارح له، هامشي لا يمكن أن يختلف عنه وينسخه، وقد أمر الرسول أن يتبعه، فيعيش متابعة وحي القرآن طوال الرسالة: ﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾[2]:

---

(١) فلا ملتحد ومرجع رسولياً لرسول الهدى الاّ القرآن فحسب، وما لا يوافق ولا يخالف من سنته القرآن فهو مستفاد له من حروف رمزية أوحي إليه ﷺ معانيها كما أوحي ألفاظها.

(٢) سورة يونس ١٠: ١٠٩.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[١].

وقد حصر الرسول حياته الرسالية باتباع ما يوحى اليه: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي..﴾**[٢]، **﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾**[٣].

وما مرت على الرسول ولا مرة يتيمة أن يخالف وحي القرآن ولو نسخاً لحكم من أحكامه. إلاّ ما اختلقته أيدي الزور والغرور أنه نسخ حكم المتعتين. وليبرّروا بدعة فلان التي يسمونها بدعة حسنة!.

ولأن القرآن هو الوحي الأصيل الخالد حجةً على العالمين. لم يكن الله ليوحي إلى رسوله وحياً في سنة تنسخ وحي القرآن، فالأحاديث التي تتحدث عن نسخ الكتاب بالسنة تضرب عرض الحائط، لأنها تخالف الكتاب جملة وتفصيلا، كما وأن آيات العرض وأحاديثه المتواترة تضربها عرض الجدار، مهما كثر محدثوها ومفتوها.

واذا الرسول «لن تجد من دونه ملتحداً» فما لغير الرسول يسمح لنفسه أن ينسخ القرآن **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّـهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ... هُمُ الظَّالِمُونَ.. هُمُ الفَاسِقُونَ﴾**[٤].

فنسخ القرآن كفر وظلم وفسق بل واظلم منها وأنكى، فان ثالوث الكفر والظلم والفسق هو لمن لم يحكم بما أنزل الله، فما هي حال من حكم بخلاف ما أنزل الله؟

---

(١) سورة النساء ٤: ١٠٥.

(٢) سورة الأعراف ٧: ٢٠٣.

(٣) سورة الأحقاف ٤٦: ٩.

(٤) سورة المائدة ٥: ٤٤، ٤٥، ٤٧.

فالسنة إذاً لا تنسخ القرآن، كما ولا تنسخ نفسها، حيث السنة المنسوخة إن كانت خلاف القرآن فهي باطلة منذ كونها وليست سنة حتى تنسخ، وان كانت وفاق القرآن فنسخها إذا نسخ للقرآن ولن يكون!، اللهم إلا في سنة لا توافق القرآن ولا تخالفه إذ لم يأت وحيها بعدُ في القرآن فقد يكون تناسخ بينها قبل قرآنها.

وإما نسخ القرآن للسنة فقد يكون، حيث الرسول كان ـ قبل أن يوحى إليه القرآن ـ مستناً بسنة من قبله من رسول، أو سنته الخاصة الناسخة لما قبله، ووحي القرآن يتدرج طوال الرسالة، فقد كان ينسخ ما عنده وقد كان يقرّه.

إذاً ففي مثلث النسخ المدعى لا نجد إلاّ نسخ القرآن للسنة في نجومه النازلة هنا وهناك. أو تناسخ السنة احياناً.

ثم النسخ ـ خلاف ما قد يزعم ـ ليس إلا في الأحكام التكليفية أو الوضعية، واما الأحكام العقلية، والإخبارات الكونية، فليس التناسخ فيها إلاّ تكاذباً، كذباً فيهما أو أحدهما، وحاشا عن ذلك وحي القرآن والسنة.

وكما أن نسخ القرآن بالسنة لا يصدق في إزالة حكم من أحكامه، كذلك في تقييد أطلاقاته أو عموماته التي هي نص في الإطلاق أو العموم أو في حمل ظاهر مستقر إلى غير ظاهره، فانه اظهر من ظاهر الحديث أو نصه، أو في إطلاق آية مقيدة أو تعميم آية خاصة أو تخصيص آية عامة، أو تقييد أية مطلقة، اللّهم إلا في عام أو خاص قرآني ليسا في مقام البيان فيصح تخصيص عامه وتقييد مطلقة بما ثبت من السنة، وسوف تجد تفاصيلها في هذا التفسير[١].

من هنا: أمامنا عدة أحاديث، وصفت أنها نبوية، أشارت إلى اختلاف الناس في النقل عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، لتبرير هذه الظاهرة (القول

(١) لقد أسهب القول فيها في تفسيره (الموضوعي) فراجعه.

بنزوله على سبعة أحرف) منها:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما، بسندهما عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: أقرأني جبريل على حرف، فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف، زاد مسلم في روايته، قال ابن شهاب: بلغني أن تلك السبعة الأحرف، إنما هي في الأمر يكون واحدا، لا يختلف في حلال ولا حرام(١).

- مجاهد عن ابن أبي ليلى عن أبي بن كعب إن النبي ﷺ كان عند اضاة بني غفار قال فاتاه جبريل عليه السلام فقال إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف قال أسأل الله معافاته ومغفرته وان أمتي لا تطيق ذلك ثم جاء الثانية فقال إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين فقال أسأل الله معافاته ومغفرته إن أمتي لا تطيق ذلك ثم جاء الثالثة فقال إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤا عليه فقد أصابوا(٢).

-ما أخرجه أحمد عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو أن رجلا قرأ آية من القرآن فقال له عمر إنما هي كذا وكذا فذكرا ذلك للنبي ﷺ فقال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأي ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا فيه(٣).

- ولأحمد أيضا وأبي عبيد من حديث أبي جهم بن الصمة أن رجلين اختلفا في آية من القرآن كلاهما يزعم أنه تلقاها من رسول الله ﷺ فذكرالطبراني عن زيد بن أرقم قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

(١) فتح الباري: ج ٩ ص ١٩، صحيح مسلم بشرح النووي ج ٦ ص ١٠١، ط الأولى.
(٢) سند أحمد: الامام احمد بن حنبل ج ٥ ص ١٢٧.
(٣) فتح الباري: ابن حجر ج ٩ ص ٢١.

فقال:أقرأني بن مسعود سورة أقرأنيها زيد وأقرأنيها أبي بن كعب فاختلفت قراءتهم فبقراءة أيهم آخذ فسكت رسول الله ﷺ وعلي إلى جنبه فقال علي ليقرأ كل إنسان منكم كما علم فإنه حسن جميل(١).

ما المراد من الأحرف السبعة؟:

بعد العرض السابق والذي نكتفي فيه، بذكر بعض الشواهد من الأحاديث التي يستدل بها القائلون على نزول القرآن على سبعة أحرف، نصل إلى القول: ما هو المراد بهذه الأحرف؟

هل هي القراءة؟
هل هي الأحكام والنواهي والأوامر؟
هل هي اللغات؟

لهذا السؤال جمع ابن الجوزي أربعة عشر جواباً، وأقتنع هو بالجواب الرابع عشر، نورد بعضها مع التصرف، إذا الغرض من إيرادها إطلاع القارئ عليها لا مناقشتها واحدة تلو الأخر، إنما سوف يتعرف القارئ أو الباحث هنا بعد هذا العرض على أصح الأقوال التي ذهبت إليها بعض المدارس القرآنية وهي كالتالي:

القول الأول:نزل القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب:

ونسبوا هذا القول إلى كل من: الإمام علي عليه السلام وابن عباس للرواية المروية عنهما: إن النبي ﷺ كان يقرئ الناس بلغة واحدة فاشتد ذلك عليهم، فنزل جبريل فقال: يا محمد أقرئ كل قوم بلغتهم(٢)

---

(١) فتح الباري: ابن حجر ج ٩ ص ٢١.
(٢) المرشد الوجيز ص٩٦.

القول الثاني: نزل بلغة العجز من هوازن:

وينسب هذا القول إلى محمد بن السائب (ت ١٣٦هـ)[١] والأعمش (ت ١٤٧هـ)[٢].

للرواية المنقولة عن أبي صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب، عن ابن عباس: أنزل الله القرآن على سبعة أحرف خمسة منها بلغة العجز من هوازن. وهم سعد بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف، وهم يُعدوا أفصح العرب في زمانهم[٣]

القول الثالث: المراد سبع لغات من لغات العرب:

وينسب هذا القول إلى أحمد بن يحي بن ثعلب (ت٢٩١هـ) وعبدالحق بن غالب، المشهور بابن عطية (ت٥٤٦هـ) الرواية عن ابن مسعود قوله: إني سمعت القراء فوجدتهم متقاربين، فقرءوا كما علمتم[٤] ولعل المقصود اللغات هي لغات العرب، وهم قريش، وهوازان، وهذيل، وأهل اليمن، لقيس، لتميم.

القول الرابع: معنى سبعة، هي معان في القراءة:

وينسب هذا القول إلى أبو العباس أحمد بن واصل (ت في أوائل المائة الثالثة)، ويستند إلى ما ذهب إليه إلى ذكر بعض القراءات التي كان يُقرء بها

---

(١) وهو: محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبي، أبو النضر الكوفي كان عالماً بالتفسير وأنساب العرب، وأحاديثهم، أنظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٢٤.

(٢) وهو: سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، تابعي كان من علماء القراءات والحديث، انظر: تاريخ بغداد ج ٣ ص ٩، وتهذيب التهذيب: ج ٤ ص ٢٢٢.

(٣) المرشد الوجيز ص٩٣.

(٤) المرشد الوجيز ص١٩، الإتقان ج ١ ص ١٣٥ والبرهان ج ١ ص ٢١٧.

القرآن الكريم بحسب لهجات العرب. فمثلاً:

أن يكون الحرف له معنى واحد تختلف فيه قراءتان تخالفان بين نقطة ونقطة مثل (تعلمون) و(يعملون).

أن يكون الحرف مهموزاً وغير مهموز نحو: (النبئ) و(النبي)[١]

أن يكون في الكلمة تثقيل وتخفيف نحو (الأُكُل) و(والأَكْل).

القول الخامس: القرآن على سبعة أحرف من مراتب العرب السبعة:

وينسب هذا القول إلى القاسم بن ثابت بن مطرف العوفي السرقسطي (ت ٢٠٢هـ).

ويميل إلى القول أن سبعة الأحرف المراد بها هي أن القرآن يُقرأ على سبعة للغات العرب وهم:

١- قريش. ٢-كنانة.

٣-الأسد. ٤- الهذيل.

٥-تميم. ٦ - ضبة.

٧- قيس.

القول السادس: المراد بها الأحرف الوجوه التي يقرأ بها القرآن:

وينسب هذا القول إلى الشيخ أبو الحسن السخاوي (ت٦٤٣هـ) ويعتمد على ما ذهب إليه بخصوص سبعة أوجه من خلال ما فهمه من مواضع شتى في القرآن وقراءة الآخرين له، نحو: زيادة كلمة فيه كقوله(وهو

(١) وهي قراءة نافع، وعدم الهمز قراءة باقى القراء

الغنى) فقد قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بحذف لفظ هو، على جعل إن (الغنى) وقرأ الباقون بإثبات لفظ (هو) على أنه ضمير فصل بين الاسم والخبر[١]، أو مجيء حرف مكان آخر نحو: (يقول – نقول).

القول السابع: المراد من السبعة، سبعة أصناف من الكلام:

ذهب البعض إلى أن المراد بالأحرف السبعة، سبعة أصناف من الكلام، وقد اختلف القائلون به في تعيين هذه السبعة، فقيل إنها أمر، ونهي، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال.، واحتجوا بما أخرجه الحاكم والبيهقي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: كان كتاب الأول نزل من باب واحد، وعلى حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف زجر، وأمر، ونهي، وحرام، ومحكم، ومتشابه وحلال[٢] وهكذا دواليك[٣].

الرأي الفصل في الحروف السبعة:

وقبل الدخول في تفصيل هذا الرأي، نشير إلى أنه لا صحة مطلقاً لهذا الحديث الذي أصبح كأنه الدليل، والمبرر لاختلاف القراءات، وإضفاء صفة الشرعية عليها، والإقدام على التغيير والتبديل في ألفاظ القرآن الكريم، وكما اشرنا سابقا إلى أنه إذا تمكنا من إسقاط أطروحة (القراءات) تمكنا من الجزم بعدم القول بتحريف القرآن الكريم.

فعليه:فرواية الأحرف السبعة غير صحيحة من عدة وجوه:

---

(١) المهذب: ج ٢ ص ٣٩٩

(٢) فتح الباري: ج ٩ ص ٢٤.

(٣) ولمزيد من الإطلاع على جملة الآراء، أنظر كتاب ابن الجوزي (الموجز في علوم القرآن) وكتاب (في رحاب القرآن) لمؤلف د/ محمد محيسن.

أولا: تعارضها مع الروايات الصحيحة:

فقد روي عن أهل البيت عليهم السلام ما يعارض ما أحتج به القائلون بصحتها. فقد جاء عن الإمامين الباقر، والصادق عليه السلام أنهما قد كذبا رواية نزول القرآن على سبعة أحرف، والعبارة المروية عن الإمام الباقر عليه السلام هي قوله: كذبوا –أعداء الله– لكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد، وزاد في بعضها قوله: ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة، وهذا النقل قد جاء في معناه عدة روايات عنهما عليهما السلام[١].

ولعل الإشارة في لفظ (الرواة) يقصد منه أن المقتضى الموافق للعقل والعادة في نقل الكتب ورواياتها والأشعار والخطب وغيرها؛ إذا لم نرى كتابا أو قصيدة أو خطبة حفظ الرواة واتفقوا على جميع ألفاظها وحركاتها وتقديمها وتأخيرها وزيادتها ونقصانها مهما اهتموا بضبطها وحفظها من أولها إلى آخرها يعلم ذلك المتتبعون للكتب القديمة بل الغالب اختلاف النسخ في سطور وصفحات أقل أو أكثر من أن المصنف لم يعمل كتابه وشعره إلا على وجه واحد ولو ادعى أن حفظ جميع الرواة لجميع الألفاظ محال لم يبعد لكن لما كان العلم بما هو الواقع محالا لم يؤمر أحد بتحصيله واختياره وجاز الاكتفاء بإحدى الروايات والقرآن أحفظ ما بقي وأقل ما وقع الخلاف فيه ولعل اختلاف القراءة فيه مما لا يعبأ به لكونه تافهاً جداً وشرط ما يقرأ أن يكون متواترا عن أحد الأئمة الذين اتفقوا على إتقانهم وضبطهم ممن يعلم أنهم لم يقرؤوا إلا بما تواتر لديهم. وهذا غاية ما يمكن فيه التحري ولذا اتفق المسلمون قاطبة على عدم قبول غير المتواتر وإن القرآن لا يثبت بإخبار الآحاد ولا طريق لنا إلى قراءة أمثال ابن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما إلا بطريق الآحاد لعدم شهرة قراءتهم بين الأنام وإنما نقل ما نقل

(١) راجع الكافي: ج ٢ ص ٤١٦، والوسائل ج ٤ ص ٨٢٢، والبيان ص١٩٤.

عنهم شاذا وأما قراءة السبعة فكانت مشهورة متداولة في مشارق الأرض ومغاربها من عهدهم إلى زماننا بحيث يمتنع تواطؤ الناقلين عنهم على الكذب عمدا أو سهوا كما يمتنع تواطؤ الناقلين مواضع المشاعر وقبور الأئمة وحدود مسجد النبي ﷺ والمسجد الحرام والمسعى وعرفات ومنى وحفظ أيام الأسابيع ولو كنا في زمن الأئمة عليهم السلام وأمكننا تحصيل التواتر على قراءة ابن مسعود مثلا لجاز لنا اختيارها في عرض سائر القراءات لاحتمال وجود القراءة الأولى التي نزل بها جبرائيل فيها وفي غيرها على السواء ولكن لم يبق لنا طريق متواتر إلا إلى السبع ولا يبعد عندي تواتر العشر أيضا وأما ما سواها فلا يجوز لنا قطعا والقراءة المنسوبة إلى النبي ﷺ أو الأئمة عليهم السلام منقولة لنا أيضا بطريق الآحاد ولا نثق بصحة النسبة.

ثانياً: تعارض الروايات مع بعضها البعض:

ويضاف إلى ذلك ما بين هذه الروايات من التخالف والتناقض، وما في بعضها من عدم التناسب بين السؤال والجواب. تهافت الروايات: فمن التناقض أن بعض الروايات دل على أن جبرائيل أقرأ النبي ﷺ على حرف فاستزاده النبي ﷺ فزاده، حتى انتهى إلى سبعة أحرف، وهذا يدل على أن الزيادة كانت على التدريج، وفي بعضها أن الزيادة كانت مرة واحدة في المرة الثالثة، وفي بعضها أن الله أمره في المرة الثالثة أن يقرأ القرآن على ثلاثة أحرف، وكان الأمر بقراءة سبع في المرة الرابعة. ومن التناقض أن بعض الروايات يدل على أن الزيادة كلها كانت في مجلس واحد، وأن طلب النبي ﷺ الزيادة كان بإرشاد ميكائيل، فزاده جبرائيل حتى بلغ سبعا، وبعضها يدل على أن جبرائيل كان ينطلق ويعود مرة بعد مرة. ومن التناقض أن بعض الروايات يقول: إن أبي دخل المسجد، فرأى رجلا يقرأ على خلاف قراءته. وفي بعضها أنه كان في المسجد، فدخل رجلان وقرءا على خلاف قراءته. وقد وقع فيها الاختلاف أيضا فيما قاله النبي ﷺ لأبي.. إلى غير ذلك من الاختلاف.

ومن عدم التناسب بين السؤال والجواب، ما في رواية ابن مسعود من قول علي عليه السلام إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمركم أن تقرؤوا كما علمتم. فإن هذا الجواب لا يرتبط بما وقع فيه النزاع من الاختلاف في عدد الآيات. أضف إلى جميع ذلك أنه لا يرجع نزول القرآن على سبعة أحرف إلى معنى معقول، ولا يتحصل للناظر فيها معنى صحيح..[(١)]

ثالثاً: أن القول بالأحرف السبعة تأكيد المخالفة لمنهج أهل البيت عليهم السلام:

لعل التأكيد على القول بنظرية (الأحرف السبعة) محاربة ومخالفة لما ذهبت إليه نظرية أهل البيت عليهم السلام من أن القرآن نزل على حرف واحد من الواحد. وروى المجلسي حديثاً مطولا جاء فيه عن إسماعيل بن جابر قال سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: إن الله تبارك وتعالى بعث محمدا فختم به الأنبياء فلا نبي بعده، وأنزل عليه كتابا فختم به الكتب فلا كتاب بعده، أحل فيه حلالاً وحرم حراماً، فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فيه شرعكم وخبر من قبلكم وبعدكم، وجعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم علما باقياً في أوصيائه. فتركهم الناس وهم الشهداء على أهل كل زمان، فعدلوا عنهم ثم قتلوهم واتبعوا غيرهم، ضربوا بعض القرآن ببعض، واحتجوا بالمنسوخ، وهم يظنون أنه الناسخ، واحتجوا بالمتشابه وهم يرون أنه المحكم، واحتجوا بالخاص وهم يقدرون أنه العام، واحتجوا بأول الآية وتركوا السبب في تأويلها، ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره، إذ لم يأخذوه عن أهله.

ولقد سأل أمير المؤمنين عليه السلام شيعته عن مثل هذا فقال: إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن على سبعة أقسام كل منها شاف كاف، وهي أمر وزجر

---

(١) البيان في تفسير القرآن: الإمام الخوئي ص ١٨٠.

وترغيب وترهيب وجدل ومثل وقصص. وفي القرآن ناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وخاص وعام، ومقدم ومؤخر، وعزائم ورخص، وحلال وحرام، وفرائض وأحكام، ومنقطع ومعطوف، ومنقطع غير معطوف، وحرف مكان حرف، ومنه ما لفظه خاص، ومنه ما لفظه عام محتمل العموم، ومنه ما لفظه واحد ومعناه جمع، ومنه ما لفظه جمع ومعناه واحد، ومنه ما لفظه ماض ومعناه مستقبل، ومنه ما لفظه على الخبر ومعناه حكاية عن قوم أُخر، ومنه ما هو باق محرف عن جهته، ومنه ما هو على خلاف تنزيله، ومنه ما تأويله في تنزيله، ومنه ما تأويله قبل تنزيله، ومنه ما تأويله بعد تنزيله. ومنه آيات بعضها في سورة وتمامها في سورة أخرى، ومنه آيات نصفها منسوخ ونصفها متروك على حاله، ومنه آيات مختلفة اللفظ متفقة المعنى، ومنه آيات متفقه اللفظ مختلفة المعنى، ومنه آيات فيها رخصة وإطلاق بعد العزيمة(١)

وقال الشيخ الطوسي في تفسير التبيان ج ١ ص ٧.. وروى المخالفون لنا عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف، وفي بعضها: على سبعة أبواب، وكثرت في ذلك رواياتهم، ولا معنى للتشاغل بإيرادها، واختلفوا في تأويل الخبر، فاختار قوم أن معناه على سبعة معان: أمر، ونهي، ووعد، ووعيد، وجدل، وقصص، وأمثال. وروى ابن مسعود عن النبي أنه قال: نزل القرآن على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال... وقال آخرون: أي سبع لغات مختلفة، مما لا يغير حكما في تحليل وتحريم... وكانوا مخيرين في أول الإسلام في أن يقرؤوا بما شاؤوا منها، ثم أجمعوا على حدها، فصار ما أجمعوا عليه مانعا مما أعرضوا عنه. وقال آخرون نزل على سبع لغات... الخ.

(١) البحار: ج ٩٠ ص٣.

وقال الشهيد الثاني في مسالك الأفهام ج ١ ص ٤٢٩. ووجه تسمية القراءة بالحرف ما روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال نزل القرآن على سبعة أحرف، وفسرها بعضهم بالقراءات وليس بجيد، لأن القراءة المتواترة لا تنحصر في السبعة بل ولا في العشرة كما حقق في موضعه، وإنما اقتصروا على السبعة تبعا لابن مجاهد حيث اقتصر عليها تبركا بالحديث. وفي أخبارنا أن السبعة أحرف ليست هي القراءة بل هي أنواع التركيب من الأمر والنهي والقصص وغيرها) انتهى. وقال المحقق البحراني في الحدائق الناضرة ج ٨ ص ٩٩: ثم اعلم أن العامة قد رووا في أخبارهم أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف كلها شاف واف، وادعوا تواتر ذلك عنه صلى الله عليه وآله، واختلفوا في معناه إلى ما يبلغ أربعين قولا، أشهرها الحمل على القراءات السبع. وقد روى الصدوق قدس سره في كتاب الخصال بإسناده إليهم عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أتاني آت من الله عز وجل يقول إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت يا رب وسع على أمتي فقال إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف. وفي هذا الحديث ما يوافق أخبار العامة المذكورة، مع أنه عليه السلام قد نفى ذلك في الأحاديث المتقدمة وكذبهم في ما زعموه من التعدد، فهذا الخبر بظاهره مناف لما دلت عليه تلك الأخبار والحمل على التقية أقرب فيه.. وروى المجلسي في بحار الأنوار ج ٨٢ ص ٦٥ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال أتاني جبريل، فقال إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: يا رب وسع على أمتي، فقال إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف) ثم قال: بيان، الخبر ضعيف ومخالف للأخبار الكثيرة كما سيأتي، وحملوه على القراءات السبعة، ولا يخفى بعده لحدوثها بعده صلى الله عليه وآله وسلم، وسنشبع القول في ذلك في كتاب القرآن إن شاء الله. ولاريب في أنه يجوز لنا الآن أن نقرأ موافقا لقراءاتهم المشهورة.

وقال المحقق الهمداني في مصباح الفقيه ج ٢ ص ٢٧٤ والحق أنه لم

يتحقق أن النبي صلى الله عليه وآله قرأ شيئا من القرآن بكيفيات مختلفة، بل ثبت خلافه فيما كان الاختلاف في المادة أو الصورة النوعية التي يؤثر تغييرها في انقلاب ماهية الكلام عرفا، كما في ضم التاء من أنعمت، ضرورة أن القرآن واحد نزل من عند الواحد كما نطقت به الأخبار المعتبرة المروية عن أهل بيت الوحي والتنزيل، مثل ما رواه ثقة الإسلام الكليني بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن القرآن واحد من عند الواحد ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة! وعن الفضيل بن يسار في الصحيح قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الناس يقولون نزل القرآن على سبعة أحرف، فقال كذبوا أعداء الله، ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد. ولعل المراد بتكذيبهم تكذيبهم بالنظر إلى ما أرادوه من هذا القول مما يوجب تعدد القرآن، وإلا فالظاهر كون هذه العبارة صادرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل قد يدعى تواتره، ولكنهم حرفوها عن موضعها وفسروها بآرائهم، مع أن في بعض رواياتهم إشارة إلى أن المراد بالأحرف أقسامه ومقاصده، فإنهم على ما حكي عنهم رووا عنه صلى الله عليه وآله أنه قال نزل القرآن على سبعة أحرف: أمر وزجر وترغيب وترهيب وجدل وقصص ومثل. ويؤيده ما روى من طرقنا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن على سبعة أقسام كل قسم منها كاف شاف، وهي أمر وزجر وترغيب وترهيب وجدل ومثل وقصص.... فظهر مما ذكرنا أن الاستشهاد بالخبر المزبور لصحة القراءات السبع وتواترها عن النبي صلى الله عليه وآله في غير محله. وكفاك شاهدا لذلك ما قيل من أنه نقل اختلافهم في معناه إلى ما يقرب من أربعين قولاً!

والحاصل: أن دعوى تواتر جميع القراءات السبعة أو العشرة بجميع خصوصياتها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تتضمن مفاسد ومناقضات لا يمكن توجيهها، وقد تصدى جملة من القدماء والمتأخرين لإيضاح ما فيها من المفاسد بما لا يهمنا الإطالة في إيراده، وقال السيد الخوئي في مستند العروة ج ١٤ ص

٤٧٤... هذا وحيث قد جرت القراءة الخارجية على طبق هذه القراءات السبع لكونها معروفة مشهورة ظن بعض الجهلاء أنها المعني بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على ما روي عنه، إن القرآن نزل على سبعة أحرف، وهذا كما ترى غلط فاحش، فإن أصل الرواية لم تثبت، وإنما رويت من طريق العامة، بل هي منحولة مجعولة كما نص الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ على تكذيبها بقوله: كذبوا أعداء الله نزل على حرف واحد.... وقال السيد الخوئي في البيان في تفسير القرآن ص ١٨٠ بعد إيراد روايات السبعة أحرف وعلى هذا فلا بد من طرح الروايات، لأن الالتزام بمفادها غير ممكن. والدليل على ذلك: أولا: أن هذا إنما يتم في بعض معاني القرآن، التي يمكن أن يعبر عنها بألفاظ سبعة متقاربة... ثانيا: إن كان المراد من هذا الوجه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد جوز تبديل كلمات القرآن الموجودة بكلمات أخرى تقاربها في المعنى، ويشهد لهذا بعض الروايات المتقدمة، فهذا الاحتمال يوجب هدم أساس القرآن، المعجزة الأبدية، والحجة على جميع البشر... وقد قال الله تعالى: قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي. وإذا لم يكن للنبي أن يبدل القرآن من تلقاء نفسه، فكيف يجوز ذلك لغيره؟ وإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ علم البراء بن عازب دعاء كان فيه ونبيك الذي أرسلت فقرأ براء: ورسولك الذي أرسلت، فأمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أن لا يضع الرسول موضع النبي. فإذا كان هذا في الدعاء، فماذا يكون الشأن في القرآن؟

رابعاً: أنه صرحت الروايات المتقدمة بأن الحكمة في نزول القرآن على سبعة أحرف هي التوسعة على الأمة، لأنهم لا يستطيعون القراءة على حرف واحد، وأن هذا هو الذي دعا النبي إلى الاستزادة إلى سبعة أحرف. وقد رأينا أن اختلاف القراءات أوجب أن يكفر بعض المسلمين بعضا حتى حصر عثمان القراءة بحرف واحد وأمر بإحراق بقية المصاحف. ويستنتج من ذلك... أن الاختلاف في القراءة كان نقمة على الأمة وقد ظهر ذلك في عصر

عثمان، فكيف يصح أن يطلب النبي ﷺ من الله ما فيه فساد الأمة. وكيف يصح على الله أن يجيبه إلى ذلك؟ وقد ورد في كثير من الروايات النهي عن الاختلاف، وأن فيه هلاك الأمة، وفي بعضها أن النبي ﷺ تغير وجهه واحمر حين ذكر له الاختلاف في القراءة.

وحاصل ما قدمناه: أن نزول القرآن على سبعة أحرف لا يرجع إلى معنى صحيح، فلا بد من طرح الروايات الدالة عليه، ولا سيما بعد أن دلت أحاديث الصادقين عليهما السلام على تكذيبها وأن القرآن إنما نزل على حرف واحد، وأن الاختلاف قد جاء من قبل الرواة. وقال في ص ١٦٠ عن القراءات السبع... والأولى أن نذكر كلام الجزائري في هذا الموضع. قال: لم تكن القراءات السبع متميزة عن غيرها حتى قام الإمام أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد - وكان على رأس الثلاثمائة ببغداد - فجمع قراءات سبعة من مشهوري أئمة الحرمين والعراقين والشام، وهم: نافع، وعبد الله ابن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعبد الله بن عامر، وعاصم وحمزة، وعلي الكسائي. وقد توهم بعض الناس أن القراءات السبعة هي الأحرف السبعة، وليس الأمر كذلك... وقد لام كثير من العلماء ابن مجاهد على اختياره عدد السبعة، لما فيه من الايهام... قال أحمد بن عمار المهدوي: لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة. قال أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل. وقال في ص ١٦٧: ذهب الجمهور من علماء الفريقين إلى جواز القراءة بكل واحدة من القراءات السبع في الصلاة، بل ادعي على ذلك الإجماع في كلمات غير واحد منهم وجوز بعضهم القراءة بكل واحدة من العشر، وقال بعضهم بجواز القراءة بكل قراءة وافقت

العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها، ولم يحصرها في عدد معين. والحق أن الذي تقتضيه القاعدة الأولية، هو عدم جواز القراءة في الصلاة بكل قراءة لم تثبت القراءة بها من النبي الأكرم ﷺ أو من أحد أوصيائه المعصومين عليهم السلام، لأن الواجب في الصلاة هو قراءة القرآن فلا يكفي قراءة شيء لم يحرز كونه قرآنا، وقد استقل العقل بوجوب إحراز الفراغ اليقيني بعد العلم باشتغال الذمة... وأما بالنظر إلى ما ثبت قطعيا من تقرير المعصومين عليهم السلام شيعتهم على القراءة، بأية واحدة من القراءات المعروفة في زمانهم، فلا شك في كفاية كل واحدة منها، فقد كانت هذه القراءات معروفة في زمانهم، ولم يرد عنهم أنهم ردعوا عن بعضها، ولو ثبت الردع لوصل إلينا بالتواتر، ولا أقل من نقله بالآحاد، بل ورد عنهم عليهم السلام إمضاء هذه القراءات بقولهم: اقرؤوا كما يقرأ الناس. اقرؤوا كما علمتم. وعلى ذلك فلا معنى لتخصيص الجواز بالقراءات السبع أو العشر، نعم يعتبر في الجواز أن لا تكون القراءة شاذة.

وصفوة القول: أنه تجوز القراءة في الصلاة بكل قراءة كانت متعارفة في زمان أهل البيت عليهم السلام انتهى. ونلفت هنا إلى نكتة نحوية في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام (كذبوا أعداء الله) فقد ورد في كثير من الأحاديث والنصوص الفصيحة الجمع بين فاعلين مضمر وظاهر، مما يجعلنا نطمئن إلى أنه أسلوب عربي في التأكيد على الفاعل لغرض من الأغراض. وكذلك تمييز أحد المعطوفات بإعراب آخر لتأكيده كما ورد في القرآن، وأن هذه القواعد قد فات النحاة استقراؤها من لغة العرب، كما فاتهم إضافة (بقي) إلى أخوات كان مع أنه لا فرق بينها وبينها. الروايات السنية الموافقة لرأي أهل البيت لا أدري لماذا أعرض علماء إخواننا السنة عن هذه الأحاديث مع أن فيها الصحيح، وأقل ما يقال فيها أنها تصلح لمعارضة الأحاديث التي تفسر السبعة أحرف بالألفاظ، وقواعدهم عند تعارض الأحاديث الصحيحة مثل

قواعدنا.. فعندما يتعارض الحديثان أو المجموعتان من الأحاديث ولا يمكن الجمع بينها، فإذا وجد مرجح لبعضها رجحناه، وإلا فإنها جميعا تتساقط ونتوقف عن الأخذ بأي منها.. وبما أن الجمع بين هاتين المجموعتين غير ممكن، فكيف صح لهم أن يرجحوا الأحاديث التي تفسر الأحرف السبعة بالألفاظ على الأحاديث التي تفسرها بالمعاني؟! مع أن أكبر مرجح للأحاديث التي تفسرها بالمعاني أنها تسد ذريعة التوسع في نص القرآن، وأنها مضافا إلى صحة إسنادها ذات معنى مفهوم معقول بعكس الأخرى. روى الحاكم في مستدركه ج ١ ص ٥٥٣ وفي ج ٢ ص ٢٨٩... عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال نزل الكتاب الأول من باب واحد عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال نزل الكتاب الأول من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجرا وآمرا وحلالا وحراما ومحكما ومتشابها وأمثالا، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا. هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه السيوطي في الدر المنثور ج ٢ ص ٦ عن ابن جرير والحاكم وصححه وأبو نصر السجزي في الإبانة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم... وعن الطبراني عن عمر بن أبي سلمة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعبد الله بن مسعود... إلخ. وعن ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود... إلخ. وعن البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أعربوا القرآن واتبعوا غرائبه وغرائبه فرائضه وحدوده، فإن القرآن نزل على خمسة أوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال) انتهى. وقال السيوطي في الإتقان ص ١٧٠ وهو يعدد الأربعين وجها التي توصل إليها علماء السنة في تفسير الأحرف السبعة: (الحادي

عشر: أن المراد سبعة أصناف، والأحاديث السابقة ترده، والقائلون به اختلفوا في تعيين السبعة فقيل: أمر ونهي وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، واحتجوا بما أخرجه الحاكم والبيهقي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر وآمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه، وأمثال.... وقصده بالأحاديث السابقة التي ترد هذا الوجه: أحاديث الخليفة عمر التي تنص على أن السبعة أحرف تقصد ألفاظ القرآن لا معانيه ! وبهذا يكون السيوطي وقف إلى صف الذين أقفلوا باب الحل المعقول لورطة الأحرف السبعة ! وقال في ص ١٧٢ السادس عشر: إن المراد بها سبعة علوم: علم الإنشاد والإيجاد، وعلم التوحيد والتنزيه، وعلم صفات الذات، وعلم صفات الفعل، وعلم العفو والعذاب، وعلم الحشر والحساب، وعلم النبوات. ولا بد أنه يرد هذا الوجه أيضا، لأن حديث الخليفة ينص على أن المقصود بالسبعة الألفاظ لا المعاني ! وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٧ ص ١٥٢ وعن عبد الله يعني ابن مسعود أن النبي ﷺ قال أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن... الخ. رواه البزار وأبو يعلى في الكبير وفي رواية عنده لكل حرف منها بطن وظهر، والطبراني في الأوسط باختصار آخره ورجال أحدهما ثقات. ورواية البزار عنه محمد بن عجلان عن أبي إسحق قال في آخرها لم يرو محمد بن عجلان عن إبراهيم الهجري غير هذا الحديث، قلت ومحمد بن عجلان إنما روى عن أبي إسحاق السبيعي فإن كان هو أبو إسحاق السبيعي فرجال البزار أيضا ثقات[١].

(١) لمزيد بيان راجع: البيان في تفسير القرآن- السيد الخوئي ص ١٨٣، وتدوين القرآن، الشيخ الكوراني.

الدرس الرابع عشر:

القرآن مكي ومدني

يُبحث هذا المبحث في علوم القرآن على أسس مسألة التصنيف والتفريق بين ما هو مكي وما هو مدني في القرآن الكريم؟وبحث هذه المسألة (المكي والمدني في القرآن) من الأهمية بمكان بالنسبة لعلماء التفسير لكي يمكنهم التوصل إلى الحق والصواب عبر الارتباط بكتاب الله تعالى.

قال أبو القاسم بن الحسن النيسابوري في كتابه (التنبيه على فضل علوم القرآن): من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني المكي، وما بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف وبالحديبية، وما نزل ليلاً، وما نزل نهاراً، وما نزل مشيعاً، وما نزل مفرداً، والآيات المدنية في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل إلى الحبشة، وما نزل مجملا، وما نزل مفسراً وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مكي، فهذه خمسة عشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها، لم يحل له أن يتكلم في

كتاب الله تعالى[١].

ولأهمية معرفة المكي والمدني من القرآن الكريم اهتم بهما علماء التفسير وبحثوه في مطالب متعددة، ونحن هنا بدورنا نتحدث عنها إجمالا ونوكل التفصيل للقاري والباحث عنها في مضانها العلمية.

تعريف المكي والمدني:

ولوقوف على حقيقة المكي والمدني نشير إلى ما ذكره صاحب الإتقان في كتابه إذا قال: اعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة، أشهرها:

الأول: أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أو نزل بالمدينة.

الثاني: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة.

الثالث: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة[٢].

ولعل هذه الآراء بحاجة إلى مزيد بيان.فنقول:

اصطلاح العلماء على المكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان نزوله بغير مكة ويدخل فيه ما نزل على النبي ﷺ في سفرة الهجرة الشريفة.

والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بغير المدينة ويدخل فيه ما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد الهجرة كسورة الفتح فقد نزلت على النبي ﷺ

---

(١) الإتقان:ج ١ ص٨ ط الأولى.

(٢) الإتقان: مصدر سابق.

عند منصرفه من الحديبية.

وأما الاصطلاح الثاني: فهو أن المكي ما نزل بمكة ويدخل ضواحيها كالمنزل عليه بمنى وعرفات والحديبية.

والمدني: ما نزل بالمدينة ويدخل في المدينة ضواحيها كالمنزل عليه ببدر وأحد و، وهذا الاصطلاح لوحظ فيه المكان، ويرد على هذا التعريف أنه غير حاضر لأنه يثبت الواسطة فما نزل عليه بالأسفار لا يسمى مكيا ولا مدنيا وذلك ما نزل بتبوك وهو قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**﴾، ومثل آية التيمم التي في سورة النساء فأنها نزلت عليه ﷺ في بعض أسفاره(١).

وأما الثالث فهو أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني، ما وقع خطابا لأهل المدينة، ويحمل على هذا ما نقل عن ابن مسعود أنه قال: ما كان في القرآن -يا أيها الذين أمنوا- أُنزل بالمدينة، وما كان فيه -يا أيها الناس- نزل بمكة، وهذا الاصطلاح لوحظ فيه المخاطب ويرد على هذا الرأي أن التقسيم عليه غير حاصر فهناك آيات كثيرة جداً في القرآن الكريم ليس فيها يا أيها الناس، ولا يا أيها الذين آمنوا، كما يرد عليه أنه غير مطرد إذ هو منقوض بسورة البقرة المدينة، وفيها يا أيها الناس اعبدو ربكم، وبسورة النساء المدنية ومفتتحها: يا أيها الناس اتقوا ربكم، وبسورة الحج فإنها مكية عند جماعة من علماء التفسير وآخرها: يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم.

خصائص المكي والمدني:

ومجمل القول: أن علماء التفسير، خرجوا من دراستهم المقارنة باكتشاف خصائص عامة في السور والآيات المكية، وخصائص عامة أخرى

---

(١) لإتقان مصدر سابق.

في المدني من الآيات والسور فجعلوا من تلك الخصائص العامة مقاييس يقيسون بها سائر الآيات والسور التي لم يؤثر توقيتها الزمني في الروايات والنصوص، فما كان منها يتفق مع الخصائص العامة للآيات والسور المكية حكموا بأنه مكي، وما كان اقرب إلى الخصائص العامة للمدني وأكثر انسجاما معها أدرجوه ضمن المدني من الآيات بالسور. وهذه الخصائص العامة التي حددت المكي والمدني بعضها يرتبط بأسلوب الآية والسورة، كقولهم: إن قصر الآيات والسور وتجانسها الصوتي من خصائص القسم المكي، وبعضها يرتبط بموضوع ومضمون النص القرآني، كقولهم مثلا: إن مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم من خصائص السور المكية، ومحاورة أهل الكتاب من خصائص السور المدينة. ويمكن تلخيص ما ذكروه من الخصائص الأسلوبية والموضوعية للقسم المكي فيما يأتي:

١- قصر الآيات والسور وإيجازها وتجانسها الصوتي.
٢- الدعوة إلى أصول الإيمان بالله والوحي وعالم الغيب واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار.
٣- الدعوة للتمسك بالأخلاق الكريمة والاستقامة على الخير.
٤- مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.
٥- استعمال السورة لكلمة ﴿**يا أيها الناس**﴾ وعدم استعمالها لكلمة﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾. وقد لوحظ أن سورة الحج تستثنى من ذلك لأنها استعملت الكلمة الثانية، بالرغم من أنها مكية، فهذه الخصائص الخمس يغلب وجودها في السور المكية.

وأما ما يشيع في القسم المدني من خصائص عامة فهي:

١- طول السورة والآية وإطنابها.
٢- تفضيل البراهين والأدلة على الحقائق الدينية.
٣- مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلو في دينهم.

٤- التحدث عن المنافقين ومشاكلهم.
٥- التفصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين السياسية والاجتماعية والدولية.

وإن كان بعض المتخصصين جعل الأساس المكاني، والزماني، والشخصي علامات أخرى لمعرفة المكي من المدني في القرآن وهذه الآراء عليها ما عليها، سوف نناقشها في البحوث القادمة إنشاء الله تعالى.

مصادر معرفة المكي والمدني:

اعتمد أكثر الباحثين في التميز بين مكي القرآن ومدنيه على الروايات والنصوص المنقولة التي تؤرخ السورة أو الآية، أو تشير إلى زمن نزولها أو مكانها، وعلى الأحداث التاريخية المهمة التي عاصرت النزول، أو كان النزول بسببها، وهذا ما سلكه المستشرق الألماني (نولد كه) في بحثه عن تاريخ القرآن الكريم.

ثم عكفوا على دراسة ما عرفوا من مكي القرآن ومدنية بالطريقة السابقة فاستطاعوا أن يتعرفوا على خصائص شائعة غالبة في المكي، وأُخرى في المدني تمكنوا عن طريقها من معرفة وتمييز عدد كبير من السور والآيات وصنفوها إلى مكي ومدني، ودونوها في كتب المصاحف والتفاسير، وأصبحت هذه الكتب من مصادر معرفة المكي، والمدني أيضا.

وبهذا تكونت طريقتان لمعرفة المكي والمدني: هما:

الطريقة الاستقرائية: والتي يطلق عليها السماعية، وهي النقل الصحيح عن الصحابة الأجلاء أو التابعين بأن سورة كذا أو آية كذا نزلت بمكة أو المدينة وقبل الهجرة أو بعدها.

الطريقة الاستنباطية (أو القياسية) فضوابطها كلية لمعرفة كل منها

وهذه الضوابط مبناها على التتبع والاستقراء المبني على الغالب والكثير، فالذين اتبعوا طريقة الاستقراء توقفوا عند الروايات والنصوص والأحداث التي تشير أو تؤرخ السور والآيات، فيعرف المكي منها والمدني، أما الذين اتبعوا طريقة الاستنباط، فقد استندوا على ما تعرفوا عليه من خصائص للمكي والمدني من حيث أسلوب وموضوعات السور والآيات، ثم ميزوا بينها بناء على اجتهادهم.

ولعل أرجح الطريقتين: هو الجمع الذي ذهب إليه بعض المتخصصين في الشؤون القرآنية بقوله: أن الجمع بين الاستقراء والاستنباط، فإنه بهذا الجمع تكون النتائج أقرب إلى العلم، وأبعد عن الظن والتخمين إذ أن الطريقة الاستقرائية عاجزة تقريباً عن تمييز كثير من السورة والآيات المكية لفقدانها الاستنباطية طريقة قياسية أو تخمينية، فالخصائص المستنبطة إنما هي غالبة، وليست قطعية خاصة بالمكي أو المدني، لذا رجح منهج الجمع بين السماع والقياس في التمييز(١).

شبهات حول المكي والمدني:

هناك سبع شبهات تدور حول المكي والمدني، وهي تدعم الفكرة القائلة: إن القرآن من صنع بشرية محمد ﷺ!!- ومما يؤسف له حقا- أن ترى بعض الذي تسموا بأسماء المسلمين، وتربوا بفكر الحضارة الغربية ينشرون أباطيلهم حول القرآن الكريم في سوق العامة من الناس الذي لا يمتلكون أدنى فكرة ومعرفة عن القرآن وعلومه وخصائصه، وليس لهم من حظ العلم أو اللغة نصيبا، فراحت شُبهاتهم تنتشر كانتشار النار في الهشيم، مما جعل الجيل الناشئ يتخبط في عقيدته وأفكاره عن القرآن الكريم!

---

(١) انظر: موجز علوم القرآن، العطار مصدر سابق، ص١٣٨.

ولعل من أوائل تلكم الشبهات ما أثارها بعض المستشرقين، المتأروبين عن القرآن بخصوص المكي والمدني، الشبهة الواهية قائلة:

الشبهة الأولى: إن القسم المكي يمتاز بتقطع الفكرة:

واقتضاب المعاني، وقصر السور وقصر الآيات، وأما القسم المدني فهو طويل السور طويل الآيات وأفكاره منسجمة متسلسلة، وعزا ذلك إلى تأثر محمد ﷺ بالبيئة فأهل مكة قوم أميون لا يقدرون على إنشاء العبارات الطويلة أما أهل المدينة فهم أهل كتاب أو متصلون بأهل الكتاب لهم قدرة على إنشاء العبارات الطويلة، وغرضه التشكيك في أن القرآن من عند الله تعالى.

جواب الشبهة:

ولكي يتضح الباحث، والقارئ، وهن هذه الشبهة، نقول اولاً:

إن القول بأن القسم المكي يمتاز بتقطع الفكرة واقتضاب المعاني بخلاف القسم المدني قول من لم يتمعن في القرآن ولم يعتني بدراسته دراسة دقيقة، ومن يرسل القول على عواهنة، ولم يأخذ من اللغة العربية وأسرارها وآدابها بحظ وافر، أما من قرأ القرآن وتدبر معانية ووقف على حقائقه، فإنه يصل إلى أن القرآن الكريم كعقد منظم تناسبت حباته، وتآلفت لآلئه ونظم في سلك من الذهب الخالص والقرآن كله، مكية ومدنيه، ومعانية متآلفة وأفكاره منسجمة.

أن طول الكلام وقصره تابع لمقتضى الحال الذي هو عماد البلاغة العربية، وليس تابعاً للبيئة ولا الوسط وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون بعض السور طويلة وبعضها قصير بالخصوص السور المكية، والتي جاءت تتحدث عن أُسس العقيدة الإسلامية من أصول وفروع، وهذا يقتضي الإيجاز لا الإطناب.

القرآن الكريم قد تحدى العرب قاطبة في بعض السور المدينة كما تحداهم في السور المكية، وقد جاء التحدي في المدينة بسورة مهما كانت قصيرة، وأما في مكة فقد وقع التحدي بالقرآن كله ثم بعشر سور منه ثم بسورة واحدة أي سورة، فلو أن أهل المدينة- كما يزعم صاحب الشبهة- كانوا أقدر على إنشاء العبارات الطويلة من أهل مكة وأن القرآن كان متأثرا بهم في الإطالة لكانوا أقدر على معارضة والإتيان، ولو بأقصر سورة منه، ولكنهم لم يتمكنوا من أن يأتوا بآية فضلا عن سورة!!

الشبهة الثانية: عنف الخطاب المكي، ولين الخطاب المدني:

وتلوح في بعض الآيات المكية، أن ثقافتها مشوبة بالعنف، خلاف الخطاب القرآني في ثقافة أهل المدينة تره لين العبارة، مثاله قوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**﴾[2]

جواب الشبهة الثانية:

إن الخطاب عندما يصدر من العاقل لا بد أن يكون مدروسا، ويكون المخاطب على معرفة تامة بالمخاطَب، فالله تبارك وتعالى يعلم أن أهل مكة كانوا قساة وأهل كفر وإلحاد، وأطفت عليهم الصحراء بعض خشونتها، فكان السياق القرآني المكي يمزج بين القسوة واللين وهذا من أساليب التربية التي استخدمها القرآن الكريم بحسب معرفة الله بعبادته.

ودعوا أن القسم المكي أشتمل على الوعيد والشدة دون القسم المدني دعوى من لم يطلع على القرآن الكريم أو اطلع ولكن أعمته عصبيته عن إدراك

(١) سورة المسد، آية ١.

(٢) سورة الفجر، آية ١٣.

الحقائق، فالقسم المدني أشتمل أيضا على الوعيد والإنذار كما أن القسم المكي أشتمل على الدعوة إلى اللين والعفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان.

ففي سورة البقرة المدينة الآية ١٧٤ قوله تعالى في خطاب فيها شدة وغلضه على الذين يأكلون أموالهم بالباطل قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[١]

وفي سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**﴾[٢]

الشبهة الثالثة: ضعف الأسلوب الجدلي في القسم المكي:

إن القسم المكي يمتاز بالهروب من ساحة الجدل والحوار، ويخلو منه برهان المنطق!

وجواب الشبهة الثالثة:

هذا الكلام منقوض بعدة أمور هي:

إن القارئ للقرآن الكريم، يرى أن الآيات والسور التي جاءت بخطاب الجدل وبراعة المنطق وقوة البرهان هي السور والآيات المكية، باعتبارها نزلت على قوم لا يؤمنون بالله ولا برسالة ولا بنبي، فكانت تجادلهم بالتي هي أحسن من أجل دخولهم بطرق سليمة في الإسلام.

وثانياً أن السور المكية هي السور التي جاءت بصيغة الخطاب الجدلي

---

(١) سورة البقرة، آية ١٧٤.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠.

الكلامي، لأنها نزلت لتدعيم أُسس العقيدة الإسلامية من التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد، وهذا يقتضي براعة الأسلوب الجدلي الكلامي.

أن في السور المكية لتريك أنها استفاضت بالأدلة والبراهين القطعية، اقرأ إن شئت في إثبات الإله قوله تعالى في سورة الغاشية ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾[1] وقوله تعالى في سورة النحل:﴿**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾[2] وانظر في سورة الأنبياء كيف يعرض القرآن البراهينَ المنطقية في قوله تعالى ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[3].

الشبهة الرابعة: خلو الخطاب المكي من التشريعات والقوانين:

قالوا: أن القسم المكي خالٍ من التشريعات التفصيلية والقوانين، أما القسم المدني فينفرد بالتشريعات الإسلامية بالخصوص أحكام المواريث، والوصايا، والنكاح، والطلاق، والبيوع والمعاملات، وهذا من جراء اختلاط المدنيين باليهود والنصارى!!

وجواب الشبهة الرابعة:

قلنا في الجواب على بعض الشبهات السابقة، أن أهل مكة لا يمتلكون أدنى معلومة عن الإسلام، وخصوصا أصوله الدينية، فلا يعقل أن تطرح لهم مفاهيمه التشريعية من أحكام البيوع والمعاملات والنكاح والإرث، وهم بعد لم يتعرفوا على أُسسه الحقة والتي تبني عليها تلك التشريعات،

---

(١) سورة الغاشية، آية ١٧.

(٢) سورة النمل، آية ٦٠.

(٣) سورة الأنبياء، آية ٢٢.

فالإسلام حكيم، فبعد أن يُرسى قواعد الأصول الدينية وثوابتها في عقلية الإنسان المسلم، من ثم يتحدث له عن تشريعات الأحكام وعللها، لذلك أصبح من السفاهة بمكان أن تأتي لهم بالفروع والأحكام العملية قبل أن يؤمنوا بالأصول، فكان نهج القرآن معهم هو الملائم للفطرة وبداءة العقول

ومن الملاحظ أن القسم المكي لم يهمل جانب التشريع، وإنما تناول أصوله العامة وجملة مقاصد الدين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ...**﴾(١) كما طرحت من خلاله مجمل النظريات والتصورات القرآنية حول الكون والحياة والمجتمع والإنسان؛ إضافة إلى أننا نجد في القسم المكي، وفي سورة الأنعام بالخصوص مناقشة لكثير من تشريعات أهل الكتاب والتزاماتهم، وهذا يدل على معرفة القرآن الكريم بهذه التشريعات وغيرها مسبقا

وثانيا: إن هذه الظاهرة يمكن أن نطرح في تفسيرها نظرية أخرى تنسجم مع الأساس الموضوعي لوجود الظاهرة القرآنية نفسها، وهذه النظرية هي أن يقال: إن الحديث عن تفاصيل التشريع في مكة كان شيئا سابقا لأوانه، حيث لم يستلم الإسلام حينذاك زمام الحكم بعد، بينما الأمر في المدينة على العكس، فلم يتناول القسم المكي تفاصيل التشريع، لان ذلك لا يتفق مع المرحلة التي تمر بها الدعوة، وإنما تتناول الجوانب الأخرى التي تنسجم مع الموقف العام(٢).

---

(١) سورة الانعام: ١٥١، ١٥٢.

(٢) الحكيم: المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن ص٧٢.

الشبهة الخامسة:

إن القسم المكي يكثر فيه القسم، مثاله: قسم الله بالضحى، والشمس، والقمر، والنجوم، والفجر، والعصر، والليل، والنهار، والتين، والزيتون إلى أخر ما هو متلائم مع البيئة الجاهلية التي كانوا عليها أهل مكة، أما القسم الثاني فقد خلا من القسم بهذه المحسوسات.

وجواب الشبهة الخامسة:

المتصفح لتاريخ العرب قبل الإسلام يرى أنهم تميزوا على أهل مكة بكثير من المميزات، بالخصوص براعتهم في اللغة العربية نحواً وصرفاً وبلاغة (اللسانيات) وطباً، والفراسة وغيرها الكثير.

وأن فيما قصه القرآن عنهم من مجادلات وخصومات ما أشتمل عليه القسم المكي من إيجاز وبراهين ما ينقض هذا الاتهام، وكيف يفهم هذه البراهين من لا يسمو نظره عن المحسوسات والتأريخ الصحيح اعدل حاكم وخير شاهد على امتياز قريش عن سائر القبائل.

وإن الله سبحانه أقسم في القسم المكي بالمعول كما أقسم بالمحسوسات فمن ذلك قسمه قي قوله تعالى:﴿**يس وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ**﴾ وأقسم بالملائكة في قوله تعالى:﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَالهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ وأقسم بحياة الرسول في قوله تعالى:﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ وأقسم بذاته في قوله تعالى:﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ**﴾ وأقسم بما لا يقع تحت الحس والمشاهدة فقال: ﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ**﴾.

هذه بعض الشبهات التي أثارها بعض المتعجرفين من المستشرقين والمتأروبين حول القرآن الكريم بخصوص(المكي والمدني) فأجملناها إجمالا خوفا من الإطناب، فمن أراد أن يتعرف على المزيد منها على سبيل التفصيل

نحيله للمصادر التي اعتمدناها في هذه الدراسة[١].

القول الفصل في المكي والمدني:

والحقيقة أن القرآن الكريم في سوره البالغ عددها بـ(١١٤ سورة) وفي آياته البالغ عددها بـ(٦٢٣٦ آية على أشهر الروايات) وفي عدد أجزائه الكريمة البالغ عدده بـ(٣٠ جزءاً) وفي عدد أحزابه الكريمة البالغ عدده بـ(١٢٠ حزباً) وفي عدد كلماته الكريمة البالغ عددها بـ(٧٧٨٠٧ كلمة) وفي عدد حروفه الشريفة البالغ عددها بـ(٣٢٣٦٧١ حرفاً مباركا)، وبسوره المكية البالغ عددها بـ(٨٦ سورة مكية) وبعدد سوره المدينة البالغ عددها بـ(٢٨ سورة مدنية) يتضح لنا أنه يحتوي على سور مكية بذلك العدد بـ(٨٦ سورة) وبالمدينة البالغ عددها بـ(٢٨ سورة مدنية) أن القرآن آياته تقسم إلى التالي:

١١٤ سورة تنقسم إلى مكية منها (٨٦ سورة مكية) و(٢٨ سورة مدنية)، وكل سورة تقتضي الحكمة الإلهية أن تُمزج السورة بآيات مدنية وآيات مكية، فتكون النتيجة كالتالي:

١- سورة مكية يتخللها بعض الآيات تكون مدنية = سورة مكية آياته بين المكي + المدني = سورة مزجت آياتها بين المكي والمدني وإن كانت السورة مكية النزول في الأصل.

٢- سورة مدنية يتخللها بعض الآيات المكية= سورة مدنية آياتها بين المدني +المكي= سورة مدنية مُزجت آياتها ببعض المكي وإن كانت نزولها مدني.

---

(١) السيد الحكيم قدس سره في كتابه المستشرقون والقرآن، والدكتور، محمد محمود أبو شهبه، في كتابه المدخل لدراسة القرآن الكريم. فراجعهما.

ما هي السور المكية والمدنية؟

لعل الدخول في هذا البحث يقودنا إلى بحث عميق يتطلب منا بحثه في كتاب مستقل، لأنه يقودنا إلى مسألة تدوين القرآن وجمعه، وهذا سنناقشه بشكل مجمل في البحوث القادمة إن شاء الله تعالى، كما أن الحديث عن هذه المسألة (السور المكية والمدنية) يقودنا أيضا للحديث عن ترتيب المصحف الشريف والقول الفصل فيه، ونزاع المؤرخين والباحثين حوله.

ولكن نمرر بذكر ما اتفق عليه من السور أنها مكية ومدنية ونرجئ البحث حولها في الفصل القادم عن ترتيب آيات وسور القرآن الكريم تحليل وتدقيق، طمعاً في إثراء بحثنا حول كل ما له صلة بـ(علوم القرآن الكريم).

وننقل هنا ما نقل عن بعض الأصحاب، فنقول: روى السيوطي في الإتقان عن فضائل القرآن لابن الضريس بسند ذكره عن ابن عباس قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما أنزل من القرآن «اقرأ باسم ربك» ثم «ن» ثم «يا أيها المزمل» ثم «يا أيها المدثر» ثم «تبت يدا أبي لهب» ثم «إذا الشمس كورت» ثم «سبح اسم ربك الأعلى» ثم «والليل إذا يغشى» ثم «والفجر» ثم «والضحى» ثم «ألم نشرح» ثم «والعصر» ثم «والعاديات» ثم «إنا أعطيناك» ثم «ألهاكم التكاثر» ثم «أرأيت الذي يكذب» ثم «قل يا أيها الكافرون» ثم «ألم تر كيف فعل ربك» ثم «قل أعوذ برب الفلق» ثم «قل أعوذ برب الناس» ثم «قل هو الله أحد» ثم «والنجم» ثم «عبس» ثم «إنا أنزلناه في ليلة القدر» ثم «والشمس وضحاها» ثم «والسماء ذات البروج» ثم «والتين» ثم «لإيلاف قريش» ثم «القارعة» ثم «لا اقسم بيوم القيامة» ثم «ويل لكل همزة» ثم «والمرسلات» ثم «ق» ثم «لا اقسم بهذا البلد» ثم «والسماء والطارق» ثم «اقتربت الساعة» ثم «ص» ثم «الأعراف» ثم «قل اوحي» ثم «يس» ثم

«الفرقان» ثم «الملائكة» ثم «كهيعص» ثم «طه» ثم «الواقعة» ثم «طسم الشعراء» ثم «طس» ثم «القصص» ثم «بني إسرائيل» ثم «يونس» ثم «هود» ثم «يوسف» ثم «الحجر» ثم «الأنعام» ثم «الصافات» ثم «لقمان» ثم «سبأ» ثم «الزمر» ثم «حم» ثم «المؤمن» ثم «حم السجدة» ثم «حم عسق» ثم «حم الزخرف» ثم «الدخان» ثم «الجاثية» ثم «الأحقاف» ثم «الذاريات» ثم «الغاشية» ثم «الكهف» ثم «النحل» ثم «إنا أرسلنا نوحا» ثم «سورة إبراهيم» ثم «الأنبياء» ثم «المؤمنون» ثم «تنزيل السجدة» ثم «الطور» ثم «تبارك الملك» ثم «الحاقة» ثم «سأل» ثم «عم يتساءلون» ثم «النازعات» ثم «إذا السماء انفطرت» ثم «إذا السماء انشقت» ثم «الروم» ثم «العنكبوت» ثم «ويل للمطففين». فهذا ما أنزل الله بمكة. ثم أنزل بالمدينة «سورة البقرة» ثم «الأنفال» ثم «آل عمران» ثم «الأحزاب» ثم «الممتحنة» ثم «النساء» ثم «إذا زلزلت» ثم «الحديد» ثم «القتال» ثم «الرعد» ثم «الرحمن» ثم «الإنسان» ثم «الطلاق» ثم «لم يكن» ثم «الحشر» ثم «إذا جاء نصر الله» ثم «النور» ثم «الحج» ثم «المنافقون» ثم «المجادلة» ثم «الحجرات» ثم «التحريم» ثم «الجمعة» ثم «التغابن» ثم «الصف» ثم «الفتح» ثم «المائدة» ثم «براءة»[١]. وهذا الحديث كما تراه قد سقطت منه سورة الفاتحة مع أنها أول سورة نزلت بمكة على ما نقل في الإتقان عن الكشاف عن أكثر المفسرين. ونقل أيضا عن جابر بن زيد أن أول ما نزل بمكة اقرأ باسم ربك - إلى أن قال: - ثم يا أيها المدثر، ثم الفاتحة... الخ[٢].

قال السيد مير محمدي زرندي في كتابه بحوث في تاريخ القرآن ص ٢٩٦:

... ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى أن الأمين الطبرسي قد روى حديث ابن عباس الآنف في مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٠٥. لكنه قدس سره قد اشتبه وعد

(١) الإتقان: ج ١ ص ١١.

(٢) الإتقان مصدر سابق.

سورة القمر وسورة اقتربت سورتين، مع أنهما واحدة، ويمكن ذلك الاشتباه من الناسخ، ويؤيده قوله فيما بعد: وهي خمس وثمانون سورة، فإنه لو فرض تعدد السورة عنده بتعدد الاسمين لصار عدد السور عنده ستا وثمانين سورة، كما أن ابن النديم قد أورد رواية ابن عباس المذكورة في فهرسته[1].

مزج المكي بالمدني والمدني بالمكي:

بل أن الملاحظ أن القرآن الكريم في سوره البالغ عددها (١١٤) سورة امتزجت بعض الآيات المكية بالمدنية والعكس أيضاً. وقد أشار لهذه الحقيقة الزركشي، صاحب كتاب البرهان - ج ١ ص ١٩٥ فقال:

ما نزل بمكة وحكمه مدني منها قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ**﴾ الآية ولها قصة يطول بذكرها الكتاب ونزولها بمكة يوم فتحها وهى مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة ومنها قوله في المائدة اليوم أكملت لكم دينكم إلى قوله الخاسرين نزلت يوم الجمعة والناس وقوف بعرفات فبركت ناقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من هيبة القرآن وهى مدنية لنزولها بعد الهجرة وهى عدة آيات يطول ذكرها ذكر ما نزل بالمدينة وحكمه مكي منه الممتحنة إلى آخرها وهى قصة حاطب بن أبى بلتعة وسارة والكتاب الذي دفعة إليها وقصتها مشهورة فخاطب بها أهل مكة ومنها قوله تعالى في سورة النحل والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا إلى آخر السورة مدنيات يخاطب بها أهل مكة ومنها سورة الرعد يخاطب أهل مكة وهى مدنية ومن أول براءة إلى قوله إنما المشركون نجس خطاب لمشركي مكة وهى مدنية فهذا من جملة ما نزل بمكة في أهل المدينة وحكمه مدني وما أنزل في أهل مكة وحكمه مكي ما يشبه تنزيل المدينة في السور المكية من ذلك

(١) مير محمدي زرندي: بحوث في تاريخ القرآن ص ٢٩٦.

قوله تعالى في النجم الذين يجتنبون كبائر الإثم يعنى كل ذنب عاقبته النار والفواحش يعنى كل ذنب فيه حد إلا اللمم وهو بين الحدين من الذنوب نزلت في نبهان والمرأة التي راودها عن نفسها فأبت والقصة مشهورة واستقرت الرواية بما قلنا والدليل على صحته أنه لم يكن بمكة حد ولا غزو ومنها قوله تعالى في هود وأقم الصلاة طرفي النهار الآية نزلت في أبى مقبل ا لحسين بن عمر بن قيس والمرأة التي اشترت منه التمر فراودها ما يشبه تنزيل مكة في السور المدنية من ذلك قوله تعالى في الأنبياء لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا نزلت في نصارى نجران ومنهم السيد والعاقب ومنها سورة والعاديات ضبحا في رواية الحسين بن واقد وقصتها مشهورة ومنها قوله تعالى في الأنفال وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق الآية ما نزل بالجحفة قوله عز وجل في سورة القصص إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد نزلت بالجحفة والنبي ﷺ مهاجر ما نزل ببيت المقدس قوله تعالى في الزخرف واسأل من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون نزلت عليه ليلة أسرى به ما نزل بالطائف قوله تعالى في الفرقان ألم تر إلى ربك كيف مد الظل الآية ولذلك قصة عجيبة وقوله في إذا السماء انشقت بل الذين كفروا يكذبون والله أعلم بما يوعدون فبشرهم بعذاب أليم يعنى كفار مكة ما نزل بالحديبية قوله تعالى في الرعد وهم يكفرون بالرحمن نزلت بالحديبية حين صالح النبي ﷺ أهل مكة فقال رسول ﷺ لعلي عليه السلام اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل بن عمرو ما نعرف الرحمن الرحيم ولو نعلم أنك رسول الله لتابعناك فأنزل الله تعالى ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**﴾ إلى قوله تعالى في أول سورة الحج ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ نزلت ليلا في غزوة بن المصطلق وهم حي من خزاعة والناس يسيرون وقوله تعالى في المائدة والله يعصمك من الناس نزلت في بعض غزوات رسول الله ﷺ وذلك أن النبي ﷺ كان يحرس كل ليلة رسول

قال عبد الله بن عامر بن ربيعة قال رسول الله ﷺ من يحرسنا الليلة فأتاه حذيفة وسعد في آخرين معهم الحجف والسيوف وكان رسول الله ﷺ في خيمة من أدم فباتوا على باب الخيمة فلما أن كان بعد هزيع من الليل أنزل الله عليه الآية فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من الخيمة فقال يأيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله ومنها..(١)

(١) الزركشي: البرهان ج ١ ص ١٩٥.

الدرس الخامس عشر:

ترتيب سور وآيات القرآن الكريم

سنناقش في هذا الدرس عدة أمور لها علاقة بمبحث علوم القرآن الكريم، وتنحصر -هذه المناقشة- تعريف الآية والسورة تعريفاً لغوياً، واصطلاحياً، وبعض الفوائد المرجوة من ذلك، وعلاقة ذلك بما اصطلح عليه العلماء بـ(ترتيب السور القرآنية) وهذا يتطلب من الباحث اللبيب كتابا مفصلا مستقلا، لأنه من المباحث التي أطال علماء التفسير فيها الكلام وكثر فيها الاجتهاد بالرأي، فحين أننا نجزم جزماً تاماً أن ترتيب الآيات والسور القرآنية قد تدخل فيه رسول الله ﷺ مباشرة بعد نزول القرآن على قلبه الشريف، وسوف نعرف مزيد بيان في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

الآية لغة واصطلاحا:

جاءت الآية في اللغة بمعانٍ مختلفة منها: العلامة والعجب والجماعة. ومنه قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[1] أي علامة ملكه، وبمعنى العبرة ومنه قوله

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٤٨.

تعالى:﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**﴾(١) أي بمعنى عبرة لمن بعدهم.

ويأتي لفظ (آية) في القرآن كثيرا وفي سور وآيات قرآنية كثيرة، وكل منها تحمل دلالة لغوية عميقة، وإن كان هناك حصرا لتعريفها اللغوي في ثلاث أمور هي:

١- أحدها جماعة الحروف قال أبو عمرو الشيباني تقول العرب خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم.

٢- ثانيها الآية العجب تقول العرب فلان آية في العلم وفى الجمال قال الشاعر: آية في الجمال ليس له في الـ حسن شبه وما له من نظير.

فكأن كل آية عجب في نظمها والمعاني المودعة فيها.

ثالثها العلامة تقول العرب خربت دار فلان وما بقى فيها آية أي علامة فكأن كل آية في القرآن علامة ودلالة على نبوة محمد ﷺ واختلف في وزنها فقال سيبويه فعلة بفتح العين وأصلها أيية تحركت الياء وانفتح ما قبلها فجاءت آية وقال الكسائي أصلها آيية على وزن فاعلة حذفت الياء الأولى مخافة أن يلتزم فيها من الإدغام ما لزم في دابة(٢).

وقد عرفت مقاطع من القرآن بالآيات مع أنها أكثر من جملة، منها:

آية الكرسي: وهي الآيات من ٢٥٥ إلى ٢٥٧ من سورة البقرة. في قوله تعالى: ﴿**اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**

(١) سورة الشعراء، آية ٨.

(٢) الزركشي مصدر سابق.

وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١]

آية التسخير: وهي من الآيات من ٥٤ إلى ٥٦ من سورة الأعراف. في قوله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]

آية النبأ: وهي آية في سورة الحجرات آية ٦ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[٣].

آية التطهير: وهي آية في سورة الأحزاب آية ٣٣. في قوله تعالى:﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٤]

آية النفر: وهي آية في سورة التوبة آية ١٢٢ في قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٥]

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٧.

(٢) سورة الأعراف، آية ٥٤.

(٣) سورة الحجرات، آية ٦.

(٤) سورة الأحزاب، آية ٣٣.

(٥) سورة التوبة، آية ١٢٢.

آية المباهلة: وهي الآية٦١ من سورة آل عمران في قوله تعالى:﴿**فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ**﴾[١]

ولعل المتتبع لسور القرآن الكريم يرى أن هناك كثيراً من الآيات اصطلح عليها آية كذا، لوجود بعض أسباب النزول، أو الحوادث التي نزلت في تلك الآية الكريمة، أو إخبار من المعصوم نفسه، كما جاء في آية الكرسي. فعن الإمام الباقر عليه السلام قال: من قرأ آية الكرسي مرةً صرف عنه ألف مكروه من مكروه الدنيا وألف مكروه من مكروه الآخرة، أيسر مكروه الدنيا الفقر، وأيسر مكروه الآخرة عذاب القبر[٢].

الآية اصطلاحا:

وأما في الاصطلاح فقال الجعبرى في كتابه المفرد في معرفة العدد في القرآن ج٢ ص ١٥٤: إن القرآن مركب من جمل ولو تقديرا ذو مبدأ ومقطع مندرج في سورة وأصلها العلامة ومنه إن آية ملكه لأنها علامة للفضل والصدق أو الجماعة لأنها جماعة كلمة وقال غيره الآية طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ليس بينها شبه بها سواها وقيل هي الواحدة من المعدودات في السور سميت به لأنها علامة على صدق من أتى بها وعلى عجز المتحدي بها وقيل لأنها علامة انقطاع ما قبلها من الكلام وانقطاعها عما بعدها، قال الواحدي وبعض أصحابنا: يجوز على هذا القول تسمية أقل من الآية آية لولا أن التوقيف ورد بما هي عليه الآن وقال ابن المنير في البحر ليس في القرآن كلمة واحدة آية إلا مدهامتان وقال بعضهم الصحيح أنها إنما تعلم

(١) سورة آل عمران، آية ٦١.

(٢) البحار: ج٩٢ ص٢٦٢

بتوقيف من الشارع لا مجال للقياس فيه كمعرفة السورة فالآية طائفة حروف من القرآن علم بالتوقيف انقطاعها معنى عن الكلام الذي بعدها في أول القرآن وعن الكلام الذي قبلها في آخر القرآن وعن الكلام الذي قبلها والذي بعدها في غيرهما غير مشتمل على مثل ذلك قال وبهذا القيد خرجت السورة[1].

وقال الزمخشري الآيات علم توقيف لا مجال للقياس فيه فعدوا آلم آية حيث وقعت من السورة المفتتح بها وهى ست وكذلك المص آية وآلمر لم تعد آية وآلر ليست بآية في سورها الخمس وطسم آية في سورتيها وطه وآيتان وليست بآية وآية في سورها كلها حم وعسق آيتان وآية واحدة، هذا مذهب الكوفيين ومن عداهم لم يعدوا شيئا منها آية.

وقال بعضهم إنما عدوا آية ولم يعدوا لأن تشبه المفرد كقابيل في الزنة والحروف وتشبه الجملة من جهة أن أوله ياء وليس لنا مفرد أوله ياء وقال القاضي أبو بكر بن العربي ذكر النبي ﷺ أن الفاتحة سبع آيات وسورة الملك ثلاثون آية وصح أنه قرأ العشر لآيات الخواتيم من سورة آل عمران قال وتعديد الآي من مفصلات القرآن ومن آياته طويل وقصير ومنه ما ينقطع ومنه ما ينتهي إلى تمام الكلام ومنه ما يكون في أثنائه كقوله أنعمت عليهم على مذهب أهل المدينة فإنهم يعدونها آية وينبغي أن يعول في ذلك على فعل السلف وأما الكلمة فهي اللفظة الواحدة وقد تكون على حرفين مثل ما ولى وله ولك وقد تكون أكثر وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل ليستخلفنهم وأنلزمكموها وفأسقيناكموه وقد تكون الكلمة آية مثل والفجر والضحى والعصر وطه و في قول الكوفيين وعسق عندهم كلمتان وغيرهم لا يسمى هذه آيات بل يقول هذه فواتح لسور وقال أبو عمرو الدانى لا

---

(١) الإتقان مصدر سابق.

أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله في سورة الرحمن[(١)].

كما رأيت، أن هناك اتفاق بين المتخصصين في علوم القرآن على أن الآية لغة، واصطلاحاً تشير إلى (العلامة) إلا أنه هناك ثمة فرق في توجيهها، فالعلامة في التعريف اللغوي يُقصد به العلامة الدالة على عظمة الله تعالى من خلال النص القرآني في كل سورة وآية من القرآن الكريم.

وفي الاصطلاح (العلامة) تشير إلى أن كل آية في القرآن جاءت تدل على صدق رسول الله ﷺ وعلى عجز من تحداهم لذلك فهي دليل معجز، فالآية هي: أصغر الوحدات التي يتألف منها النص القرآني.

تعريف السورة:

وعندهم أن السورة هي: طائفة من آيات القرآن الكريم جمعت وضم بعضها إلى بعض حتى بلغت في الطول المقدار الذي أراده الله تعالى، وفي كل سورة بدئت بالبسملة إلا براءة.

ترتيب الآيات والسور القرآنية:

كما أنه يُناقش في هذا المبحث، ترتيب السور القرآنية والآيات الشريفة، وكما هو معروف أن القرآن نزل منجماً، ومع ذلك لم يكن على نحو تتابعها الخاص المدون في سور المصحف. فقد يفصل بين الآية وما بعدها من آيات السورة نفسها فاصل زمني يطول أو يقصر حسب الحكمة التشريعية الإلهية فتظل السورة طيلة هذه المدة مفتوحة بانتظار بقية آياتها، وخلال ذلك الفاصل الزمني قد تنزل آيات سورة أُخرى، حتى إذا اقتضت حكمة الله، وحاجة الناس إلى تكملة السورة الأولى نزلت بقية أو بعض آياتها، وهذا ما

(١) البرهان: الزركشي ج ١ ص ٢٦٦.

أكدته في البحوث والدروس السابقة في (نزول القرآن الكريم) وقلنا: أن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن منجما مقسطا حتى يداوي أدواء المجتمع بالهوينى، واللين، والصبر، وفي هذا جاءت الروايات تؤكد هذه الأطروحة للقرآن الكريم، إذ أنه أنزل الآيات التي تتحدث عن الجنة والنار حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو أنزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً، ولقد نزل بحسب ما يتلاءم مع عقلية الناس وعواطفهم وحياتهم الاجتماعية والعلمية والاقتصادية، فعلاج شؤونهم، وداوى أمراضهم، وتمكن من تغير نحو حياة أفضل.

نعم هناك أحكام مرتبطة بالعادات والتقاليد احتاج القرآن الكريم ورسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإصلاحية زماناً أكثر، ومقومات متكررة وتحضيرية، لا سيما على الصعيد النفسي للمجتمع في ذلك الوقت، مثال ذلك:

قضية شرب الخمر، والربا، والتبني، وهناك أحكام فطرية لا تحتاج إلا إلى تنظيم تشريعي مثل الصلاة، والزكاة، والحج، وفضائل ألأخلاق، فهي مسنونة من قبل ولا تتأبى عليها طبائع البشر، ولهذا وغيره كان القرآن نزل منجماً ليأخذ بيد المجتمع إلى بر السلامة دون مضاعفات أو تقلبات، أو إصطدامات مع الطبائع البشرية المختلفة في ذلك المجتمع.

من هنا نفهم، أن هناك حكمة تجلت في نزول القرآن تدريجي للناس، لأن الإصلاح وأثاره لا تقع في النفوس إلا إذا كانت أساليبه موفقة لفطرة الناس وعواطفهم وحياتهم، ولذلك دأبت الحركات الإصلاحية الواعية على أساليب التدرج وتربية النفوس والعقول والملكات الوجدانية ليقع التغيير مصاحبا للمطالب التي تريدها الناس حتى تكون الرقابة تلقائية من المجتمع

والفرد نفسه لا تحتاج إلى رقابة خارجية سوى العقيدة والامتثال والطاعة، وهذا ما أشار إليه القرآن نفسه في قوله تعالى: ﴿**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾[١]

كيف كان: فالترتيب السوري للقرآن الكريم والآيات الشريفة عُرف من خلال أُمر درج على التعامل بها سائر المتخصصين في الشؤون الإسلامية منذ الصدر الأولى لنزول القرآن الكريم وهي تتلخص في طرائق أهمها:

١- ترتيب الآيات:

وهو ما اصطلح عليه أهل الفن ترتيب كل آية في مكانها في السورة القرآنية المستقلة.وهذا يتم عبر طرائق أيضاً هي:

أ- ترتيب النزول:

وهذا ما تسنى لمن كان قريبا من رسول الله ﷺ وشهد نزول الوحي عليه تمكن من تسجيل الآيات والسور بحسب نزولها على رسول الله ﷺ وبحسب سبب نزولها لمقتضى الحوادث والمناسبات، وقد تفرد الإمام علي عليه السلام بهذا إذ كان ملاصقا لرسول الله ﷺ منذ صغره، ودون الإمام عليه السلام الآيات على حسب نزولها، ومنذ نزولها في اليوم الأول من زمن بعثه ﷺ ونزول القرآن عليه ﷺ وإلى هذا اليوم لم يتغير من القرآن شيء. قال صاحب الإتقان: عن عكرمة الذي يرى رأي الخوارج، أنه قال: «لو اجتمعت الإنس والجن، ليرتبوه حسب النزول لما استطاعوا»[٢] وإن كان كلام عكرمة لا مبرر له، لأنه هناك من تمكن بأمر من رسول الله ﷺ أن

---

(١) سورة الإسراء، آية ١٠٦.

(٢) الإتقان:ج ١ ص ٥٨.

يرتب القرآن الكريم ويجمعه، إلا أنه يوضح لنا أن الترتيب كان توقيفي ليس بمقدور البشر ابتداء ترتيبه لأن ترتيبه توقيفي على يدي رسول الله ﷺ.

ب- ترتيب التدوين:

لا شبهة في أن لكل آية موضعها الخاص بها بين السور، وهذا الوضع يعرف عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله تعالى، وهو ثابت قطعي لا خلاف فيه بين المسلمين، كما هو مدون في المصاحف الشريفة التي بأيدينا والمنقولة نقلاً متواتراً عن الرسول الأعظم ﷺ ونسب ذلك إلى جماعة كبيرة من الأعلام منهم: كما نسبه صاحب الإتقان إلى جماعة منهم: القاضي في أحد قوليه، وأبو بكر الأنباري، والكرماني في البرهان، والطيبي. وقال في الإتقان: قال الزركشي في البرهان: فالخلاف بين الفريقين لفظي، لأن القائل بالثاني (أي بالاجتهاد بعده ﷺ) يقول: إنه رمز إليهم ذلك. وأما دليلنا على ذلك هو ما أشرنا إليه غير مرة في نظائر المقام من أن العقل والاعتبار يدلان على أنه لا يجوز التسامح في أمر القرآن المعجز الخالد، حتى في ترتيب سوره، بأن يوكل الرسول ﷺ أمر ترتيبه إلى غيره من الصحابة، فيؤلفونه حسب أهوائهم واجتهاداتهم، وهل هذا إلا إلقاء للأمة التي يختلف أفرادها اختلافا شديدا في الفهم والذوق إلى مزالق الخلاف والتشتت. وعن ابن الأنباري(١) أن اتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله من النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن. وتشهد لما ذكرناه عدة أحاديث ذكرها في الإتقان، وهي:

١ - ما عن ابن أشتة في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن

(١) ابن الأنباري: لغوي نحوي علامة وقته في الأدب، وأكثر الناس حفظا لها، يحكى أنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيرا بأسانيدها، توفي سنة ٣٢٨هـ. (راجع الكنى والألقاب للمحدث القمي).

سليمان بن بلال قال: قد سمعت ربيعة يسأل: لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما أنزلتا بالمدينة؟ فقال: قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه به، ومن كان معه فيه، واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه[١].

٢- ما رواه الحاكم عن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[٢]. فالمستفاد من هذا الحديث هو أن القرآن كان متفرقا في الرقاع، وأن زيدا ومن معه كانوا يجمعون القرآن في مصحف واحد، وهو عند رسول الله ﷺ، وواضح أن التأليف يستلزم الترتيب، فإذا كان الترتيب عند الرسول ﷺ فالترتيب عنه أيضا وبأمره. ويدل على ذلك اتفاق الأمة، وقبول الصحابة ومن بعدهم لهذا الترتيب الموجود، حتى فيما قبل عثمان، لأن عثمان لم يفعل في القرآن إلا أنه أمر بكتابته على قراءة واحدة، وحمل الناس عليها، ثم أحرق سائر المصاحف، أما الترتيب فإنما حصل بأمر النبي ﷺ.

شبهة في المقام، وجوابها:

ثم إنه ربما يورد على ما قلناه سؤال وهو: أنه إذا كان الترتيب قد حصل بأمر النبي ﷺ فلم اختلف الأصحاب في ترتيب مصاحفهم حتى أن أبي بن كعب وابن مسعود قد رتبا مصحفيهما على خلاف ترتيب المصحف الذي بأيدينا اليوم؟

وربما يورد سؤال آخر أيضا هنا وهو: ماذا نصنع بالرواية المتقدمة الدالة على أن عثمان هو الذي رتب سور المصحف؟

(١) الإتقان: ج ١ ص ٦٥.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ج ٢ ص ٦١١.

والرواية هي: ما سبق عن أحمد في مسنده: من أن ابن عباس قال لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا (أي بسم الله الرحمن الرحيم) -إلى أن قال عثمان:- كانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما... الخ[١].

أما الجواب عن السؤال الأول: فبما قيل من أن اختلاف الجامعين في ترتيب سور القرآن لعله كان قبل وقوفهم على أنه أمر توقيفي، ولابد وأن يؤخذ من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقبل أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتأليف القرآن من الرقاع، فهم رتبوا ما سمعوه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنفسهم بحسب آرائهم، وأما بعد تأليف القرآن من الرقاع بأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفتهم بترتيبه له لجميع المسلمين على هذا النحو فالواجب عليهم متابعته في ذلك أيضا.

وأما عن السؤال الثاني: فبما قيل أيضا من أن الحديث ضعيف، لأن في السند يزيد الفارسي الذي عده البخاري في الضعفاء، وعن الشيخ أحمد شاكر في تعليقه له على هذا الحديث أنه حديث لا أصل له[٢]. ويزيد الرواية ضعفا ما ورد عن أبي هلال حدثنا مالك بن دينار عن يزيد الفارسي كاتب عبيد الله بن زياد... فالرجل إذا لا يبالي أن يكون من أعوان قتلة الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام. هذا في الحديث، وأما في دلالته على ما نحن بصدده فهي أيضا محل إشكال، حيث إنه خاص في ترتيب سورتي الأنفال وبراءة، فمن تم عنده سند الحديث فعليه أن يقول: إن ترتيب هاتين السورتين فقط قد حصل بيد عثمان، كما فعل السيوطي في الإتقان حيث قال: والذي ينشرح

---

(١) الإتقان: ج ١ ص ٦٢، مسند أحمد: ج ١ ص ٥٧ مسند عثمان.

(٢) مباحث في علوم القرآن: لمناع القطان: ص ١٤٤.

له الصدر ما ذهب إليه البيهقي، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي، إلا براءة والأنفال. أما نحن فنقول: سند الحديث ضعيف، وعثمان لم يفعل شيئا في القرآن، سوى كتابته على قراءة واحدة، ولم يتصرف في ترتيبه، فيكون ترتيب جميع سور القرآن توقيفيا ومأخوذا من الرسول الأعظم ﷺ، كما أن ترتيب آياته أيضا كذلك، وكذلك تقسيم السورة إلى آيات ذات بداية ونهاية، فإن كل ذلك قد حدث في عصر النبي الأكرم ﷺ ولم تنله يد الرأي والاستحسان والاجتهاد[1].

٤- ترتيب التلاوة:

ترتيب التلاوة:هو تلاوة الآيات بحسب ما جاءت في السورة الواحدة ترتيباً، إذ لا يجوز فقها ترتيل القرآن بغير الذي كُتب في السور والآيات الكريمة، فقد كان رسول الله ﷺ يقرأ سوراً عديدة بترتيب آياتها بحسب الترتيب الموضعي، والذي دونت بموجبه على التواتر، لا حسب ترتيب نزولها فكان ذلك دليلاً صريحاً أن ترتيب الآيات والسور توقيفي وفي تلاوته نفس الحكم، فلا تجوز ولا تصح تلاوة الآيات على غير ترتيبها تم تدوينها بموجبه في المصاحف، وبهذا الالتزام التوقيفي من الله ورسوله الكريم ﷺ وبتعهد أهل البيت والأصحاب الأجلاء تمكن المسلمون من حفظه وصيانته، إذا لو اختلفت همزة، أو ضمة، أو كلمة مكان كلمة لاكتشفنا تحريفه والتلاعب بآياته الكريم.

قال الثعالبي في تفسيره: مناسبة الظروف والوقائع، مناسبة ترجع إلى ركن من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وترتيب التلاوة أو الترتيب التعبدي، كان منظورا فيه إلى تسلسل المعاني وتناسب أجزاء الكلام بعضها

---

(١) لمزيد من المعرفة: انظر- بحوث في تاريخ القرآن- السيد مير محمدي زرندي ص ١٠١.

مع بعض. والترتيب الأول مؤقت زائل بزوال ملابساته من الوقائع والأزمنة والأمكنة.

أما ترتيب التلاوة التعبدي فباق، لأنه في ذات الكلام، يدركه كل واقف عليه وتال له من الأجيال المتعاقبة، بينما الترتيب التاريخي لا يدركه إلا شاهد العيان لتلك الملابسات من الجيل الذي كان معاصرا لنزول القرآن... وكان انقراض تلك الملابسات الوقتية محوجا إلى معرفتها معرفة نقلية تصورية، ليتمكن الآتون من استعمال القرائن والأحوال، التي اهتدى بها إلى معاني التراكيب القرآنية سابقوهم[١].

٢- ترتيب السور:

هنا ثلاثة أراء متباينة حول ترتيب سور القرآن الكريم، ولكل دليله واجتهاده فيما توصل إليه، وسف نشير إليها إجمالاً في الصفحات والبحوث القادمة إنشاء الله تعالى، ولكن ما ينبغي قوله، هنا، أن ترتيب السور مر بثلاث مراحل مهمة قبل أن يتعرف عليه المسلمون وهي:

أ- ترتيب نزول السور القرآنية:

ونعني به، أن ترتيب نزول السور على نسق ما هي عليه في المصاحف، فنحن نجد أن ترتيب نزول القرآن يبدأ بسورة (العلق) في مكة ثم (ن، والقلم) ويستمر النزول ما يقرب من ثلاث عشرة سنة تعقبها الهجرة المباركة، حيث يبدأ النزول في المدينة المنورة بسورة (البقرة) ثم (الأنفال) وكانت آخر سورة نزلت من القرآن الكريم هي سورة (النصر) نزلت في (منى) في حجة الوداع. وقيل إن آخر ما نزل من الآيات قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ

(١) تفسير الثعالبي: الثعالبي ج ١ ص ٤٩.

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

أيضاً، وبعدها بقرابة شهرين دعا الله رسوله إلى دار كرامته.

ب- ترتيب تدويني:

كما أن التدوين الذي دونت به السور الشريفة يختلف تماما عن ترتيب تدوينها في المصاحف، حيث يبتدئ بسورة(الفاتحة) وهي مكية مدنية، ثم سورة (البقرة) وهي مدنية نزلت بعد الهجرة، سورة (آل عمران) وينتهي المصحف بسورة (الناس) وهي مكية وآخر سورة في جميع المصاحف.

وقد اختلف الناس في ترتيب السور في المصاحف إلى ثلاثة اتجاهات سنذكرها في السطور اللاحقة إنشاء الله تعالى.

ج- ترتيب التلاوة القرآنية للقرآن:

إن تلاوة السور ليست توقيفية كتلاوة الآيات، بل للقارئ، أن يقرأ من السور ما تيسر له دون التزام بترتيب معين، دل عليه إجماع العلماء في المذاهب الإسلامية:أن للقارئ أن يرتل ما تيسر له من آيات سورة من السور دون الالتزام بتكملتها، ولكن على حسب ترتيب آياتها المدونة في المصحف[٢].

نعم وجوب ترتيب القراءة في الصلاة ذلك مبحث آخر ليس محلا لبحثنا هنا.وهو موكول للبحوث الفقهية فراجع.

---

(١) سورة المائدة، آية ٣.

(٢) لمزيد من البيان، انظر: العطار، ص١٧٢ مصدر سابق.، والزنجاني، في كتابه تاريخ القرآن، ص١٣.

توقيفية ترتيب السور والآيات:

كما أن هذا البحث يقودنا إلى الحديث عن توقيفية السور ترتيباً واسماً، والصحيح الذي ذهب إليه العلماء إجماعاً، إلا خرج منهم بالدليل، أن تحديد الآيات واسم السور حسب الترقيم المتداول كان تحت إشراف رسول الله ﷺ إذ كان يأمر أمير المؤمنين عليه السلام بوضع كل آية في سورة كذا، ويرتب القرآن على حسب أوامره الشريفة ﷺ، ولعل مما يشهد لذلك أن عددا كبيراً من السور لم يكن معظمها حتى السور الطوال قد تمت، وأصبح لها شكلها الخاص بها، وعُرفت وشاعت في عهد رسول الله ﷺ نفسه، وأصبح يعبر عنها باسمها الموضوع لها، ويترتب عليها بعض الآثار في الصلاة وغيرها، وتصدر بشأنها بعض الأوامر، والاعتقاد بهذا القول -ترتيب السور ووضع الآيات تم في عهده ﷺ- يقطع لنا الجدل الصارخ بين المذاهب الإسلامية القائلين نظرية تحريف القرآن الكريم سواء القول بالنقيصة أو الزيادة، لأن الأدلة التي نعتمد عليها في تثبيت ترتيب السور ووضع الآيات على ما هي عليه في القرآن الكريم الموجود اليوم، والذي كان موجودا -بهذه الكيفية- بالأمس في عهد الميمون، يلغي القول بنظرية تحريفه، وترك هذه الضجة التي يثيرها ولا زال يثيرها خصوم الدين ضد القرآن والإسلام والمسلمين مما سبب تمزيقها وتناحرهم في أهم مصدر عندهم عن الله ونبيه ﷺ وهو القرآن!

ويكفينا شاهد على صحة هذا اهتم الرسول بالقرآن في حياته، وأمره ﷺ بتعليم الناس القرآن، وختمه في كل سنة كاملا، ونشره على يد صحابته الأجلاء في أرجاء المعمورة... كلها تدل على صيانته الشخصية وعنايته المباركة بالقرآن في حال حياته الشريفة ﷺ. كما أن أهل البيت عليهم السلام والصحابة الأجلاء من بعده ساروا على نهجه القويم في حفظ ورعاية شؤون القرآن تدويناً وتفسيراً، فما مسألة التحريف إلا مسألة دخيلة على فكرنا

الإسلامي، أراد بها خصومنا تفريقنا عن نهج القرآن الكريم، وخط رسول الله ﷺ ليتسنى لهم غزونا فكرياً وعقائدياً وأخلاقياً.

ما استدللنا به في نظائر البحث من أن العقل والاعتبار لا يريان للاجتهاد في القرآن مجالا، الأمر الذي يؤثر في إعجازه الخالد، إذ لو جاز إعمال الرأي والقياس في ترتيب آياته لأمكن حدوث الخطأ أحيانا في الترتيب بحيث يقدم ما حقه التأخير وبالعكس، وهذا يوجب اختلالا في الأسلوب القرآني المعجز. أضف إلى ذلك: أن ترتيب القرآن الموجود ليس له ملاك واحد، يكون أساسا مطردا في تقديم هذا وتأخير ذاك، وكمثال على ذلك تأمل في الآيتين من سورة الشمس:﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**﴾ فترى ذكر النهار فيها مقدما على ذكر الليل، بخلاف الآيتين في سورة الليل: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى**﴾ فالليل فيها مقدم على النهار، الأمر الذي يقوي الظن بأن الترتيب لم يكن بالاجتهاد والاستحسان، وإلا لقدم أحدهما في جميع المواضع. الثاني: الأحاديث الدالة على أن النبي الأعظم ﷺ قد ذكر بعض الآيات بأنها آخر أو أول سورة كذا، مما يكشف عن أن أول السورة وآخرها قد احدث في عصره ﷺ. وكذا الحال في الروايات التي ورد فيها ذكر أسامي بعض السور، وهي كثيرة وتدل على أن السورة قد تكونت في عصره ﷺ. ونذكر منها على سبيل المثال:

١ - ما تقدم عن الشيخ الثقة ماجيلويه عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ أربع آيات من أول البقرة وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاث من آخرها لم ير في نفسه وماله شيئا يكرهه... الخ[(١)].

٢ - ما عن البخاري في كتاب فضائل القرآن: من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة... الخ. قال العسقلاني: ومن حديث النعمان بن بشير رفعه: أن الله

(١) البحار المصدر سابقة:ج ٩٢ ص ٢٦٥.

كتب كتابا أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة. وقال في آخره: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ**...﴾ وأصله عند الترمذي والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم[(١)].

من هنا: ذكر السيوطي (ت٩١١هـ): أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، أما الإجماع فنقله غير واحد من علماء التفسير منهم: الزركشي في البرهان، وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته وعباراته وترتيب الآيات في سورها بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين. لذلك قال زيد كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع (أي نكتب القرآن في الرقاع)[(٢)].

وفي روايات أهل البيت عليهم السلام ما يوافق هذه الأطروحة التي ذكرها السيوطي، فقد روى الصدوق(ت٣٨١هـ) عن الخليل، عن الحسين بن حمدان، عن إسماعيل بن مسعود عن يزيد بن ذريع، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن أن سمرة بن جندب وعمران بن حصين تذاكرا فحدث سمرة أنه حفظ عن رسول الله ﷺ) سكتتين سكتة إذا كبر وسكتة إذا فرغ من قراءته عند ركوعه، ثم إن قتادة ذكر السكتة الأخيرة إذا فرغ من قراءة غير المغضوب عليهم ولا الضالين: أي حفظ ذلك سمرة وأنكره عليه عمران بن حصين، قال: فكتبا في ذلك إلى أُبي بن كعب وكان في كتابه إليهما أو في رده عليهما أن سمرة قد حفظ [(٣)].

(١) راجع فتح الباري: ج ٩ ص ٥٠ هامش وص ٥١.

(٢) الإتقان: ج ١ ص ٦٩، مصدر سابق.

(٣) العلامة المجلسي:ج ٢٨ ص ٢٧. قال الصدوق رحمه الله إن النبي ﷺ إنما سكت بعد القراءة لئلا يكون التكبير موصولا بالقراءة، وليكون بين القراءة والتكبير فصل، وهذا يدل على أنه لم يقل آمين بعد فاتحة الكتاب سرا ولا جهرا، لان المتكلم سرا أو علانية لا يكون ساكتا، وفي ذلك حجة قوية للشيعة على مخالفيهم في قولهم آمين بعد الفاتحة. ولمراجعة هذه الراوية من مصادر المذاهب الأربعة. أنظر:سنن أبي داود ج ١ ص ١٢٨، وسنن النسائي، ج ٢ ص ١٢٥وسنن البهقي ج ٥ ص ٥٩-١٢٩.

أسماء السور القرآنية وتقسيماتها:

لعل القول هو بتوقيفية الترتيب في السور والآيات، لا توقيفيتها في الأسماء، لأن الملاحظ بعد التتبع لتاريخ علوم القرآن الكريم مما ذكره علماء التفسير، التوقيف يجري على ترتيب السورة والآية لا في إطلاق أسمائها، إذ أننا نرى أن هناك سور لها عدة أسماء وكانت مشهورة بعض السور بعدة أسماء حتى في العهد النبوي فضلاً عن العهد الراشدي.

مثل: سورة النساء، والأعراف، والأنعام، ومريم، وطه، والشورى، والمدثر، وقد يكون لها أكثر من اسم فمن ذلك الفاتحة، تسمى فاتحة الكتاب، وأم الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، والشافية والكافية، والأساس وقد أنهى السيوطي في كتابه الإتقان أسماءها إلى خمس وعشرين. كما أن سورة الإسراء تسمى أيضا سبحان، وسورة بني إسرائيل، وسورة محمد ﷺ تسمى القتال، وسورة سأل وتسمى المعارج، وسورة عم تسمى الدين، والماعون، وسورة الإخلاص تسمى أيضا الأساس، وسورتا الفلق والناس، وتسميان المعوذتين بكسر الواو المشددة، وقد استوعب السيوطي أيضا في نفس المصدر(الإتقان) السور ذات الأسماء المتعددة.

وكما سميت السورة الواحدة بعدة أسماء سميت سور عدة باسم واحد وذلك كالسور المسماة بآلم وحم، وذلك على القول بأن فواتح السور أسماء لها، وتكون هذه الأسماء من قبيل المشترك اللفظي والتمييز بين السور بقرينة ضميمة إليها، فيقال: الم البقرة، الم آل عمران، ويقال: حم غافر، وحم فصلت، وهكذا.

هل أسامي السور توقيفي؟

تميل بعض المدارس التفسيرية القديمة منها والحديث إلى أن كل ما في القرآن الكريم توقيفي، بما في ذلك أسماء السور القرآنية. قال السيوطي: وقد

ثبت عند كثير من العلماء أن جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك، وعلى هذا يكون التوقيف أعم من أن يكون عن النبي ﷺ أو عن الصحابة الذين شهدوا نزول الوحي والتنزيل(١).

كما أن الزركشي أشار إلى هذا المبحث وحث علماء التفسير على بذل الجهد في التوصل إلى دليل قاطع يُشير إلى توقيفية أسماء السور القرآنية.قال: ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به ولا شك أن العرب تراعى في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستعرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينه ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى ومن الأنعام حمولة وفرشا إلى قوله أم كنتم شهداء لم يرد في غيرها كما ورد ذكر النساء في سور إلا أن ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد في غير سورة النساء وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها فسميت بما يخصها فإن قيل قد ورد في سورة هود ذكر نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام فلم تختص باسم هود وحده وما وجه تسميتها به وقصة نوح فيها أطول، قيل تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأوسع مما وردت في غيرها ولم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود عليه السلام كتكرره في هذه السورة فإنه تكرر فيها عند ذكر قصته في أربعة مواضع والتكرار من

(١) الإتقان: ج ١ ص ٥٢، مصدر سابق.

أقوى الأسباب التي ذكرنا وإن قيل فقد تكرر اسم نوح في هذه السورة في ستة مواضع فيها وذلك أكثر من تكرار اسم هود قيل لما جردت لذكر نوح وقصته مع قومه سورة برأسها فلم يقع فيها غير ذلك كانت أولى بأن تسمى باسمه عليه السلام من سورة تضمنت قصته وقصة غيره وأن تكرر اسمه فيها أما هود فكانت أولى السور بأن تسمى باسمه عليه السلام واعلم أن تسمية سائر سور القرآن يجرى فيها من رعى التسمية ما ذكرنا وانظر سورة ق لما تكرر فيها من ذكر الكلمات بلفظ القاف ومن ذلك السور المفتتحة بالحروف المقطعة ووجه اختصاص كل واحدة بها وليته حتى لم تكن لترد في موضع ولا في موضع لا سيما إذا قلنا إنها أعلام لها وأسماء عليها وكذا وقع في كل سورة منها ما كثر تردده فيما يتركب من كلمها ويوضحه أنك إذا ناظرت سورة منها بما يماثلها في عدد كلماتها وحروفها وجدت الحروف المفتتح بها تلك السورة إفرادا وتركيبا أكثر عددا في كلماتها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها فإن لم تجد بسورة منها ما يماثلها في عدد كلمها ففي اطراد ذلك في المماثلات مما يوجد له النظير ما يشعر بأن هذه لو وجد ما يماثلها لجرى على ما ذكرت لك وقد اطرد هذا في أكثرها فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الوارد فيها فلو وضع موضع من سورة لم يمكن لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله تعالى وقد تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها مائتا كلمة وعشرون أو نحوها فلهذا افتتحت وأقرب السور إليها مما يماثلها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطعة سورة النحل وهى أطول منها مما يركب على من كلمها مائتا كلمة مع زيادتها في الطول عليها فلذلك وردت الحروف المقطعة في أولها(١)

والحاصل: أن هناك من يرى أن أسماء السور القرآنية توقيفية، وآخرون يرون أنها اجتهادية، والحاصل مما تقدم يتضح لنا بعد التحقيق أنه

(١) البرهان: الزركشي ج ١ ص ٢٧٠.

لا نملك ما نستطيع معه الجزم على أن أسماء السور توقيفية، مع ما لدينا من كثرة أسماء للسورة الواحدة، ومن تعاليل لهذه التسميات فسورة تسمى سورة(غافر٩ لأنها فيها (غافر الذنب) وهي تسمى مؤمن لأن فيها (وقال رجل مؤمن) يضاف إلى ما ذكرنا أن في المسلمين من عارض وضع الأسماء على سور المصحف العثماني، وأن لدينا بعض المصاحف خالية من هذه الأسماء مما يرجح القول إنها أسماء اجتهادية وليست توقيفية.أو يمكن أن تكون هذه الأسماء المتعددة للسورة الواحد، صفة لا اسم باعتبار محتواها أو موقعها من القرآن، فالفاتحة صفة للسورة الأولى من القرآن الكريم باعتبار وقوعها في مفتتح القرآن كالمقدمة للكتاب وكذلك الأسماء الأخرى فالتعبير عن بعضها باعتبار المواضيع الهامة فيها كسورة نوح ولقصة نوح وسورة البقرة لموضوع البقرة، وبعضها باعتبار مبتدئها كالمقطعات ألف لام ميم وما شابه، ومن هنا جاز جمعها في طوائف(كالمسبحات) و(الطواسين) و(الحامدات) هذا في عصر الرسالة النبوية الشريفة، أما بعد ذلك فلا شك في أن التسمية الغالبة هي المتبعة.

تقسيمات السور القرآنية:

قلنا سابقاً، أن ترتيب السور وكيفية وضع كل آية في سورة كذا، كان أمرا توقيفي لا اجتهادي، وكان ذلك بأمر من رسول الله ﷺ وبهذا الترتيب التوقيفي جاءت تقسيمات السور المباركة، فتقسيم السور القرآنية الكريمة بحسب عدد آياتها الكريمة إلى:

السبع الطوال:

جمع طول، تأنيث الأطول، كالكُبر جمع كُبرى مؤنث أكبر وسميت طُوال لأنها أطول سورة في القرآن، ولكون الأحاديث أشارت إليها أيضا.جاء في البحار، عن رسول الله ﷺ قال: أعطيت الطوال مكان

التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، والمثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل سبع وستين سورة [1] وهي:

- البقرة.
- وآل عمران.
- والنساء.
- والمائدة.
- والأنعام.
- والأعراف.
- ويونس. وقيل إنها سورة الكهف.

٢- المئون:

سميت بذلك لأن كل سورة منها أقصر من الطوال، وتزيد آياتها على مائة آية وهي:

- التوبة.
- والنحل.
- وهود.
- ويوسف.
- والكهف.
- والإسراء.
- والأنبياء.
- وطه.
- والمؤمنون.

(١) البحار، ج ٩٢ ص ٢٧.

- الشعراء.
- والصافات.

٣- المثاني:

وهي: السور ما بعد المأتيين، قيل في سبب هذه التسمية إنها ثبت المأتيين بعد السبع الطوال، وقيل لتثنيتها الأمثال التي ذكرتها، وهي السور التي آياتها أقل من مائة.

٤- المفصل:

وهي: قصار السور من سورة الحجرات حتى سورة الناس سميت بذلك لكثرة الفصول بين سورها بالبسملة.. وقيل أختلف في أوله على أقوال فقيل(ق) وقيل (الحجرات) وهو الذي صححه النووي، وللمفصل طوال وأوساط وقصار، فالطوال من (الحجرات) إلى سورة (البروج)، والأوساط من سورة(الطارق) إلى سورة(لم يكن) والقصار من سورة (الزلزلة) إلى آخر القرآن الكريم.

الدرس السادس عشر:

نظرة في جمع القرآن الكريم

تُعد هذه المسألة (تحريف القرآن) من المسائل العلمية التي تنازع فيها المذاهب الإسلامية، والحق، والحق أقول، أنها مسألة أثارها الحاقدون على الإسلام والمسلمين، مما جعلهم يبثونها في صفوفهم لتضعيف جانبهم وتشرذم وضعهم، وقد تمكن الاستعمار من ذلك مما أتاح لضعاف النفوس، وأوكار الشيطان من بثها وترتب أثار الفرقة عليها!

ولو لم تكن شنشنة اعرفها من جاهل أو متجاهلين، الذين يخرفون فيهرفون بما لا يعرفون عن القرآن، هرفاً في التحريف، لما كتبت عنه شيئاً، لأن القرآن فوق هذه الأقاويل الزور، والتي تسربت إلى أحاديث الإسلام فتسربت عند من غرب عقله، فلذلك أجمل البحث عنه كما أجمله شيخ الطائفة واضرابه[1].

---

(١) قال في مقدمة تفسيره: واما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به ايضاً لان الزيادة مجمع على بطلانها والنقصان منه فالظاهر ايضاً من مذهب المسلمين خلافه وهو الاليق بالصحيح من مذهبنا وهو الذي نصره المرتضى وهو الظاهر في الروايات غير انه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من

وجملة القول ممن تقوَّل في هذا المضمار: أن القرآن محرف بنقصان فقط وفي التاليف[١] واما الزيادة فمجمع على بطلانها. ولا ريب ان الآيات الموجودة كلَّها قرآن، ومنها ما تصرح بعدم التحريف أيا كان، فقولة التحريف إذاً تناقض القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢] والذكر هنا هو القرآن، فانه منزَّل، وليس الرسولَ وهو الذكر المُنْزل: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُوْلِي الالبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّـهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللـهِ مُبَيِّنَاتٍ..﴾[٣] فالرسالة دفعية مُنْزلة، وليست تدريجية منزَّلة، ثم الذكر قبل آيته هو القرآن: ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[٤] وحفظُ قرآنه حفظاً لبرهانه الرسالي الخالد يخفِّف عنه وطأةَ تهمة الجنون، فليس إلاّ حفظاً له ككلٍّ وفي أَيَّة ناحية كقرآن، طوال الرسالة الإسلامية، وبمتناول أيدي الناس، لا حفظاً في صدره هو وصدور المعصومين من خلفائه ـ فحسب، فانه لا يحافظ على كيان الرسالة إلاّ عند أهليها، والآية في مقام الإمتنان، وماذا يُجديه حفظه عنده إذا كان ضايعاً عند

موضع الى موضع طريقها الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملا والاولى الاعراض عنها وترك التشاغل بها لانه يمكن تاويلها ولو صحت لما كان ذلك طعناً على ما هو موجود بين الدفتين فان ذلك معلوم صحته نلا يعترضه احد من الامة ولا يدفعه.

ورواياتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع اليه وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله رواية لا يدفعها احد انه قال: اني مخلف فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا ابداً كتاب الله وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ـ وهذا يدل على انه موجود في كل عصر لانه لا يجوز ان يامر بالتمسك بما لا نقدر على التمسك به.. واذا كان الموجود بيننا مجمعاً على صحته فينبغي ان نتشاغل بتفسيره وبيان معانيه ونترك ما سواه».

(١) راجع ج ٢٩، ص ٢٨١ ـ ٢٨٤ على ضوء الآية: ان علينا جمعه وقرآنه.

(٢) سورة الحجر ١٥: ٩.

(٣) سورة الطلاق ٦٥: ١٠.

(٤) سورة الحجر ١٥: ٦.

الأمة، فهل نزل هذا الذكر إلاّ للأمة: **﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**.

ولا نجد آية كآية الحفظ ـ في أية مهمة إسلامية ـ فيها هذه التأكيدات العديدة: ١ ـ إنّ. ٢ ـ نا ـ ٣ ـ نحن. ٤ ـ نزلنا. ٥ ـ نا ـ ٦ ـ إنّ. ٧ ـ نا. ٨ ـ له. ٩ ـ لـ. ١٠ ـ حافظون.

فهل نسي الله أم عجز أو بخل عن حفظه وصيانته في تأليفه؟ أو عن زيادته أو نقصانه إذ غُلب على أمره؟ والله غالب على أمره! وهو القائل العزيز: **﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾**[1]؛ لا يأتيه الباطل من أي تهريف او تحريف، رغم ما ياتيه المبطلون ـ لا يأتيه من بين يديه من وحي سابق يكذبه ويبطله، او لا حق او معاصر كذلك، فضلا عن غير الوحي من دس المبطلين، لانه **﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾**!؛ **﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾**.

انه محفوظ جملة وتفصيلا، نزولا وتنزيلا، تأليفاً وترتيباً، حتى في حروفه ونُقَطه وإعرابه، فضلا عن جمله وآياته، وكما يشهد بذلك القرآن نفسه **﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّـهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾** وقد يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله عدد كلمات القرآن وحروفه.

ثم وحديث الثقلين، وآيات العرض وأحاديثه، شهود صدق على صيانته عن التحريف، فكيف يكون القرآن المحرف معروضاً عليه لكل حادث وحديث؟ أو يكون الثقلَ الأكبرَ بعد الرسول صلى الله عليه وآله مع أصغره حتى يردا عليه الحوض؟.

وما خرافة تحريف القرآن إلاّ اختلافاً اسرائيلياً وجد له سبيلا إلى غَفلَة

(١) سورة فُصلت ٤١: ٤٢.

جاهلين، أو طائفين من سنة وشيعة، كلٌّ يصدّق اختلافاً حول التحريف ليثبت مذهبه تغافلا عن كيان القرآن وهو أساس الإسلام.

فالسني يهرف بنقصان آية الرجم: (الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة) ما يعرفه كل سوقي عربي انه لا يشبه الوحي القرآني.

والشيعي يخرف بنقصان اسم الإمام علي وآله في مواضع هي غاية الكدّ والكدح في باطله من أخبار آحاد.

ولكنما القرآن يقول كلُّه تلميحاً، وتقول بعض آيته تصريحاً، انه لم يحرف ولن، ولكنما الحرفة الطائفية ليست لتسمح الرجوع في ذلك إلى القرآن نفسه، لحدّ يستدل قائله بآية مشوهة حيث لم يجد فرصة للرجوع إلى القرآن، إذ كان يسبر اغوار الأحاديث من عشرات وعشرات مؤلفات تضمها[١].

وقد يعني [البعض من أحاديث التحريف ـ غير الصريحة في نقص أو زيادة لفظية ـ تعني] تحريف المعنى، إمالة لمعاني آيات إلى غير معانيها، وهذا مما نعانيه منذ نزول القرآن ﴿**يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ - عَن مَّوَاضِعِهِ**..﴾[٢] وكما تشهد له رسالة الإمام الباقر عليه السلام إلى سعد الخير: «وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم

(١) ينقل الأستاذ (حفظه الله) أن المحدث حسين النوري آية الذكر في كتابه المخطوط بيده: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ثم يقول: الانزال لا يدل على انه الكتاب بل استعمل الانزال للرسول في قوله: ﴿أَنزَلَ اللَّـهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولاً﴾ هذا! رغم ان آية الحفظ تقول «نزلنا» وهو ينقلها «انزلنا اليكم» فلم ينظر الى آية الذكر حتى يعرف انه ذكر منزّل وليس منزلا، ولا الى ما قبلها ليعرف انه القرآن! فيا له مراماً ما ابعده وذكراً ما اغفله!

(٢) سورة المائدة ٥: ٤١، ٤: ٤٦.

للرعاية»[١] كما وان التأويل المصطلح للآيات ـ وهو تفسيرها بخلاف ظواهرها المستقرة ـ هو ايضاً تحريف وتفسير بالرأي.

فالتحريف لغوياً هو الإمالة للشيء عن وجهه إلى غير وجهه. فيشمل وجه اللفظ إلى لفظ آخر، ووجه المعنى ـ وهو ظاهره ـ إلى معنى آخر، ووجه التركيب إلى تركيب آخر وما إلى ذلك من وجوه التحريف في الآيات، ونحن لا نصدق إلاّ واقع التحريف في وجوه المعاني الصريحة أو الظاهرة إلى غيرها، المندد به في القرآن والحديث، دون غيره حيث يكذبه القرآن والحديث.

ثم وفي صيانة القرآن عن التحريف صيانة للسنة المحمدية عن التجديف وصيانة لسائر كتب السماء عما تدخل فيها من وحي الأرض، حيث يهيمن على ما قبله من كتاب، وعلى حدٍّ ما يروى عن رسول القرآن وأهل بيته الكرام عليهم السلام فانه الثقل الأكبر بعد الرسول، حيث يستمر به الثقل الأصغر، إذ تعرض رواياتهم عليه فيعرف الخائن المفترى من الأمين والغث من السمين.

وفي تحريف القرآن وهو كتاب الزمن ـ ضياع لكافة الرسالات الإلهية ورسالة القرآن، وزوال للحجة البالغة الإلهية عن العالمين.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢] ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ﴾[٣].

---

(١) أصول الكافي: ج٢ ص٣٤٥.

(٢) سورة النحل ١٦: ٦٤.

(٣) سورة المائدة ٥: ١٦.

وهذا القرآن فيه من التواتر العام طوال القرون الإسلامية لحد أصبح كالشمس في رابعة النهار، وما تهريف التحريف إلا كذَباب أو ذُباب تحاول كسف الشمس بجناحها وذبها.

فكل أمر يُرجع إلى القرآن لفظاً ومعنىً وترتيباً وقراءة، إذ لا نصدق أية قراءة لا توافقها المتواترة المتداولة، المخطوطة والمطبوعة، فذة أو في التفاسير، ولا سيما القراءآت التي تغير المعاني.

وسوف ترى في هذا التفسير إن وصمة التحريف تهريف هُراءٌ من بعض الجهال أو المعاندين، وتجديف في أحاديثنا من إسرائيليات ومسيحيات تعني تشويه القرآن كما شُوِّهت سائر كتابات السماء، وأن القرآن بنفسه يذود عن نفسه هذه الوصمة الجاهلة، بالفاظه ومعانيه، كما هو يثبت كونه وكيانه أنه إلهي واصب كالشمس في رابعة النهار، فهو دليل لكل دليل ومدلول، ولا يحتاج بنفسه إلى دليل، اللهم لمن لم يعش القرآن قلبه، أو يعشو قلبه عن نوره المبين وتبيانه المتين، فلينبَّه لذكراه، ليهتدي إلى هداه.

ومن آياته أن اتسمت جملاته بالآيات، حيث اتسمت بأنها دالات بكونها بذواتها إلهيات، فكما أن معجزات الرسالات آيات كذلك القرآن كله آيات ولكنها خالدات.

إذا عرفت ذلك، نقول: أن المشهور عند أصحابنا الإمامية، بل المتسالم عليه بينهم هو القول بعدم التحريف، بل أن الصدوق قدس سره جعله من عقائد الإمامية وادعى كاشف الغطاء قدس سره فيه الضرورة والبداهة، ومعه لا وجه للافتراء عليهم ونسبة هذا القول السخيف إلى الطائفة المحقة.

وسوف نتحدث في هذه العجالة عن تعريفه، و بعض الأدلة التي استند إليها الإمامية في عدمية تحريف القرآن الكريم.

تعريف التحريف لغة واصطلاحاً:

قال ابن منظور في لسان العرب: وتحريف الكلم عن موضوعة تغييره، والتحريف في القرآن، والكلمة تغيير الحرف عن معناه، والكلمة عن مفادها، وهي قرينة الشبه كما كانت اليهود تغير معاني التوراة فوبخهم الله بفعلهم فقال تعالى: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِالسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً**﴾[١] أي يبدلون كلمات الله عن مواضعها.

والمرد من التحريف: التغيير عمداً فيما هو مكتوب سواءاً كان اللفظ أو المعنى بكلمة واحدة أو أكثر.

كما أن هناك أنواعاً من التحريف مارسها المغرضون الذين سعوا لتمزيق وحدة الصف الدينية ولتشويه حقيقة الدين وتعاليمه الحق، فالتحريف المعنوي كان له أيضا دور في نشر هذه الهرطقة (مسألة التحريف عند المسلمين) فقد سعى المغرضون إلى تغيير معاني القرآن وأقوال رسول الله ﷺ حسب مصالحهم الشخصية، ويكفينا هنا ما أشار إليه الإمام الأعظم أبو القاسم الخوئي قدس سره في تفسير (البيان) ولمن راجعه يقف على هذه الحقيقة.

أدلة عدم التحريف:

وللوقوف على هذه الحقيقة القائلة إجماعا بعدم التحريف في القرآن الكريم، يُستحسن بنا الوقوف على بعض الأدلة النقلية والعقلية التي تمسك بها علماء الأمة؛ بما فيهم علماؤنا الأعلام من المذهب الإمامي.

---

(١) سورة النساء:٤٦.

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١]

فإن دلالته على أن القرآن مصون من التحريف والتغيير وأنه لا يتمكن أحد من أن يتلاعب فيه، وهذا الدليل ظاهر لمن تأمل معاني هذه الآية الشريفة، فالقرآن الكريم وعبر هذه الآية الشريفة مصان من التهريف والتحريف، إذ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد قامت عدة قرائن واضحة على عدم تحريفه، لأن الله تبارك وتعالى قد تعهد بحفظه وصيانته.

وإن استشكل البعض على أن الآية ناظرة إلى أن الله قد تعهد بحفظ (رسول) لأنه الذكر هنا في هذه الآية ينصرف إلى رسول الله ﷺ !!

فنقول: قد عرفت قيام القرينة الواضحة على كون المراد به في المقام هو (الكتاب) وأنه ليست آية الحفظ من المتشابهات، وأن (الذكر) هنا هو القرآن الكريم فإنه منزل من رب حكيم، وليس الرسول، وحفظ القرآن حفظا لبرهانه الرسالي الخالد.

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢]

كما أنه تعالى أكد لنا ولكافة البشر أن (كتاب عزيز) وهذا الكتاب العزيز لم ولن يأتيه الباطل بجميع أقسامه، وكما هو معروف من الطرق العلمية ضرورة أن النفي إذا ورد على الطبيعة المعرفة بلام الجنس أفاد العموم، وبالإضافة إلى جميع أنواعها وأصنافها وأفرادها، فالباطل في ضمن أي نوع تحقق، وأي صنف حصل وأي فرد وجد، بعيد عن الكتاب بمراحل

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) سورة فصلت: ٤٢.

لا يمكنه له إتيانه والاتصال به، ومن الواضح أن التحريف واضح وواحد من مصاديق الباطل وأظهر أصنافه فالآية الكريمة تنفيه وتخبر عن عدم وقوعه وبعده عن الكتاب العزيز.

فكل رواية جاءت تفسر هذه الآية بخلاف ما ذهبنا إليه من القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهي سرب لا اعتبار فيها، إلا أنه يمكن تأويلها وانصرافها لمعنى يتغاير مع هذه الأطروحة من قبيل رواية علي بن إبراهيم في تفسيره عن الإمام الباقر عليه السلام عندما فسر الباطل بالتوراة، ولا من قبله بالإنجيل والزبور، ولا من خلفه أي لا يأتيه من بعده[1].

الدليل الثاني: النقلي (الأحاديث الشريفة):

هناك طوائف من الأحاديث الكثيرة الدالة على أن ما بين الدفتين تمام ما انزل، من دون نقيصة أو تحريف، وهي:

الطائفة الأولى:

الأخبار الواردة في بيان الثواب لسور القرآن الكاشفة عن عدم تحريف السور لأنه لا معنى للثواب على قراءة السور المحرفة.

الطائفة الثانية:

الأخبار الدالة على لزوم عرض الأخبار مطلقا، أو عند تعارضها على كتاب الله، حيث إنه لا معنى لعرض الأخبار على القرآن المحرف، مما يكشف عن صحته وعدم وقوع التحريف فيه. الثالثة: الأخبار الدالة على وجوب

---

(١) راجع ما أفاده آية الله (اللنكراني) في كتابه (مدخل التفسير، ودفعه الشبهات التي جاء بها القائلون بالتحريف ج ١ ص ٢٠٦.

التمسك بالقرآن، كقوله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي[١]. وأسانيدها لا تقبل المناقشة عند أحد من المسلمين. فلو كان الكتاب محرفا لما كان للتمسك به معنى. ولكن من الواضح أن هذه الأخبار جميعها على اختلاف طوائفها إنما صدرت لإعطاء الحجية للكتاب الموجود بين الدفتين، ولكنها لا تدل على أنه تمام ما انزل من دون وقوع نقص فيه، إذ لا منافاة بين النقص والحجية. والقائلون بالتحريف والنقص يقولون بحجية وقرآنية ما بين الدفتين كما تقدم، وستأتي بعض الأخبار الدالة على حجيته.

الطائفة الثالثة:

إنه لو سقط من القرآن لم تبق ثقة في الرجوع إليه. وأجيب بأن الأدلة الآتية لإثبات حجية الكتاب الموجود دالة على حجيته والوثوق به، وهو أعم من بقاء القرآن حسب ما انزل من دون وقوع نقيصة فيه، إذ من الممكن أن يكون الساقط غير مخل سقوطه في ظهور الباقي فيما يراد منه.

وإن شدة الاهتمام والضبط في عصر النبي ﷺ وبعده في حفظ الكتاب أخرج سقوط شيء منه عن مجرى العادة. وأجيب بأن ذلك ينتقض في كثير من الأحكام التي كانت دواعي حفظها وضبطها أوفر وأكثر لعامة المسلمين من حفظ كل آية من القرآن. وذلك مثل الأذان الذي يسمعه الرجال والنساء والصبيان أكثر من مرة يوميا، ومع ذلك فقد اتفقت كلمة الإمامية على أن من أجزائه وأجزاء الإقامة «حي على خير العمل». وأجمع أهل السنة بعد شيوع التعليم فيهم على خلاف ذلك. وكالوضوء، فإنه شرع من يوم شرعت الصلاة

(١) سنن الترمذي: ج ٥ ص ٦٦٢ ح ٢٧٨٦ و ٢٧٨٨، صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٨٧٤ ح ٣٦ و ٣٧، ينابيع المودة: ج ١ ص ٩٥ ح ١٢٦، الكافي: ج ٢ ص ٤١٥ باب أدنى ما يكون به العبد مؤمنا أو كافرا أو ضالا من كتاب الإيمان والكفر ح ١، وغيرها من مصادر الفريقين.

في أول البعثة، كما وأنه يستحب لغايات كثيرة أخرى، وكان الصحابة يشاهدون وضوءه صلى الله عليه وآله وسلم في غالب الأوقات، ومع ذلك فقد وقع فيه الكلام والخلاف بين المسلمين، وعلى هذه فقس ما سواها. تلك كانت عمدة أدلة القائلين بالتحريف والجواب عنها، وأدلة القائلين بعدمه والمناقشات فيها. ولكن لما كان هذا البحث علميا صرفا لا تترتب عليه أية نتيجة عملية لأن الكل مجمعون على حجية هذا القرآن وقرآنيته فلا نرى في بسط الكلام في هذا الموضوع مزيد فائدة، فالأولى صرف عنان الكلام إلى إثبات قرآنية هذا القرآن الموجود بالبراهين والأدلة القاطعة، فنقول: أدلة حجية هذا القرآن وقرآنيته: إن عمدة الأدلة في المقام هي: السيرة العملية القطعية من عصر جمع القرآن إلى زماننا هذا من المسلمين بأجمعهم، من دون شك أو تردد من أحد على الإطلاق. وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام يستدلون باستمرار بهذا القرآن على ما يريدون ويرشدون إلى طريق الاستفادة منه، فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لزرارة حينما سأله زرارة: من أين علمت أن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ قال: لمكان الباء[1]. وكذا المسلمون مازالوا يقرءون هذا القرآن، بما فيه من السور والآيات، تقربا إلى بارئهم وامتثالا لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من قرأ سورة كذا أعطي من الحسنات كذا وكذا. وكذلك مازالوا يجدون في هذا القرآن الموجود ما وصفه الله تعالى به من الإعجاز في أحكامه وعدم الاختلاف في آياته، وأنه في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة التي تعجز عنها العقول البشرية. وكذلك هم يحترمونه ويكرمونه، فلا يلمسونه إلا على الطهارة، حتى تلك الآيات التي ادعي نسخ حكمها. إلى غير ذلك من الآثار والأحكام القرآنية التي يرتبونها عليه، وهذا مما يدركه كل مسلم منصف سليم الدين والفطرة[2].

(١) وسائل الشيعة: ج ١ ص ٢٩١ ب ٢٣ من أبواب الوضوء ح ١.

(٢) للمزيد راجع المصادر التي ذكرت في هذه الدراسة، بالخصوص المصادر التفسيرية والمباحث العلمية التي تحدثت عن علوم القرآن الكريم، ففيها مزيد بيان.

الشيعة والقرآن الكريم:

إنّ المشهور بين علماء الشيعة ومحققيهم، والمتسالم عليه بينهم، هو القول بعدم التحريف في القرآن الكريم، وقد نصّوا على أنّ الذي بين الدفّتين هو القرآن المُنْزَل على النبيّ الأكرم ﷺ دون زيادة أو نقصان، ومن الواضح أنّه لا يجوز إسناد عقيدةٍ أو قولٍ إلى طائفةٍ من الطوائف إلاّ على ضوء كلمات أكابر علماء تلك الطائفة، وباعتماد مصادرها المعتبرة، وفيما يلي نقدّم نماذج من أقوال أئمة الشيعة الإمامية منذ القرون الأولى وإلى الآن، لتتّضح عقيدتهم في هذه المسألة بشكل جلي:

١ـ يقول الإمام الشيخ الصدوق قدّس سرّه:

محمّد بن علي بن بابويه القمي، المتوفّى سنة (٣٨١هـ) في كتاب (الاعتقادات): اعتقادنا أنّ القرآن الذي أنزله الله على نبيّه ﷺ هو مابين الدفّتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك، ومبلغ سوره عند الناس مائة وأربع عشرة سورة.. ومن نسب إلينا أنّا نقول إنّه أكثر من ذلك فهو كاذب[١].

٢ـ ويقول الإمام الشيخ المفيد قدّس سرّه:

محمّد بن محمّد بن النعمان، المتوفّى سنة (٤١٣هـ) في (أوائل المقالات): قال جماعة من أهل الإمامة: إنّه لم ينقص من كَلِمة ولا من آية ولا من سورة، ولكن حُذِف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله، وذلك كان ثابتاً منزلاً، وإن لم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هو القرآن المعجز، وعندي أنّ هذا القول أشبه ـ أي أقرب في

---

(١) أوائل المقالات:ص ٥٥.

النظر- مِن مقال من أدّعى نقصان كَلِمٍ من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل، وإليه أمل.

وفي (أجوبة المسائل السروية)، قال: فإن قال قائل: كيف يصحّ القول بأنّ الذي بين الدفّتين هو كلام الله تعالى على الحقيقة من غير زيادة فيه ولا نقصان، وأنتم تروون عن الأئمّة عليهم السلام أنّهم قرؤوا: «كنتم خير أئمّة أُخرجت للناس وكذلك جعلناكم أئمّة وسطاً وقرؤوا يسألونك الأنفال وهذا بخلاف ما في المصحف الذي في أيدي الناس؟

قيل له: إنّ الأخبار التي جاءت بذلك أخبار آحاد لا يُقْطَع على الله تعالى بصحّتها، فلذلك وقفنا فيها، ولم نعدل عمّا في المصحف الظاهر، على ما أُمِرنا به[1] حسب ما بيّناه مع أنّه لا يُنْكر أن تأتي القراءة على وجهين منزلين، أحدهما: ما تضمّنه المصحف، والثاني: ما جاء به الخبر، كما يعترف به مخالفونا من نزول القرآن على أوجهٍ شتّى[2].

٣- ويقول الإمام الشريف المرتضى قدس سره:

عليّ بن الحسين الموسوي، المتوفّى سنة (٤٣٦هـ) في (المسائل الطرابلسيات): «إنّ العلم بصحّة نقل القرآن، كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة، فإنّ العناية اشتدّت، والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حدّ لم يَبْلُغه في ما ذكرناه لأنّ القرآن معجزة النبوّة، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتّى

(١) روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: اقرؤوا كما عُلّمتم...، وقال عليه السلام: اقرؤُوا كما يقرأ الناس.

(٢) المسائل السروية، تحقيق الأستاذ صائب عبد الحميد: ص ٨٣.

عرفوا كلّ شيءٍ اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد؟ !

وقال أيضاً: إنّ العلم بتفضيل القرآن وأبعاضه في صحّة نقله كالعلم بجملته، وجرى ذلك مجرى ما عُلِم ضرورةً من الكتب المصنّفة ككتابي سيبويه والمزني، فإنّ أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلها ما يعلمونه من جملتها، حتّى لو أنّ مُدْخِلاً أدخل في كتاب سيبويه باباً ليس من الكتاب لعُرِف ومُيّز، وعُلِم أنّه مُلْحَقٌ وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في كتاب المزني، ومعلومٌ أنّ العناية بنقل القرآن وضبطِهِ أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء.

وذكر: أنّ من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتدّ بخلافهم، فإنّ الخلاف في ذلك مضافٌ إلى قومٍ من أصحاب الحديث، نقلوا أخباراً ضعيفة ظنّوا صحّتها، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحّته(١).

وذكر ابن حزم أنّ الشريف المرتضى كان يُنكر من زعم أنّ القرآن بُدّل، أو زيد فيه، أو نُقِص منه، ويكفّر من قاله، وكذلك صاحباه أبو يعلى الطوسي وأبو القاسم الرازي.

٤ـ ويقول الإمام الشيخ الطوسي قدّس سرّه :

محمد بن الحسن، المعروف بشيخ الطائفة، المتوفّى سنة (٤٦٠هـ) في مقدمة تفسيره (التبيان): المقصود من هذا الكتاب علم معانيه وفنون أغراضه، وأمّا الكلام في زيادته ونقصانه فممّا لا يليق به أيضاً، لأَنّ الزيادة فيه مجمعٌ على بطلانها، والنقصان منه فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأَليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى رحمه

(١) مجمع البيان: ج ١:ص ٨٣.

الله، وهو الظاهر من الروايات، غير أنّه رُويت روايات كثيرة من جهة الخاصّة والعامّة بنقصان كثير من آي القرآن، ونقل شيءٍ من موضع إلى موضع، طريقها الآحاد التي لا تُوجِب علماً ولا عملاً، والأولى الأعراض عنها وترك التشاغل بها، لأنّه يمكن تأويلها، ولو صَحّت لما كان ذلك طعناً على ما هو موجودٌ بين الدفّتين، فإنّ ذلك معلومٌ صحّته لا يعترضه أحدٌ من الأُمّة ولا يدفعه [١].

٥ـ ويقول الإمام الشيخ الطبرسي قدس سره:

أبو علي الفضل بن الحسن المتوفى سنة (٥٤٨ هـ)، في مقدمة تفسيره (مجمع البيان): ومن ذلك الكلام في زيادة القرآن ونقصانه، فإنّه لا يليق بالتفسير، فأمّا الزيادة فمجمعٌ على بطلانها، وأمّا النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامّة أنّ في القرآن تغييراً ونقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء [٢].

٦- ويقول الإمام الحلي، أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر قدس سره:

المتوفّى (سنة ٧٢٦هـ) في (أجوبة المسائل المهناوية) حيثُ سُئل ما يقول سيدنا في الكتاب العزيز، هل يصحّ عند أصحابنا أنّه نقص منه شيءٌ، أو زِيد فيه، أو غُيِّر ترتيبه، أم لم يصحّ عندهم شيءٌ من ذلك؟

فأجاب: الحقّ أنّه لا تبديل ولا تأخير ولا تقديم فيه، وأنّه لم يزد ولم ينقص، ونعوذ بالله تعالى من أن يُعْتَقَد مثل ذلك وأمثال ذلك، فإنّه يُوجِب

---

(١) تفسير التبيان:ج ١: ص٣.

(٢) مجمع البيان:ج ١:ص ٨٣.

التطرّق إلى معجزة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المنقولة بالتواتر[١].

٧ـ ويقول الإمام الشيخ البهائي قدس سره:

وهو محمد بن الحسين الحارثي العاملي، المتوفّى سنة ١٠٣٠ هـ، كما نقل عنه البلاغي في (آلاء الرحمن): الصحيح أنّ القرآن العظيم محفوظٌ من التحريف، زيادةً كان أو نقصاناً، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**وإنّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ وما اشتهر بين الناس من إسقاط اسم أمير المؤمنين عليه السلام منه في بعض المواضع، مثل قوله تعالى: ﴿**يا أيُّها الرسولُ بَلِّغ ما أُنْزِل إليكَ**﴾ **ـ في عليّ ـ** وغير ذلك، فهو غير معتبرٍ عند العلماء[٢].

٨- ويقول الإمام الشيخ جعفر كاشف الغطاء قدس سره:

المتوفّى سنة (١٢٢٨هـ) في (كشف الغطاء): لا ريب في أنّ القرآن محفوظٌ من النقصان بحفظ الملك الديّان، كما دلّ عليه صريح الفرقان، وإجماع العلماء في جميع الأزمان، ولا عبرة بالنادر، وما ورد في أخبار النقيصة تمنع البديهة من العمل بظاهرها، ولاسيّما ما فيه نقص ثلث القرآن أو كثير منه، فإنّه لو كان كذلك لتواتر نقله، لتوفّر الدواعي عليه، ولاتّخذه غير أهل الإسلام من أعظم المطاعن على الإسلام وأهله، ثمّ كيف يكون ذلك وكانوا شديدي المحافظة على ضبط آياته وحروفه[٣].

٩- ويقول الإمام السيد محسن الحكيم الطباطبائي قدس سره:

وبعد، فإن رأي كبار المحققين، وعقيدة علماء الفريقين، ونوع المسلمين

---

(١) أجوبة المسائل المهناوية، ص ١٢١.

(٢) آلاء الرحمن ج ١:ص ٢٦.

(٣) كتاب كشف الغطاء:ص ٢٢٩.

من صدر الإسلام إلى اليوم على أن القرآن بترتيب الآيات والسور والجمع كما هو المتداول بالأيدي، لم يقل الكبار بتحريفه من قبل، ولا من بعد. [١]

١٠- رأي السيد محمد هادي الميلاني قدس سره:

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. أقول بضرس قاطع إن القرآن الكريم لم يقع فيه أي تحريف لا بزيادة ولا بنقصان، ولا بتغيير بعض الألفاظ، وإن وردت بعض الروايات في التحريف المقصود منها تغيير المعنى بآراء وتوجيهات وتأويلات باطلة، لا تغيير الألفاظ والعبارات. وإذا اطلع أحد على رواية وظن بصدقها وقع في اشتباه وخطأ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا. [٢]

١١- ويقول الإمام السيد محمد رضا الكلبايكاني قدس سره:

وقال الشيخ لطف الله الصافي دام ظله: ولنعم ما أفاده العلامة الفقيه والمرجع الديني السيد محمد رضا الكلبايكاني بعد التصريح بأن ما في الدفتين هو القرآن المجيد، ذلك الكتاب لا ريب فيه، والمجموع المرتب في عصر الرسالة بأمر الرسول صلى الله عليه وآله، بلا تحريف ولا تغيير ولا زيادة ولا نقصان، وإقامة البرهان عليه: أن احتمال التغيير زيادة ونقيصة في القرآن كاحتمال تغيير المرسل به، واحتمال كون القبلة غير الكعبة في غاية السقوط لا يقبله العقل، وهو مستقل بامتناعه عادة[٣].

١٢- ويقول الإمام المجاهد السيد محمد الطباطبائي قدس سره:

المتوفّى سنة (١٢٤٢هـ) في (مفاتيح الأُصول): لا خلاف أنّ كل ما هو

(١) تدوين القرآن: الشيخ الكوراني مصدر سابق.

(٢) تدوين القرآن: الشيخ الكوراني ص١٣٢.

(٣) تفسير الصافي: ج ١ ص ٢٧٦.

من القرآن يجب أن يكون متواتراً في أصله وأجزائه، وأمّا في محلّه ووضعه وترتيبه فكذلك عند محقّقي أهل السنة، للقطع بأنّ العادة تقضي بالتواتر في تفاصيل مثله، لأَنّ هذا المعجز العظيم الذي هو أصل الدين القويم، والصراط المستقيم، ممّا توفّرت الدواعي على نقل جمله وتفاصيله، فما نقل آحاداً ولم يتواتر، يقطع بأنّه ليس من القرآن قطعاً[(١)].

١٣- ويقول الإمام الشيخ محمد جواد البلاغي قدس سره:

المتوفّى سنة (١٣٥٢هـ) في (آلاء الرحمن): ولئن سمعت من الروايات الشاذّة شيئاً في تحريف القرآن وضياع بعضه، فلا تُقِم لتلك الروايات وزناً، وقلَّ ما يشاء العلم في اضطرابها ووهنها وضعف رواتها ومخالفتها للمسلمين، وفيما جاءت به في مروياتها الواهية من الوهن، وما ألصقته بكرامة القرآن ممّا ليس له شَبَه به[(٢)].

١٤ـ ويقول الإمام الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء قدس سره:

المتوفّى سنة (١٣٧٣ هـ) في (أصل الشيعة وأصولها): إنّ الكتاب الموجود في أيدي المسلمين، هو الكتاب الذي أنزله الله إليه للإعجاز والتحدّي، ولتعليم الأَحكام، وتمييز الحلال من الحرام، وإنّه لا نقص فيه ولا تحريف ولا زيادة، وعلى هذا إجماعهم، ومن ذهب منهم، أو من غيرهم من فرق المسلمين، إلى وجود نقصٍ فيه أو تحريفٍ، فهو مخطئ، يَرُدّهُ نص الكتاب العظيم ﴿**إنّا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[(٣)].

(١) البرهان: للبروجردي:ص١٢٠.
(٢) آلاء الرحمن: مصدر سابق.
(٣) سورة الحجر: ٩.

والأَخبار الواردة من طرقنا أو طرقهم الظاهرة في نقصه أو تحريفه، ضعيفة شاذّة، وأخبار آحاد لا تفيد علماً ولا عملاً، فأمّا أن تُؤوّل بنحوٍ من الاعتبار أو يُضْرَب بها الجدار(١).

١٥ـ ويقول الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي قدس سره:

المتوفّى سنة (١٣٧٧هـ)، في (أجوبة مسائل جار الله): إنّ القرآن العظيم والذكر الحكيم، متواترٌ من طُرقنا بجميع آياته وكلماته وسائر حروفه وحركاته وسكناته، تواتراً قطعياً عن أئمة الهدى من أهل البيت لا يرتاب في ذلك إلاّ معتوهٌ، وأئمّة أهل البيت عليهم السلام كلّهم أجمعون رفعوه إلى جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى، وهذا أيضاً ممّا لا ريب فيه. وظواهر القرآن الحكيم، فضلاً عن نصوصه، أبلغ حجج الله تعالى، وأقوى أدلّة أهل الحقّ بحكم الضرورة الأَولية من مذهب الإِمامية، وصحاحهم في ذلك متواترةٌ من طريق العِترة الطاهرة، ولذلك تراهم يضربون بظواهر الصحاح المخالفة للقرآن عرض الجدار ولا يأبهون بها، عملاً بأوامر أئمتهم.

وكان القرآن مجموعاً أيام النبي على ما هو عليه الآن من الترتيب والتنسيق في آياته وسوره وسائر كلماته وحروفه، بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ، ولا تقديمٍ ولا تأخيرٍ، ولا تبديلٍ ولا تغيير(٢).

١٦ـ ويقول السيد الإمام الخميني قدس سره:

المتوفّى سنة (١٤٠٩هـ): إنّ الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه، قراءةً وكتابةً، يقف على بطلان تلك الروايات المزعومة.

---

(١) أصل الشيعة وأُصولها: ط١٥: ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) عبد الحسين شرف الدين: في أجوبة مسائل جار الله: أُنظر ص ٢٨ ـ ٣٧.

وما ورد فيها من أخبار -حسبما تمسّكوا به- إمّا ضعيف لا يصلح للاستدلال به، أو موضوع تلوح عليه إمارات الوضع، أو غريب يقضي بالعجب، أمّا الصحيح منها فيرمي إلى مسألة[١].

١٧ـ ويقول الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي قدس سره:

المتوفّى سنة (١٤١٣هـ)، في (البيان في تفسير القرآن): المعروف بين المسلمين عدم وقوع التحريف في القرآن، وأنَّ الموجود بأيدينا هو جميع القرآن المنزل على النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وقد صرح بذلك كثير من الأعلام، منهم رئيس المحدثين الشيخ الصدوق محمد بن بابويه، وقد عدّ القول بعدم التحريف من معتقدات الإمامية[٢].

ويقول أيضاً: إنّ حديث تحريف القرآن حديث خرافة وخيال، لا يقول به إلاّ من ضعف عقله، أو من لم يتأمّل في أطرافه حقّ التأمّل، أو من ألجأه إليه من يحبّ القول به، والحبّ يعمي ويصمّ، وأمّا العاقل المنصف المتدبّر فلا يشكّ في بطلانه وخرافته[٣].

أما التأويل، والتفسير، فقد حدث فيهما التحريف لا في لفظ القرآن وعباراته.

وتفصيل ذلك يحتاج إلى تأليف كتاب حافل ببيان تاريخ القرآن والمراحل التي قضاها طيلة قرون، ويتلخّص في أنّ الكتاب العزيز هو عين ما بين الدفّتين، لا زيادة فيه ولا نقصان، وأنّ الاختلاف في القراءات أمر حادث، ناشئ عن اختلاف في الاجتهادات، من غير أن يمسّ جانب الوحي

(١) الدولة الإسلامية: ص١٩.

(٢) البيان في تفسير القرآن:ص ٢٠٠.

(٣) البيان في تفسير القرآن:ص ٢٥٩.

الذي نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين[١].

١٨- ويقول أستاذنا آية الله الصادقي (حفظه الله):

في كتابه (الفرقان في تفسير القرآن ج ١ ص)[٢]: ولو لم تكن شنشنة أعرفها من جاهل أو متجاهلين، الذين يخرفون فيهرفون بما لا يعرفون عن القرآن، هرفاً في التحريف لما كتبت عنه شيئاً، لأن القرآن فوق هذه الأقاويل الزور، والتي تسربت إلى أحاديث الإسلام فترسبت عند من غرب عقله، فلذلك أجمل البحث عنه كما أجمله شيخ الطائفة وأضاربه في كتابه (التبيان) ويكفينا على القول بعدم تحريفه ما نطق به القرآن نفسه عندما قال:﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ والذكر هنا القرآن الكريم، ولا نجد آية كآية الحفظ في آية مهمة إسلامية فيها هذه التأكيدات العديدة، فهل نسي الله أم عجز أو بخل عن حفظه وصيانته في تأليفه؟ أو عن زيادته أو نقصانه إذ غُلب على أمره؟ والله غالب على أمره! وهو القائل العزيز: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[٣] لا يأتيه الباطل من أي تهريف أو تحريف، رغم ما يأتيه المبطلون لا يأتيه من بين يديه من وحي سابق يكذبه ويبطله، أو لاحق أو معاصر كذلك، فضلا عن غير الوحي من دس المبطلين، لأنه ﴿**تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾، ثم أن حديث الثقلين، وآيات العرض وأحاديثه، شهود صدقٍ على صيانته عن التحريف، فكيف يكون القرآن المحرف معروضا عليه لكل حادث وحديث؟ أو يكون الثقل الأكبر بعد الرسول ﷺ مع أصغره حتى يردا عليه الحوض؟ وما خرافة تحريف القرآن إلا اختلاقاً

---

(١) تهذيب الأصول، ج ٢:ص ١٦٥.

(٢) إشارة إلى كتاب التفسير لسماحة الأستاذ الشيخ الصادقي.

(٣) سورة فصلت: ٤٢.

إسرائيلياً وجد له سبيلاً إلى غفلة جاهلين، أو طائفيين من سنة وشيعة...[(١)]

١٩- ويقول آية الله الشيخ فاضل النكراني (حفظه الله):

في كتابه مدخل لتفسير القرآن الكريم: وحيث أن مسألة التحريف من المسائل المهمة المتعلقة بالكتاب لا بد من التعرض لها والورود فيها مفصلاً ليزول الشك والارتياب فيها، وتنقدح صيانة الكتاب في أنه المعجزة الخالدة الوحيدة للنبوة والرسالة، والبرنامج الفذ لهداية الناس إلى صلاح أمورهم الدنيوية والدينية، وخروجهم من الظلمات إلى النور إلى يوم القيامة، وإرشادهم إلى الطريق المستقيم والشريعة السمحة السهلة وأرائهم لما يتضمن سعادة الدارين التي هي السعادة المطلوبة، والغاية المنشودة لكل عاقل، ويظهر بطلان ما زعمه القائل بالتحريف، جهلا منه بما يترتب على هذا القول السخيف من التوالي الفاسدة والآثار السيئة، ونقض الغرض، وتطاول المخالفين المعاندين للإسلام والمسلمين من اليهودي والنصارى، وغيرهم من الذين لا يطيقون عظمة هذا الدين القويم، وشوكة المسلمين، ويتشبثون بكل ما يمكن أن ينتهي إلى خذلانهم وضعف عقيدتهم. والعجيب إصرار بعض من ينتحل العلم، ويظهر التعصب في الدين، ويرى لنفسه الفضيلة والمزية على غيره على القول بالتحريف، الذي يتبرأ منه من له أدنى حظ ونصيب من الشعور والعقل، الذي هو الرسول الباطني والحجة الداخلية، والظاهر أن الأيدي الخفية المشبوهة والسياسات المعادية للإسلام هي التي تؤيد هذه العقيدة الباطلة لأمور غير خفية على أهلها فاللازم على الواعي أن تكون له هذه المسؤولية الواقف على هذه الخصوصيات أن لا يقع من حيث لا يشعر، فيما يعود نفعه على المغرضين ويرجع إلى ضعف الدين ويستلزم خذلان المسلمين ويستوجب أن يكون الفرقة المحقة مورداً للتهمة

(١) تفسير الفرقان: ج ١ ص ٤٢-٥٠، للأستاذ.

والافتراء عليهم، لذلك المشهور عندنا وبين أصحابنا الإمامية القول بعدم التحريف في كتاب الله العزيز(١).

هذه نظرتنا في الروايات القائلة بالتحريف:

يقول السيد شرف الدين العاملي المتوفّى سنة (١٣٧٧هـ): لا تخلو كتب الشيعة وكتب أهل السنة من أحاديث ظاهرة بنقص القرآن، غير أنّها ممّا لا وزن لها عند الأعلام من علمائنا أجمع، لضعف سندها، ومعارضتها بما هو أقوى منها سنداً، وأكثر عدداً، وأوضح دلالةً، على أنّها من أخبار الآحاد، وخبر الواحد إنّما يكون حجّة إذا اقتضى عملاً، وهذه لا تقتضي ذلك، فلا يرجع بها عن المعلوم المقطوع به، فليضرب بظواهرها عرض الحائط(٢).

ثلاث حقائق مهمّة!

قبل الخوض في موقف علماء الشيعة من روايات التحريف، وعرض نماذج من هذه الروايات، نرى لزاماً علينا بيان بعض الحقائق المتعلّقة بهذا الموضوع:

١ـ إنّ من يحتجّ على الشيعة في مسألة تحريف القرآن ببعض الأَحاديث الموجودة في كتب بعض علمائهم، فهو متحاملٌ بعيدٌ عن الإنصاف؛ لأَنّه لا يوجد بين مصنّفي الشيعة من التزم الصحّة في جميع ما أورده من أحاديث في كتابه، كما لا يوجد كتابٌ واحدٌ من بين كتب الشيعة وُصِفت كلّ أحاديثه بالصحّة وقوبلت بالتسليم لدى الفقهاء والمحدّثين.

يقول الشيخ العلامة محمّد جواد مغنية: إنّ الشيعة تعتقد أنّ كتب الحديث الموجودة في مكتباتهم، ومنها (الكافي) و(الاستبصار) و (التهذيب)

---

(١) مدخل التفسير: ج ١ ص ١٨٣

(٢) أجوبة مسائل جار الله، المسألة الرابعة:ص ٣١ ـ ٣٧.

و (من لا يحضره الفقيه) فيها الصحيح والضعيف، وإنّ كتب الفقه التي ألّفها علماؤهم فيها الخطأ والصواب، فليس عند الشيعة كتاب يؤمنون بأنّ كلّ ما فيه حقٌّ وصوابٌ من أوّله إلى آخره غير القرآن الكريم، فالأَحاديث الموجودة في كتب الشيعة لا تكون حجةً على مذهبهم ولا على أيّ شيعي بصفته المذهبية الشيعية، وإنّما يكون الحديث حجّةً على الشيعي الذي ثبت عنده الحديث بصفته الشخصية.

ويكفي أن نذكر هنا أنّ كتاب الكافي للشيخ محمد بن يعقوب الكليني المتوفّى ٣٢٩هـ، وهو من الكتب الأربعة التي عليها المدار في استنباط الأحكام الشرعية، يحتوي على ستة عشر ألفاً ومئتي حديث، صنفوا أحاديثه ـ بحسب الاصطلاح ـ إلى الصحيح والحسن والموثق والقوي والضعيف.

٢ـ لا يجوز نسبة القول بالتحريف إلى الرواة أو مصنفي كتب الحديث؛ لأَنّ مجرد رواية أو إخراج الحديث لا تعني أنّ الراوي أو المصنّف يعتقد بمضمون ما يرويه أو يخرجه، فقد ترى المحدث يروي في كتابه الحديثي خبرين متناقضين يخالف أحدهما مدلول الآخر بنحو لا يمكن الجمع بينهما، فالرواية إذن أعم من الاعتقاد والقبول والتصديق بالمضمون، وإلاّ لكان البخاري ومسلم وسواهما من أصحاب الصحاح والمجاميع الحديثية، وسائر أئمّة الحديث، وجُلّ الفقهاء والعلماء عند فرق المسلمين، قائلين بالتحريف؛ لأنّهم جميعاً قد رووا أخباره في كتبهم وصحاحهم! والأَمر ليس كذلك بالتأكيد، فلو صحّ نسبة الاعتقاد بما يرويه الرواة إليهم للزم أن يكون هؤلاء وغيرهم من المؤلّفين ونقلة الآثار يؤمنون بالمتعارضات والمتناقضات، وبما يخالف مذاهبهم ومعتقداتهم، ماداموا يروون ذلك كلّه في كتبهم الحديثية، وهذا ما لم يقل به ولا ادَّعاه عليهم ذو مسكة إذا أراد الإنصاف.

٣- إنّ ما ذهب إليه بعض أهل الفرق إلى القول بتحريف القرآن، أو

إلى رأيٍ يتفرّد به، لا يصحّ نسبة ذلك الرأي إلى تلك الفرقة بأكملها، لاسيما إذا كان ما ذهب إليه قد تعرّض للنقد والتجريح والإنكار من قبل علماء تلك الفرقة ومحقّقيها، فكم من كتبٍ كُتِبت وهي لا تعبّر في الحقيقة إلاّ عن رأي كاتبها ومؤلّفها، ويكون فيها الغثّ والسمين، وفيها الحقّ والباطل، وتحمل بين طيّاتها الخطأ والصواب، ولا يختصّ ذلك بالشيعة دون سواهم، فذهاب قوم من حشوية العامّة إلى القول بتحريف القرآن لا يبرّر نسبة القول بالتحريف إلى أهل السنة قاطبة، وذهاب الشيخ النوري المتوفى (١٣٢٠ هـ) إلى القول بنقص القرآن لا يصلح مبرّراً لنسبة القول بالتحريف إلى الشيعة كافة، وكذا لا يصحّ نسبة أقوال ومخاريق ابن تيميّة التي جاء بها من عند نفسه وتفرّد بها إلى أهل السنة بصورة عامة سيما وإنّ أغلب محققيهم قد أنكروها عليه، فإذا صحّ ذلك فإنّما هو شطط من القول وإسراف في التجنّي وإمعان في التعصّب ومتابعة الهوى[1].

موقف علماء الشيعة من روايات التحريف:

إنّ العلماء الإجلاء والمحققين من الشيعة، لم يلتفتوا إلى ما ورد في مجاميع حديثهم من الروايات الظاهرة بنقص القرآن، ولا اعتقدوا بمضمونها قديماً ولا حديثاً، بل أعرضوا عنها، وأجمعوا على عدم وقوع التحريف في الكتاب الكريم، كما تقدّم في كلمات أعلامهم.

وروايات الشيعة في هذا الباب يمكن تقسيمها إلى قسمين:

١ـ الروايات غير المعتبرة سنداً؛ لكونها ضعيفة أو مرسلة أو مقطوعة، وهذا هو القسم الغالب فيها، وهو ساقط عن درجة الاعتبار.

٢ـ الروايات الواردة عن رجال ثقات وبأسانيد لا مجال للطعن فيها،

---

(١) راجع الشيعة والحاكمون: ص١٤٣. وتفسيره الكاشف: ج١ ص ٥٤.

وهي قليلة جداً، وقد بيّن العلماء أنّ قسماً منها محمولٌ على التأويل، أو التفسير، أو بيان سبب النزول، أو القراءة، أو تحريف المعاني لا تحريف اللفظ، أو الوحي الذي هو ليس بقرآن، إلى غير ذلك من وجوه ذكروها في هذا المجال، ونفس هذه المحامل تصدق على الروايات الضعيفة أيضاً لو أردنا أن ننظر إليها بنظر الاعتبار، لكن يكفي لسقوطها عدم اعتبارها سنداً.

أمّا الروايات التي لا يمكن حملها وتوجيهها على معنى صحيح، وكانت ظاهرة أو صريحة في التحريف، فقد اعتقدوا بكذبها وضربوا بها عرض الحائط وذلك للأَسباب التالية:

١ ـ أنّها مصادفةٌ لما عُلِم ضرورةً من أنّ القرآن الكريم كان مجموعاً على عهد النبوّة.

٢ ـ أنّها مخالفةٌ لظاهر الكتاب الكريم حيثُ قال تعالى: ﴿**إنّا نحنُ نَزّلنا الذِّكر وإنّا لهُ لَحَافِظُون**﴾[(١)].

٣ـ أنّها شاذّةٌ ونادرةٌ، والروايات الدالة على عدم التحريف مشهورةٌ أو متواترةٌ، كما أنّها أقوى منها سنداً، وأكثر عدداً، وأوضح دلالة.

٤ـ أنّها أخبار آحاد، ولا يثبت القرآن بخبر الواحد، وإنّما يثبت بالتواتر، كما تقدّم في أدلّة نفي التحريف، وقد ذهب جماعة من أعلام الشيعة الإمامية إلى عدم حجّية الآحاد مطلقاً، وإنّما قيل بحجيّتها إذا اقتضت عملاً، وهي لا تقتضي ذلك في المسائل الاعتقادية ولا يُعبأ بها[(٢)].

---

(١) سورة الحجرات: ٩.

(٢) للمعرفة ومزيد بيان مراجعة المصادر التي ذكرت في طيات هذا البحث، وكتاب تحريف القرآن عند علماء الشيعة، لمؤلفه الأستاذ علاء الدين العلوي. وكتاب القرآن وجدلية التنزيل مع كتاب خلق القرآن للجاحظ المؤلف د. رشيد الخيون.

علماء الشيعة ونظرية تحريف القرآن:

واجمعوا بكلمة جامعة (أن القرآن غير محرف) وقد جاء في مصنفاتهم سلامة القرآن من يد التحريف مطلقاً، وحكا على هذا إجماع الإمامية. جاء في كتاب الوصائل إلى الرسائل [١]: أن القرآن الحكيم كما نستظهره من الأدلة ومن الحس لم ينقص منه حرف ولم يزد عليه حرف ولم يغير منه حتى فتح أو كسر أو تشديد أو تخفيف ولا فيه تقديم ولا تأخير بالنسبة إلى ما رتبه الرسول في حياته وإن كان فيه تقديم وتأخير حسب النزول فإن القرآن الذي كان في زمن الرسول ﷺ هو نفس القرآن الموجود بأيدينا الآن.

فقد عين الرسول بنفسه مواضع الآيات والسور حسب الذي نجده الآن وهناك روايات تدل على ذلك فقد روي متواتراً أن الرسول قال من ختم القرآن كان له كذا[٢] فلو لم يكن القرآن مجموعا كاملا في زمانه لم يكن معنى لختمه كما أن القرآن كان في زمانه مكتوبا بكامله وموضوعا في مسجده عند منبره يستنسخه من أراد هذا وكان الآلاف من المسلمين قد حفظوا القرآن كله كما في التواريخ. وهكذا بقي القرآن الذي كـــان في زمن الرسول إلى اليوم غضا سالما على ما كان عليه من الترتيب والتنظيم.

ما هو قرآن علي؟

أما مسألة قرآن علي عليه السلام الذي جاء به فلم يقبلوه فإنما يراد به ما جمعه من التفسير والتأويل كما ذكر ذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام بنفسه في رواية رويت عنه، ومن المعلوم أنهم لم يكونوا يريدون التفسير والتأويل لأنه كان امتيازا له عليه السلام، وأما مسألة جمع عمر وجمع عثمان على فرض الصحة فالمراد

---

(١) الوصائل إلى الرسائل، ج ٢ ص ٩٧-١٠٠.

(٢) الكافي: ج٢ ص٦٠٤ ح٥.

بالجمع أن المصاحف المتشتتة التي كتب كل من الصحابة لنفسه جزء منه أتلفت حتى لا يكون هناك مصحف كامل ومصاحف ناقصة إذ من الطبيعي أن مدرس الفقه أو الأصول مثلاً الذي يجمع كلامه تلاميذه يختلفون فيما يكتبونه عنه حيث أن بعضهم يكون غائبا لمرض أو سفر أو ما أشبه فلا يكتب هذا الغائب الكل مع أن الأستاذ بنفسه أو بعض التلاميذ دائمي الحضور يكتبون الكل، وعمر وكذلك عثمان إنما أبادا مثل هذه المصاحف المختلفة والمتشتتة لا القرآن الكامل الذي كان في زمان الرسول.

هذا وقد لاحظت أنا مصاحف كتبت قبل ألف سنة وكانت في خزانة روضة الإمام الحسين عليه السلام فلم تكن إلا مثل هذا القرآن بدون أي تغيير إطلاقاً، كما أن هناك عدة مصاحف موجودة من خط الأئمة عليهم السلام في كل من إيران والعراق وتركيا وكلها كهذا القرآن بلا تغيير أصلاً.

القراءات المختلفة وأما مسألة القراءات فهي شيء حادث كانت حسب الاجتهادات لجماعة خاصة لكن لم يعبأ بها المسلمون لا في زمان القراء ولا بعد زمانهم ولم يعتنوا بها اعتناءً يوجب تغيير القرآن.

ولذا نستشكل نحن في صلاة من يقـــرأ ملك في سورة الحمد مكان مالك أو كفؤاً بالهمزة في سورة التوحيد مكان كفواً بالواو أو ما أشبه ذلك.

والكلام بالكلام -كما يقال- عن مصحف فاطمة الزهراء تماماً كمصحف الإمام علي عليه السلام به أسباب التنزيل وشروحات لبعض الحوادث التاريخية، والمثاقفات العلمية التي مرت على أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام .

وقد يقال: إن هناك فلسفة كبرى ومغزى عميق من تصرف عثمان عندما أمر بحرق المصاحف وأبقى على مصحف واحد هو الخوف من خلخلة المركزية كان وراء أن يبقى مصحف واحد، مثل التوراة التي لم يعرف

منها غير نسخة واحدة، وأخرى بيد السامرة، الذين لا يزيد عددهم بفلسطين على ستمائة، يدعون أن التوراة الأصلية هي التي بيدهم، فلو أبقى عثمان بن عفان على المصاحف لأصبح بيد المسلمين عدة مصاحف، منها مصحف عبدالله بن مسعود، ومصحف أُبي بن كعب، ومصحف حفصة، ومصحف عمر بن الخطاب، ومصحف عثمان بن عفان، ومصحف علي بن أبي طالب وغيرها[١]. ولعل حرقها كان لصيانة وحدة المسلمين فالأمر لم يكن أكثر خطورة من الاختلاف في التفسير والتأويل، فهو قرآن واحد والمسلمون تفرقوا إلى أكثر من سبعين فرقة ومذهب، والقارئ لصفحات التاريخ الجدلي الذي مر على القرآن يرى أنه هذه الحادثة -من حرق المصاحف- لم تمر على المسلمين بسلم بل أُثيرت معارضة شديدة خصوصا في صفوف العراقيين آنذاك.. [٢].

روايات التحريف دخيلة على المسلمين:

كما أن روايات التحريف الموجودة في كتب السنة والشيعة روايات دخيلة أو غير ظاهرة الدلالة وقد تتبعنا ذلك فوجدنا أن الروايات التي في كتب الشيعة تسعين بالمائة منها عن طريق السياري وهو بإجماع الرجاليين كذاب وضاع ضال والبقية بين ما لا سند لها أو لا دلالة لها كما يجدها المتتبع الفاحص. وأما روايات السنة فهي أيضاً تنادي بكذب أنفسها كما لا يخفى على من راجع الروايات في البخاري وغيره.

علماء الشيعة ونظرية جمع القرآن:

ويري علماؤنا أيضاً أن القرآن الكريم كان مجموعا على عهد رسول

(١) جدلية التنزيل: مصدر سابق: ص٣٦.

(٢) كتاب المصاحف: شمس الدين السخاوي: ص ١٧٦.

الله ﷺ وهناك ما يدلل على ذلك منها: ما روي في تفسير علي بن إبراهيم[١] عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله أنه أمر علياً عليه السلام بجمع القرآن وقال: يا علي القرآن خلف فراشي في المصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة، فانطلق علي عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه[٢] وهذه الرواية تدل على أن الرسول ﷺ أمر بجمع القرآن وعلي عليه السلام هو الذي جمعه بأمر مباشر من الرسول ﷺ وذلك في حياته ﷺ كما يستفاد من ظاهر الرواية، وعلى ذلك اتفقت كلمة جمهور فقهاء الشيعة ففي مجمع البيان نقلاً عن السيد المرتضى أنه قال إن القرآن جمع في عهد رسول الله بالشكل الذي هو اليوم بأيدينا.

قال وذكر أيضاً -إشارة للسيد المرتضى- إن القرآن كان على عهد رسول الله ﷺ مجموعا مؤلفا على ما هو عليه الآن واستدل على ذلك أن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتى عُيِّن على جماعة من الصحابة في حفظهم له وأنه كان يعرض على النبي ﷺ ويتلى عليه وأن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدة ختمات وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعا مرتبا غير مبتور ولا مبثوث[٣].

وقال بمقالته قبله الشيخ الصدوق والشيخ المفيد (قدس سرهما) وغيرهما من كبار علماء الشيعة، وقال بمقالته بعده شيخ الطائفة الشيخ الطوسي والمفسر الكبير الشيخ الطبري المتوفى سنة ٥٤٨هـ وباقي علمائنا الأبرار إلى يومنا هذا.

(١) تفسير القمي: سورة الناس، ج ٢ ص ٤٥١.
(٢) بحار الأنوار: ط بيروت، ج ٨٩ ص ٤٨ ب ٧ ح ٧.
(٣) تفسير مجمع البيان: ج١ ص١٥.

وعن زيد بن ثابت أنه قال: كنا نجمع القطع المتفرقة من آيات القرآن ونجعلها بأمر رسول الله ﷺ في مكانها المناسب ولكن مع ذلك كانت الآيات متفرقة فأمر رسول الله ﷺ علياً عليه السلام أن يجمعها في مكان واحد وحذرنا من تضييعها.

وعن الشعبي أنه قال: جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ من قبل ستة نفر من الأنصار.

وفي الصراط المستقيم قال أنس: جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة أبي ومعاذ وزيد وأبو زيد. وعن قتادة أنه قال: سألت أنساً عن انه من جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ فقال أربعة نفر من الأنصار ثم ذكر أسماءهم.

وروي عن أنس أيضا قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة؟ أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد. وعن علي بن رباح إن علياً بن أبي طالب عليه السلام جمع القرآن هو وأبيّ بن كعب في عهد رسول الله ﷺ.

حديث ابن عباس في ترتيب آيات القرآن في المناقب عن ابن عباس أنه قال لما نزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾[1] قال رسول الله ﷺ ليتني أعلم متى يكون ذلك هذا وهو ﷺ يعلم الغيب بإذنه تعالى ووحيه فنزلت سورة النصر فكان بعد نزولها يسكت رسول الله ﷺ بين التكبير والقراءة ثم يقول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقيل له في ذلك، فقال أما أن نفسي نعيت إلي ثم بكى بكاءً شديداً، فقيل يا رسول الله أَوَ تبكي من الموت وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال ﷺ: فأين هول المطلع وأين ضيقة القبر وظلمة اللحد وأين

(١) سورة الزمر: ٣٠.

القيامة والأهوال؟

أراد النبي ﷺ الإلماع إلى الأهوال لا أنه ﷺ يبتلى بها كما هو واضح، ثم قال: فعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة عاماً(١) ثم نزلت آيات وآيات حتى إذا لم يبق على ارتحال رسول الله ﷺ من هذه الدنيا سوى سبعة أيام فنزلت: ﴿**وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ فكانت هذه الآية على بعض الروايات هي آخر آية من القرآن الكريم نزل بها جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ وقال له ضعها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة كما إن أول آية من القرآن كان قد نزل بها جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ هي قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ الآيات. فأول آية من القرآن ابتدأ بأول يوم من البعثة النبوية الشريفة وآخر آية من آيات القرآن اختتم في الأيام الأخيرة لرسول الله ﷺ وما بينهما من فترة كان نزول ما بين هاتين الآيتين وتلك الفترة استغرقت مدة ثلاث وعشرين سنة، وهنا ما يلفت النظر ويجلب الانتباه وهو قول جبرائيل للنبي ﷺ عند نزوله بالآية الأخيرة كما في الرواية ضعها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة فإنه صريح في أن الله تعالى أمر نبيه بجمع القرآن وبترتيبه ترتيباً دقيقاً حتى في مثل ترقيم الآيات وقد فعل النبي ﷺ ذلك في حياته ﷺ كما أمره الله تعالى ولم يكن ﷺ ليترك القرآن متفرقاً حتى يجمع من بعده. وهل يمكن للرسول ﷺ مع كبير اهتمامه وكثير حرصه على حفظ القرآن الكريم أن لا يقوم بجمع القرآن وترتيبه وأن يتركه مبعثراً في أيدي المسلمين ويوكل جمعه إليهم مع أن الوحي أخبره بقوله: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾.

---

(١) راجع بحار الأنوار: ج٢٢ ص٤٧١ ب ١ ح ٢٠ وراجع المناقب ج١ ص٢٣٤ فصل في وفاته.

فهل يصح أن يكون ﷺ حريصاً على القرآن من جهة حتى أنه ﷺ كان يأمر بحفظ القرآن والاهتمام به والتحريض على تلاوته والعمل به وخاصة في أيامه الأخيرة حيث كان يقول مراراً وبألفاظ مختلفة متقاربة: إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً وأن لا يجمع القرآن ويتركه مبعثراً من جهة أخرى؟ ! بل أليس القرآن هو دستور الإسلام الخالد ومعجزته الباقية على مر القرون والأعصار إلى يوم القيامة. ومعه هل يعقل أن يتركه النبي ﷺ مبعثراً من دون أن يجمعه أم كيف يأذن الله تعالى لنبيه بأن لا يقوم بجمعه؟ ! مع أنه تعالى يقول: **﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾** ويقول سبحانه أيضاً: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** فعلى النبي ﷺ إبلاغ القرآن مجموعاً ومرتباً إلى الناس كافة كما جمعه الله تعالى ورتبه.

إذن فهذا القرآن الذي هو بأيدينا على ترتيبه وجمعه وترقيم آياته وترتيب سوره وأجزائه هو بعينه القرآن الذي رتبه رسول الله ﷺ وجمعه للمسلمين في حياته ﷺ وذلك بأمر من الله تعالى لم يطرأ عليه أي تغيير أو تحريف أو تبديل أو تعديل أو زيادة أو نقصان.

الدرس السابع عشر:

الخط الذي كتب به القرآن الكريم

قبل الخوض في غمار هذا البحث، لا بد من المرور على تاريخ الكتابة العربية، وكيف دخلت إلى بلاد الإسلام؟ وكيف تم عمليا كتابة خط القرآن الكريم؟

تاريخ الكتابة العربية:

وبالكاد يجمع المؤرخون على أن الخط دخل إلى مكة بوساطة حرب بن أمية بن عبد شمس(١) وإن كانوا اختلفوا في المصدر الذي تعلم منه حرب بن

---

(١) وترجمته هو: بشر بن عبد الملك أخوا كيدر بن عبد الملك بن عبد الجن الكندى ثم السكوني صاحب دومة الجندل كان بشر المذكور يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانيا فتعلم الخط العربي من أهل الحيرة ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتبا ثم أن بشرا وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلم الخط منهم وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مضر فتعلم الخط منه عمرو بن زرارة بن عدس فسمى عمرو الكاتب ثم أتى بشر الشام فتعلم الخط منه ناس هناك.(راجع فتوح البلدان البلاذري ج ١ ص ٢٧٦، وتاريخ دمشق ج ٣ ص ٢٩٨.

أمية الكتابة، ففي رواية ابن الكلبي أن حربا تعلمها من بشر بن عبد الملك أخي أكيدرين بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وذلك أن حربا تعرف به في أسفاره إلى العراق فتعلم منه الكتابة، ثم قدم معه بشر إلى مكة وتزوج (الصهباء بنت حرب) أخت أبي سفيان وبذلك تيسر لجماعة من قريش والصحابة الأجلاء أن يتعلموا الكتابة والقراءة، وقد أخذ أهل العراق الكتابة عن أهل الأنبار، وأهل الأنبار تعلموا الخط من جماعة من عرب طي أخذوا الكتابة عن كاتب الوحي الذين كانوا برفقة نبي الله هود عليه السلام.

أما المدينة فقد ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخلها وكان فيها يهودي من يهود ما سكة يعلم الصبيان الكتابة وكان فيها بضعة عشر رجلا يعرفونها منهم زيد بن ثابت وكان يكتب العربية والسريانية ثم انتشرت الكتابة بالمدينة أكثر من انتشارها بمكة بتحريض النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد روى انه أمر عبد الله بن سعيد بن العاص أن يعلم الناس الكتابة، وجاء عن عبادة بن الصامت قال علمت ناسا من أهل الصفة الكتابة والقرآن ولقد جعل المسلمون فدية الكاتب من أسارا غزوة بدر الكبرى تعليم عشرة من صبيان المدينة وبذلك كثر المتعلمون حتى بلغ عدد كتابه صلى الله عليه وآله وسلم نحو أربعين رجلا[١].

وهكذا وجدت محافل العلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنشر العلم ومحو معامل الأمية الفكرية والعلمية المنتشر عند المسلمين في بدايات الدعوة المحمدية في مكة والمدينة، حتى تمكن صلى الله عليه وآله وسلم من رفع شأن الكتابة والقراءة والتعليم، فأنزل الله تعالى سورة يحثهم فيها على التعلم. قال تعالى:﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾[٢] فقد كانت هذه الآيات بداية عملية وانطلاقة حضارية نحو تحرير

---

(١) أنظر: كتاب تاريخ الخط العربي وآدابه ص ١٦٥، لمؤلف/ محمد طاهر الكردي.
(٢) سورة العلق: ١ – ٤.

الإنسان من العبودية المادية والفكرية معا، فالوعي بالكتابة والقراءة، والالتصاق بالعلم من كافة جوانبه، دليل على وعي الإنسان... فكانت تلك رسالة النبي ﷺ الجديدة لإنقاذ العلم من براهن الجهل والتخلف والعبودية.

وقد هبطت هذه الآية الكريمة في غار حراء ومع هبوطها استعدت الجزيرة العربية لاستقبال أمة جديدة بالقراءة والكتابة والعلم لأن الأمة التي تسعى وراء العلم، أمة لا تموت.

الخط العربي الذي كتب به القرآن:

بعد أن توصلنا إلى القول: أن الكتابة مرت بمراحل كثيرة حتى وصلت إلى المسلمين في مكة والمدينة، نأتي إلى القول عن وصول نموذج الخط العربي إليهم وكيف تم به كتابة القرآن الكريم؟

تجمع كلمة المؤرخين على القول: أن الخط العربي كان معروفا في بداية نمو المجتمع الإسلامي، إنما الاختلاف الحاصل عندهم عن أولى واضعٍ له، وهذا القول تضاربت أقوال المؤرخين فيه، وقد أشار ابن النديم(ت ٣٨٠هـ) في كتاب (الفهرست ص٢٩) إلى هذا الاختلاف بقوله: اختلف الناس في أول من وضع الخط العربي. فقال هشام الكلبي: أول من وضع ذلك، قوم من العرب العاربة نزلوا في عدنان بن اد. وأسماؤهم، أبو جاد، هواز، حطى، كلمون، صعفض، قريسأت. هذا من خط ابن الكوفي، بهذا الشكل والإعراب وضعوا الكتاب على أسمائهم. ثم وجدوا بعد ذلك حروفا ليست من أسمائهم وهى، الثاء والخاء والذال والظاء والشين والغين، فسموها الروادف. قال: وهؤلاء ملوك مدين، وكان مهلكهم يوم الظلة في زمن شعيب النبي عليه السلام.

ويقال: إن الله تبارك وتعالى انطق إسماعيل بالعربية المبينة، وهو ابن

اربع وعشرين سنة. قال محمد بن اسحق: فأما الذي يقارب الحق وتكاد النفس تقبله فذكر الثقة، أن الكلام العربي بلغة حمير وطسم وجديس وارم وحويل. فهؤلاء هم العرب العاربة. وان إسماعيل لما حصل في الحرم ونشأ وكبر، تزوج في جرهم، إلى معاوية بن مضاض الجرهمي، فهم أخوال ولده، فعلم كلامهم. ولم يزل ولد إسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض، ويضعون للأشياء أسماء كثيرة، بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها. فلما اتسع الكلام، ظهر الشعر الجيد الفصيح في العدنانية وكثر هذا بعد معد بن عدنان. ولكل قبيلة من قبائل العرب لغة تنفرد بها ويؤخذ عنها وقد اشتركوا في الأصل. قال: وان الزيادة في اللغة، امتنع العرب منها مذ بعث الله نبيه ﷺ لأجل القرآن. ومما يصدق ذلك، روى مكحول عن رجاله أن أول من وضع الكتاب العربي، نفيس ونصر وتيما ودومة، هؤلاء ولد إسماعيل، وضعوه مفصلا، وفرقه قادور و نبت بن هميسع بن قادور. قال: وان نفرا من أهل الأنبار، من إياد القديمة وضعوا حروف، ألف. ب. ت. ث. وعنه أخذته العرب قرأت في كتاب مكة لعمر بن شبه وبخطه، اخبرني قوم من علماء مضر، قالوا الذي كتب هذا العربي الجزم، رجل من بني يخلد بن النضر بن كنانة، فكتبت حينئذ العرب. وعن غيره، الذي حمل الكتابة إلى قريش بمكة، أبو قيس بن عبد مناف بن زهره، وقد قيل حرب بن أمية. وقيل انه لما هدمت الكعبة قريش وجدوا في ركن من أركانها حجرا مكتوبا فيه، السلف بن عبقر يقرأ على ربه السلام، من رأس ثلاثة آلاف سنة. وكان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم، في جلد ادم فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة، على فلان بن فلان الحميري، من أهل وزل صنعاء، عليه ألف درهم فضة كيلا بالحديدة. ومتى دعاه بها أجابه، شهد الله والملكان. قال: وكان الخط يشبه خط النساء. ومن كتاب العرب، أسيد بن أبي العيص، أصيب في حجر بمسجد السور عند قبر المريين، وقد حسم السيل عن الأرض، فيه، أنا أسيد

بن أبي العيص، ترحم الله على بني عبد مناف[١].

ومن ثم تمكن الرسول الأعظم ﷺ بعد أن انتشرت الكتابة بهذا الخط العربي، من يطورها تطوراً علمياً بحيث تكون صالحة لكتابة القرآن، والمرسلات لدعوة الناس والحكام إلى الإسلام، وواصلت مسيرته(أي الخط العربي) بنفس الجودة والتطور إلى عهد خلافة الإمام علي عليه السلام والذي استقر في شكله في عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك (الكوفة) ومنها انتشر إلى سائر البلدان الإسلامية، وإن كانت الكوفة فيما بعد الإمام علي عليه السلام يعرف خطها بتميز عن سائر الخطوط المكية والمدنية والشامية والمصرية وهذا التميز مؤطر بنوعين هما: نوع يابس ثقيل صعب الإنجاز، ونوع آخر لين تجري به اليد في سهولة، وهو الخط الذي انتهى إلى الكوفة من المدينة[٢].

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا: أن مسألة (الخط العربي الذي كُتب به القرآن الكريم) أدخل على مسألة كتابته كثير من الإشكالات، إذ أن وحدة مما جعل فكرة التحريف تتسرب إلى ذهنية المسلمين وتراثهم العظيم عن القرآن الكريم، كان سببها (نوعية الخط الذي كتب به القرآن) إذ ظهرت اختلافات بين نسخ الأمصار، رغم أنها نسخت من مصحف واحد، ولكن النسخ كان بأنواع مختلفة من الخطوط!! بين خط كوفي، ومكي، ومدني، وشامي، ومصري فخذا على سبيل المثال:

قرأ العراقيون الآية (١٣٢) من سورة البقرة: (ووصى بها إبراهيم) بينما قرأها المدنيون: (وأوصى بها إبراهيم).

وقرأ العراقيون الآية (١٣٣) من سورة آل عمران: (وسارعوا إلى

---

(١) الفهرست: ابن النديم ص ٨، الطبعة الأولى.

(٢) انظر: كتاب دراسة تطور الكتابات الكوفية، ص ٢٩ د/ إبراهيم جمعة، وكتاب/ دراسة حول القرآن الكريم ص١٣٢، محمد حسن الجلالي.

مغفرة من ربكم) وقرأها المدنيون: (سارعوا لمغفرة من ربكم).

كما أن مسألة كتابة الخط الذي نسخ به القرآن الكريم تعرض لبعض التحريف بسبب تغير الخطوط بين البلدان، وتمرد بعض الحكام في زمانهم على مبادئ الدين وتعاليم الصحابة الأجلاء فهذا الحجاج بن يوسف الثقفي حرف في مصحف الخليفة عثمان. قال بن عوف بن أبي جميلة: إن الحجاج بن يوسف الثقفي غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً، قال: كانت في سورة البقرة: (لم يتسن) انظر بغير الهاء، فغيرها: (لم يتسنه) بالهاء، وكانت في سورة المائدة (شريعة ومنهاجاً) فغيرها: (شرعة ومنهاجاً)[1].

مسألة تنقيط القرآن الكريم:

كما أن لهذه المسألة دور كبير تسبب في تحريف بعض آيات الذكر الحكيم، وهذه المسألة ما كانت على عهد الخلفاء، بل جاءت بعد خلافة الإمام علي عليه السلام، إذا كما هو معروف تاريخاً، ظلت المصاحف بغير تنقيط وتشكيل، وقد تعاهد المسلمون قراءته متوتراً جيلا بعد جيل، ولم يحصل لهم التباس في قراءة المصحف.

الإعجام والتنقيط للقرآن الكريم:

تسمى عملية التفريق بين الحروف المتشابهة بالإعجام، وعملية وضع الحركات وضبط أواخر الكلمات بالتنقيط، وكان ذلك لغرض وضوح القراءة، واستخدموا لذلك أدوات ومحابر وألوان، فكان كل بلد إسلامي يُعرف بلون معين من الإعجام والتنقيط، فأهل العراق مثلاً استخدموا في تنقيط مصاحفهم اللون الأحمر، بينما استخدموا أهل المدينة الأحمر والأصفر، وأستخدم أهل الأندلس الأحمر والأصفر والأخضر، وقد نقل صاحب

(١) الخيولي: جدل التنزيل، نقلا عن كتاب المصحاف والتنقيط، مصدر سابق.

المحكم في تنقيط المصحف ص ٢٠، عن الداني أنه شاهد مصحفا في العراق استخدم فيه لون الحمرة وكانت مشاهدة له في بداية خلافة هشام بن عبد الملك سنة عشرة ومائة، كتبه مغيرة بن مينا في رجب سنة مائة وعشرة، وفيه الحركات والهمزات والتنوين والتشديد نقط بالحمرة[١].

ولعل السؤال هنا هل كان التنقيط بهذا الشكل في عهد رسول الله ﷺ؟ وما هو الداعي لذلك؟

والجواب على هذين السؤالين يقودنا إلى سؤل ثالث ألا وهو: من هو أو من نقط المصحف؟

أول من نقط المصاحف:

تشير المصادر التاريخية إلى أن أول من نقط المصحف هو أبو الأسود الدؤلي (ت ٩٥هـ) استخدم النقط الملونة للدالة على إعراب الكلمة من الضم والنصب والجر وهذا يعني أن الافتقار إلى الأعراب ظهر قبل الافتقار إلى تنقيط الحروف الروادف مع أن الاعتبار يقتضي العكس.

وكانت هناك ضرورة ملحة دعت الدؤلي لتنقيط المصحف.

قال ابن النديم (ت ٣٨٠هـ) بحوث في تاريخ القرآن - السيد مير محمدي ص ١٥٨: وقد اختلف الناس في السبب الذي دعا أبا الأسود إلى ما رسمه من النحو، فقال أبو عبيدة: أخذ النحو عن علي بن أبي طالب أبو الأسود، وكان لا يخرج شيئا أخذه عن علي كرم الله وجهه إلى أحد، حتى بعث إليه زياد أن اعمل شيئا يكون للناس إماما، ويعرف به كتاب الله، فاستعفاه من ذلك، حتى سمع أبو الأسود قارئا يقرأ: (إن الله برئ من

(١) المحكم في تنقيط المصحف: ص ٢٠، نقلا عن جدل التنزيل، مصدر سابق.

المشركين ورسوله) بالكسر. فقال: ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا، فرجع إلى زياد، فقال: أفعل ما أمر به الأمير، فليبغني كاتبا لقنا يفعل ما أقول، فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه، فأتى بآخر، فقال أبو العباس المبرد: أحسبه منهم، فقال أبو الأسود: إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فأنقط فوقه على أعلاه، وإن ضممت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف، فهذا نقط أبي الأسود[١].

وقال أبو هلال العسكري: أبو الأسود أول من نقط المصحف[٢].

أما الدكتور جواد علي فيقول: أغلب روايات أهل الأخبار أن الخط العربي الأول لم يكن مشكلا، وأن الشكل إنما وجد في الإسلام، وكان موجده أبو الأسود الدؤلي، فاستعمل النقط بدل الحركات، ثم أبدل الخليل بن أحمد الفراهيدي النقط برموز أخرى[٣].

والمعروف أن أبا الأسود كان ينقط القرآن بلون غير لون الخط كما قال جرجي زيدان. وأضاف: وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفا كوفيا منقطا على هذه الكيفية، وجدوه في جامع عمرو، بجوار القاهرة، وهو من أقدم مصاحف العالم، ومكتوب على رقوق كبير بمداد أسود، وفيه نقط حمراء اللون، فالنقطة فوق[٤].

إذا: فكانت النتيجة: أن التنقيط كان من أبي الأسود الدؤلي، عندما سمع الناس تقرأ القرآن ملحوناً، فقام بتنقيطه في حدود عام (٥٣هـــ) ويؤكد ما ذكرنه النحوي مهدي المخزومي في كتابه (مدرسة الكوفة

(١) ابن النديم: الفهرست مصدر سابق.
(٢) الأوائل: ج ١ ص ١٣٠.
(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج ٨ ص ١٩٠ -
(٤) تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٣ ص ٦١.

ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ص ١٢٤) فضل أبو الأسود الدؤلي في تنقيط القرآن الكريم. قال: في التنقيط رأينا كيف تشعبت الدراسات القرآنية، وكيف انتهى العلماء إلى أن يتناولوا الجانب اللغوي من القرآن، وكيف تطورت دراسة الجانب اللغوي من النقط الذي أصطنعه أبو الأسود إلى بحث في التأليف بحثاً يتناول الكلمة من حيث أصولها، ومن حيث بناؤها، ومن حيث إعرابها، وإن كانت هناك روايات تشير إلى أن هناك جماعة كبيرة من العلماء تمكنوا من تنقيط القرآن، إلا أنهم ليسو بأسبق من أبي الأسود الدؤلي، بل كانوا تلامذته، ومنهم: يحي بن يعمر (المتوفى سنة ٩٠هـ) وكان قاضيا في مدينة مرو، قرأ القرآن على أبي الأسود الدؤلي، وقيل عنه أنه أول من نقط المصاحف، وذلك قبل تشكيله بمدة طويلة، نفاه الحجاج بن يوسف الثقفي، وولاه قتيبة بن مسلم، قضاء خرسان إلى أن توفي[(١)] ومن بينهم أيضا، نصر بن عاصم الليثي وهو: من تلامذة الدؤلي أيضاً، قرأ عليه حتى عرف بالدؤلي البصري النحوي، روي عن أبو عمرو بن العلاء، وقيل في مذهبه السياسي أنه من الخوارج، توفي (سنة ٨٠هـ، وقيل ١٠٠هـ)[(٢)].

وبهذا تسقط الرواية التاريخية القائلة: أن الحجاج هو أول من نقط المصحف، والذين يؤكدون هذه الرواية المزعومة أرادوا بها منح الحجاج بن يوسف وساما لا يستحقه، لأنه من خصوم أهل البيت عليهم السلام فالحجاج ينحدر من قبيلة لا تقل سخطا على الدعوة الإسلامية من بني أمية، ويكفنا ما ذكره اليعقوبي في تاريخه، حيث قال: أن الحجاج لما دخل المدينة سماها (نتة) وقد سماها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (طيبة)، ولما رأى الناس يطوفون بقبر الرسول ومنبره، قال إنما يطوفون برمة وأعواد!!

---

(١) أنظر: معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار ج ١٠ ص ٦٨.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى، بن سعد ج ٧ ص ٤٨، وإن الخياط، في الطبقات٢٠٧.

كما أن الروايات التاريخية تثبت لنا على سبيل القطع، أن الحجاج هو أول من بدل في مصحف الخليفة عثمان. على ما ذكره السجستاني (ت ٣١٦هـ)[١]

مساهمة فاعلة لبعض علماء النحو والبلاغة:

كما أن مرحلة التنقيط مرت بفترات من مراحل الجمال الخطي، والذي ساهم بها بعض أعلام اللغة والبلاغة والنحو بقسط كبير في إطفاء ناحية جمالية على التنقيط. يقول الزرقاني -كان من الذين ساهموا في تنقيط المصاحف ووضع علامات الخط، الخليل بن أحمد: وأما تبديل النقط الإعرابي بعلامات أخرى- وهي الفتحة والضمة والكسرة - فهو من الخليل بن أحمد الفراهيدي[٢]، ويشهد بهذا ما في المفصل من أن الخليل بن أحمد أبدل النقط برموز أخرى، هي الفتحة والكسرة والضمة. وصرح في موضع آخر بأن الشكل الحاضر بعلامات التنقيط الجمالية من وضع الخليل[٣].

وقال السيوطي في الإتقان: كان الشكل في المصدر الأول نقطا فالفتحة على أول الحرف، والضمة على آخرة، والكسرة تحت أوله، وعليه مشى الداني، والذي اشتهر الآن: الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف، وهو الذي أخرجه الخليل، وهو أكثر وأوضح، وعليه العمل. وقال في موضع

---

(١) أنظر: العقد الفريد، بن عبد ربه الأندلوسي ج ٥ ص٤٩، ط الأولى، والتنوخي في كتابه، الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١٩١.أما في تغير الحجاج لمصحف عثمان، راجع كتاب أبي عمر الداني في كتابه(المصاحف ١١٧.

(٢) الخليل بن أحمد، أفضل الناس في الأدب، وقوله حجة فيه، وهو مخترع علم العروض وفضله أشهر من أن يذكر، وكان إمامي المذهب. (راجع الخلاصة للعلامة الحلي (رحمه الله) ج١ ص ٢٩٨.

(٣) المفصل ج٨ص١٩٠، والزرقاني، مصدر سابق..

آخر: أول من وضع الهمزة والتشديد والروم والإشمام الخليل[١].

من ثم جاءت مرحلة أخرى ألا وهي: من التحسين والتيسير، إذ بطول الزمان وتزايد رغبة المسلمين في قراءة القرآن وتحسينه وتيسيره وضعوا علامات للجزم ولألف الوصل ولغيرها. ثم جاء الخطاطون المهرة، فأضافوا لرسم القرآن رونقا وجمالا. ومن هؤلاء خالد بن أبي الهياج[٢]، المشهور بجمال الخط , ومن بينهم أيضاً: ابن مقلة -المتوفى سنة ٣٢٨هـ الذي يضرب بحسن خطه المثل- كتب القرآن بالخط النسخي الجميل، وزينه بالنقط والإعراب وسائر الرموز المعروفة في الخط القرآني. واستمر الحال على ذلك إلى أن يسر الله المطابع التي أدت دورا هاما في تسهيل الخط والقراءة مع سائر الرموز المطلوبة والإشارات المرغوبة[٣].

---

(١) الإتقان: ج ٢ ص ١٧١

(٢) وهو صاحب أمير المؤمنين علي عليه السلام، والمتوفى حدود سنة ١٠٠ هـ. ويقال: إن سعدا - مولى الوليد وحاجبه - اختاره لكتابة المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك. فكان هو الذي خط قبله المسجد النبوي بالمدينة بالذهب من سورة الشمس إلى آخر القرآن. (راجع تاريخ اليعقوبي: ج ٣ ص ٣٠ و ٣٦)

(٣) للمزيد انظر كتاب بحوث في تاريخ القرآن، ص ٢٨٢، السيد مير زرندي.

الدرس الثامن عشر:

رسم المصحف، وشكله، وإعجامه

نتحدث في هذا الدرس عن مسألة لا تقل أهميتها عن مسألة التنقيط التي مر بها القرآن الكريم، بل أن هذه المسألة لها أهمية من حيثيات عدة، فمسألة رسم القرآن الكريم توقفنا على حقيقة ما كان عليه القرآن، وهل أن رسمه توقيفي، أم اجتهادي؟.

ومن الذي ساهم بوضع رسمه؟.

وهل استمر رسمه كما رسم منذ أن كانت مسألة الرسم أم لا؟.

كما أن بعض المتخصصين في شؤون علوم القرآن أثار مسألة ألا وهي، هل يجوز رسمه بغير الخط العربي أم لا؟.

حيث أثير على هذه المسألة (رسم القرآن الكريم، وشكله، وإعجامه) شبهات عدة، تصدى إليها في حينها أهل الاختصاص.

وكيف كان: إن هذه المسألة مهمة لما لها من علاقة مباشرة بعلوم القرآن الكريم، فيستحسن عدم الخوض فيما ذكره أعلامنا السابقون، ونكتفي بما له علاقة ببحثنا عن (علوم القرآن الكريم).

ما هو رسم المصحف؟

الرسم بمعنى:المرسوم، وفي اللغة الأثر، فهو مصدر أريد به اسم المفعول ويرادفه الخط.

وفي الاصطلاح: علم يعرف به مخالفة مصاحف العثمانية لأصول الرسم القياسي.

وموضوعة: من حيث ما يعرض لها من الحذف والإثبات والزيادة والنقيصة والفصل والوصل ونحو ذلك[١].

توقيفية رسم المصحف:

اختلاف الأعلام في أن رسم المصحف توقيفي، بمعنى أن لا يجوز كتابة المصحف بغير هذا الرسم أو أنه غير توقيفي؟

ذهبت مجموعة كبيرة من أعلام التفسير إلى القول بوقفية الرسم، واستدلوا بعدة أدلة -ذكرها وناقشها كلها (صاحب كتاب (المدخل لدراسة القرآن الكريم) عميد كلية الأصول والتفسير في مصر، الشيخ محمد محمود أبو شهبة فراجع)- ليس هنا محلا لسردها لأن ذكرها يخرجنا عن منهجية بحثنا الخاص بـ(علوم القرآن الكريم).

بينما ذهب آخرون إلى القول: بأنها اجتهادية.

قال أبو عمر الداني (ت٤٤٤هـ) في كتابة المقنع ص١١٦: أن الرسم وحده هو السبب للحن في قراءة القرآن الكريم[٢] ويرى أبن خلدون(ت

(١) راجع: الداني، كتابه المقنع في رسم القرآن ص٢٦٥.
(٢) المقنع: أبي عمر الداني ن ص١١٦، ط الأولى.

٨٠٦هـ) أيضا: أن الرسم ليس توقيفيا، وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب الرسول ﷺ وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابا وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك وأثبت رسما ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه يقولون في مثل زيادة الألف في لا أذبحنه إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأييد إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح. واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر والكمال في الصنائع إضافي بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس..[1].

كما أن الدليل الدامغ على رفض أطروحة (القول بالتوقيف) ما نراه واضحا بين أراء الصحابة وقراءتهم للقرآن الكريم، فقد حصل بينهم اختلاف كبير في رسم القرآن الكريم، في عهد عثمان، فلو كانت المسألة (توقيفية) لما حصل الاختلاف بينهم.

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون ج ١ ص ٤١٩، وكتابة المقدمة، ص٤١٩.

قال أبو عمر الداني(ت٤٤٤هـ): عن ابن شهاب قال اختلفوا يومئذٍ في (التابوت) فقال زيد بن ثابت (التابوه).

وقال ابن الزبير وسعيد وعبدالرحمن(التباوت) فرفعوا اختلافهم إلى عثمان فقال: أكتبوه(التابوت) فإنه لسان قريش[١].

وهذا الذي دعا جملة كبيرة من أهل الاختصاص والفن، تألف كتبا في مسألة الاختلاف الناشئ من الرسم، فقد ألف ابن عامر المقرئ المتوفى (١١٨هـ) كتاباً سماه (اختلاف مصاحف الشام، والحجاز، والعراق)[٢].

ويرى بعض الأعلام، أن المصحف الذي أشار بكتابته عثمان، وقع فيه هو التالي خطأً أيضاً، بسبب النسخ والرسم، ولعل الخليفة استعجل في كتابته ونشره في الأمصار، بالخصوص الكوفة عندما عِلم أنهم يقرؤون القرآن بقراءة ابن مسعود، لما وقع من خلاف بينهما[٣].

وكيف كان: فالرسم التوقيفي لا يمكن قبوله بعد أن عرفتَ أن هناك اختلاف واضح بين جيل الصحابة والقراء الكرام، وأفضل خطوة قام بها بعض أعلام الأزهر الشريف، أنهم لفتوا أنظار العالم الإسلامي لهذه الحقيقة، حيث أصدروا بتاريخ (٥، ذي الحجة، من عام ١٣٥٥هـ) فتوى برئاسة مفتى الأزهر في زمانه الشيخ محمد عبد اللطيف الفحام، فتوى بأن يطبع القرآن الكريم، وينبه في ذيل كل صفحة على ما يكون فيه من الكلمات المخالفة للرسم المعروف[٤].

---

(١) المقنع: مصدر سابق ص١٢١، الدوني.

(٢) راجع: الفهرست لابن نديم، ص٣٩.

(٣) انظر: فتح الباري ج ٩ ص ١٨، والمصاحف، للسجستاني، ص ٣٥

(٤) انظر: مجلة الأزهر، في عددها (صفر من عام١٣٦٨هـ) تحت عنوان تقرير من كتاب الفرقان، ص١٩٢

وعلى أثر هذه الفتوى قام الشيخ عبد الجليل عيسى بطبع المصحف الميسر عام ١٣٨١هـ فوضع لكل كلمة في القرآن تخالف الرسم المعتاد رقماً، ثم وضع معادل الرقم في هامش أسفل الصفحة بالرسم المعتاد(١).

معنى الشكل والإعجام:

الإعجام لغة: الاختبار والتميز، يقال عجمت العود فوجدته هشاً أي فحصت قوته واختبرتها.

قال الزنجاني في كتابه تاريخ القرآن الكريم:المراد بالإعجام: تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لمنع اللبس فالهمة في الإعجام للسلب، أي إزالة العجمة كما في قولك: شكوت إليه فأشكاني، أي أزال شكواي، والمشهور أن اختراع الإعجام كان في عصر عبد الملك بن مروان، والتحقيق يفيد أنه كان قبل الإسلام لأنه عثر على كتابات قديمة محررة قبل خلافة عبدالملك بن مروان، فيها إعجام بعض الحروف كالباء والياء، وشبههما على أنه مع تشابه صور حروف كثيرة كالباء والتاء الثاء بعيداً جداً عدم الإعجام وعدم مميز يميزها. فالحق إن الإعجام موضوع قبل الإسلام، ولكن تساهلوا في شأنه شيئاً فشيئاً حتى نسي، ولم يبق منه إلا النادر، إلى أن جاء زمن عبد الملك، فحتم على كتاب دولته رعايته، وبيان ذلك أن الناس مكثوا يقرأون في مصاحف عثمان نيفاً وأربعين سنة، وقلنا: إن مصاحف عثمان، كانت مجردة عن النقط والشكل ومكث القارئ يقرأ ولا يعلم هل القراءة الصحيحة والقرآن المنزل هو قوله (ننشزها) بالزاي المعجمة أو (ننشرها) بالراء المهملة، أو (لتكون آية لمن خلفك) بالفاء أو (لمن خلقك) بالقاف. ولذلك كثر التصحيف في العراق، ففزع الحجاج أمير العراق إلى كتابه في زمن عبد

(١) راجع:كتابة المصحف المرتل ص٣٨٦.

الملك، وسألهم أن يضعوا علامات لتمييز الحروف المتشابهة، ودعا نصر بن عاصم الليثي، ويحيى بن يعمر العدواني تلميذي أبي الأسود الدؤلي لهذا الأمر، وكانت عامة المسلمين تكره أن يزيد أحد شيئاً على ما في مصحف عثمان ولو للإصلاح خشية الابتداع. وتردد كثير منهم في قبول الإصلاح الذي أدخله أبو الأسود، فبعد البحث والتروي، قرر نصر ويحيى -وكانا من التقوى بحيث لا يتهمان في دينهما- إدخال الإصلاح الثاني وهو أن توضع النقط أفراداً وأزواجاً لتمييز الأحرف المتشابهة بالأسلوب الموجود الآن بيدنا، ولكن سبق القول أن الحركات والسكنات كانت بطريقة النقط. وكذلك الإعجام أيضاً، كان بطريق النقط. فمنعاً للبس بعض الحركات والسكنات والإعجام كان رسم كتابة المصحف مثلاً يكتب الحركة بلون أحمر، والإعجام بلون يخالف الأحمر، قال أبو عمرو: ولا أستجيز النقط بالسواد لما فيه من التغيير لصور الرسم، يعني رسم مصاحف عثمان، ورأى أن يكتب الهمزات بالصفرة! وعلى ذلك مصاحف أهل المدينة. وقال عثمان بن سعيد الداني في كتابه المقنع: وإذا استعملت الخضرة لألفات الوصل على ما أحدث أهل بلدنا قديماً فلا أرى بذلك بأساً. وبلده دانية بالأندلس. وجرى أهل الأندلس على استعمال أربعة ألوان في المصاحف: السواد للحروف، والحمرة للشكل بطريقة النقط، والصفرة للهمزات، والخضرة لألفات الوصل، ولم تشتهر طريقة أبي الأسود إلا في المصاحف حفظاً لقواعد القرآن[١].

الفاصلة في القرآن الكريم:

أشار علماء تفسير القرآن إلى مسألة لها علاقة بما نحن في صدد دراسته (علوم القرآن الكريم) أن هناك مباحث ناقشها العلماء في مسألة (الفاصلة

(١) الزنجاني: تاريخ القرآن، ص ١٩٨

في القرآن)، والمقصود بها: آخر كلمة في الآية، كالقافية في الشعر.

وقد استوعب بحثها تفصيلاً، (د. الصغير) في كتاب مستقل تحت اسم (الفاصلة في القرآن الكريم) ونحن هنا بدورنا لأنها ترتبط مع ما نحن بصدد دراسته والبحث عنه نورد ما تحدث عنه إجمالاً لتعم به الفائدة المرجوة.

قال: وتقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمّى فواصل، لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها. وقد تكون هذه التسمية اقتباساً من قوله تعالى:﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾ ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً، لأن الله لما سلب عن القرآن اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً لأنها منه، وخاصة في الاصطلاح. وما ورد في القرآن متناسق حروف الروي والإيقاع، موحد خاتمة الفاصلة بالصوت، ويقف فيه بالآية على الحرف الذي وقف عنده في الآية التي قبلها، فلا يسمى سجعاً عند علماء الصناعة «ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال: هو سجع معجز، لجاز أن يقولوا: شعر معجز، وكيف والسجع مما كان تألفه الكهّان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوّات بخلاف الشعر».يبدو مما سلف أن مما تواضع عليه جهابذة الفن، وأئمة علوم القرآن، يضاف إليهما علماء اللغة، هو: أن نهاية بيت الشعر تسمى قافية، ونهاية جملة النثر تسمى سجعاً في الأسجاع، ونهاية الآية تسمى فاصلة. وهذا التفريق الدقيق قائم على أساس يجب أن نتّخذه أصلاً، وبرنامج ينبغي القول به دون سواه، وهو أن الكلام العربي ـ مطلقاً ـ على ثلاثة أنواع: قرآن، نثر، شعر، فليس القرآن نثراً وإن استعمل جميع أساليب النثر عند العرب، وليس القرآن شعراً وإن اشتمل على جميع بحور الشعر العربي حتى ما تداركه الأخفش على الخليل فسمي متداركاً وهو

الخبب، بل هو قرآن وكفى ﴿**إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**﴾. وإذا تم هذا فهو كلام الله تعالى وحده، وأن يقاس كلام البشر بكلام الله، هو إذن مميز حتى في التسمية عن كلام العرب تشريفاً له، واعتداداً به، وإن وافق صور الكلام العربي، وجرى على سننه في جملة من الأبعاد، كما يقال عند البعض، أو كما يتوهم، بأن ختام فواصله المتوافقة هي من السجع، فالتحقيق يقتضي الفصل بين الأمرين، لأن مجيء كثير من الآيات على صورة السجع لا توجب كونه هو، أو أنها منه « لأنه قد يكون الكلام على مقال السجع وإن لم يكن سجعاً، لأن السجع من الكلام، يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك مما هو في معنى السجع من القرآن، لأن اللفظ وقع فيه تابعاً للمعنى، وفرقٌ بين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ، وبين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، ومتى ارتبط المعنى بالسّجع كان إفادة السّجع كإفادة غيره ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى ».وقد رأينا عند تعقب هذه الظاهرة: أن التعبير المسجوع في القرآن لا تفرضه طبيعة النسق القرآني فحسب كما يخيل للكثيرين عند النظر في مثل قوله تعالى: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ**﴾. بدليل أنه ينتقل منه فوراً إلى نسق آخر في فاصلة تقف عند النون دون التفات إلى الصيغة الأولى الساربة في طريقها البياني ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾. فإذا جاز للقرآن الانتقال بها، جاز له الانتقال فيما قبلها كما هو ظاهر، بل أن هذا اللفظ "المقابر" يفرض نفسه فرضاً بيانياً قاطعاً، دون حاجة إلى النظر في الفاصلة معه، أو مع محسّنات الفاصلة، وذلك أن هذا الإنسان المتناسي الطاغي المتكاثر بأمواله ولذاته، وشهواته، ومدخراته، ونسائه، وأولاده، ودوره، وقصوره، وخدمه، وحشمه، وإداراته، وشؤونه، وسلطانه، وعنوانه، وهذا كله تكاثر قد يصحبه التفاخر، والتنابز، والتنافر، أقول: إن هذا مما يناسبه لفظ "المقابر" بلاغياً ولغوياً، فالمقابر جمع مقبرة، والمقبرة الواحدة مرعبة هائلة، فإذا ضممنا مقبرة

مترامية الأطراف إلى مقبرة مثلها، ومقبرة أخرى ازددنا إيحاشاً ورعباً وفزعاً، فإذا أصبحت مقابر عديدة، تضاعف الرعب والرهب، إذن هذا التكاثر الشهواني في كل شيء، يوافقه ـ بدقة متناهية ـ الجمع المليوني للقبور، لتصبح مقابر لا قبوراً، ولو قيل في غير القرآن بمساواة القبور للمقابر في الدلالة لما سدّ هذا الشاغر الدلالي شيء آخر من الألفاظ، لها فحسب. ولا يعني هذا التغافل عن مهمة الانسجام الصوتي، والوقع الموسيقي في ترتيب الفواصل القرآنية، فهي مراده في حد ذاتها إيقاعياً، ولكن يضاف إليها غيرها من الأغراض الفنية، والتأكيدات البيانية، مما هو مرغوب فيه عند علماء البلاغة، فقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ**﴾[١]. فقد تقدم المفعول به في الآيتين، وهو اليتيم في الأولى، والسائل في الثانية، وحقه التأخير في صناعة الأعراب، وقد جاء ذلك مراعاة لنسق الفاصلة من جهة، وإلى الاختصاص من جهة أخرى، للعناية في الأمر. ومهما يكن من أمر، فإن السجع عند العرب مهمة لفظية تأتي لتناسق أواخر الكلمات في الفقرات وتلاؤمها، فيكون الإتيان به أنى اتفق لسد الفراغ اللفظي، وأما مهمة الفاصلة القرآنية فليس كذلك، بل هي مهمة لفظية معنوية بوقت واحد، إنها مهمة فنية خالصة، فلا تفريط في الألفاظ على سبيل المعاني، ولا اشتطاط بالمعاني من أجل الألفاظ، بينما يكون السجع في البيان التقليدي مهمة تنحصر بالألفاظ غالباً، لذلك ارتفع مستوى الفاصلة في القرآن بلاغياً ودلالياً عن مستوى السجع فنياً، وإن وافقه صوتياً[٢].

---

(١) سورة الضحى، آية ٩.

(٢) للمزيد من المعرفة أنظر، كتاب د/ محمد حسين الصغير، مصطلح الفاصلة في القرآن، ص ١٣.

الدرس التاسع عشر:

موجز في القراءة والقراء السبعة

هناك شبه اتفاق على أن قراءة القرآن الكريم قبل جمع عثمان كانت حرة لم تتقيد بقراءة رسمية مما دعاه إلى اختيار قراءة رسمية للقرآن الكريم!. قال ابن مجاهد (ت٣٢٤هـ) ما نصه:... إن قراءة القرآن منذ أن كان قراءته حرة (أي من دون تعلم) حتى أمر الخليفة عثمان بقراءة خاصة رسمية له، فكانت القراءة مجتمعة في سبع قراءات، وكان ابن مجاهد أول من سبع القراءة السبع[(١)].

وحتى نقف على حقيقة غاياتها وبعض أعلامها، لا بد لنا من المرور بتعريفها أولاً.حتى يتم لنا التعرف على علم القراءات.

تعريف علم القراءات:

موضوع هذا العلم يتمثل في وضع الضوابط والمعايير لكيفية قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة، نظراً لاختلاف اللهجات في نطق الألفاظ العربية باختلاف القبائل. وقد ازدادت الحاجة لتلك الضوابط بعد أن شاع

---

(١) الجلالي: مصدر سابق دراسة حول القرآن الكريم، ص٢٥٣

اللحن في القراءة بين الموالي، أي المسلمين من غير العرب. وغني عن القول أن الصحابة أنفسهم تعددت قراءاتهم قبل جمع القرآن واعتماد مصحف عثمان بن عفان. لذلك كله جرى وضع ضوابط لتبيان وتحديد القراءات الصحيحة والمعتمدة. وقد تأثرت تلك الضوابط والمعايير بمعطيات سوسيولوجي. وحسبنا أن ظهور هذا العلم ارتهن بالصحوة البورجوازية الأولى التي أفرزت ظاهرة تأسيس وتصنيف وتدوين العلوم. كما اكتملت علميته في عصر الصحوة البورجوازية الثانية على يد ابن مجاهد حوالي عام ٣٠٠هـ. يظهر التأثير السوسيولوجي كذلك في فرز القراءات المختلفة واعتماد الصحيح منها. فالاتجاه النصي قصر الصحيح على سبع قراءات فقط، بينما زادها أصحاب الاتجاه العقلي إلى عشر قراءات، ووصل البعض بها إلى خمس وعشرين قراءة. أما قراءة القرآن باللحن فقد رفضت من قبل المذاهب ـ للتنكيل بقراء الشيعة. يستفاد ذلك من واقعة ضرب الوزير ابن مقلة القارئ ابن شنبوذ (ت ٣٢٨هـ) بالسياط لأن قراءته كانت مخالفة لمصحف عثمان، على الرغم من أن هذه القراءة لم تكن شاذة. والراجح أنه أقدم على فعلته لكونه صاحب مدرسة في الرأي تعول على الاجتهاد ورفض التقليد. من تلاميذ هذه المدرسة محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت ٣٨٨هـ) الذي راجت آراؤه في عصر الصحوة البورجوازية الثانية، وأبو بكر العطار (ت ٣٥٤هـ) الذي قرأ القرآن بطريقة مبتكرة ويرهن على صحتها باستخراج وجوه من اللغة، وذلك في كتابه (الاحتجاج للقراء).

ففي عصر (الإقطاعية) اتبع قراء الأندلس من المالكية ما أتبعه إخوانهم في الشرق. وفي عصر (الصحوة) بدأت تتكون مدرسة مستقلة في القراءات من أعلامها عثمان بن سعيد بن عثمان الداني (ت ٤٤٤هـ) الذي تعددت تواليفه في علم القراءات وراجت رواجاً كبيراً حتى عدل الناس عن غيرها. وليس أدل على انفتاح مذهبه في القراءات من عنوان كتابه المعروف

بكتاب (التيسير). من أعلام هذه المدرسة أيضاً مكي بن أبي طالب القرطبي (ت ٤٣٧هـ) الذي كرس إجادته العربية في ابتكار قراءات جديدة، كما أفاد من تبحره في علم التفسير في تجويد تلك القراءات معولاً على فهمه الحصيف لمعاني القرآن الكريم. هكذا تطور علم القراءات في هذا العصر متأثراً بمعطيات وبمناخات سياسية[١].

من هم القراء السبعة، أو العشرة؟

أما مسألة القراء السبعة فهي من صنع ابن مجاهد(٣٢٤هـ)، فقد سبعها وحصرها فيهم وحاول فرضهم على المجتمع الإسلامي، وقال في كتابه (السبعة ص ٤٥) أن المسوغ لذلك هو: إن الآثار التي رويت في الحروف فكالآثار التي رويت في الأحكام منها المجتمع عليه السائر المعروف، ومنها المتروك المكروه عند الناس المعيب من أخذ به، وإن كان قد روي وحفظ، ومنها ما توهم فيه من رواه، فضيع روايته ونسي سماعه لطول عهده، فإذا عرض على أهله عرفوا توهمه وردوه على من حمله... إلى أن يقول: فهؤلاء نفر من أهل الحجاز والعراق والشام خلفوا في القراءة التابعين، وأجمعت على قراءتهم العوام من أهل كل مصر من هذه الأمصار التي سميت وغيرها من البلدان التي تقرب من هذه الأمصار، كما أنه جدولهم على حسب أسمائهم، ومراكز تواجدهم وفي هذه العجالة نذكرهم بحسب ما ذكرهم ونمزج بعض تراجمهم من خلال عرض الإمام الأعظم أبي القاسم الخوئي (قدس)في كتابه (البيان) وهم كالتالي:

١- عبد الله بن عامر الدمشقي:

هو أبو عمران اليحصبي. قرأ القرآن على المغيرة بن أبي شهاب. قال

(١) د. محمود إسماعيل:تطور العلوم النقلية إبّان عصر الازدهار، ص١٣.

الهيثم بن عمران: كان عبد الله بن عامر رئيس أهل المسجد زمان الوليد بن عبد الملك، وكان يزعم أنه من حمير، وكان يغمز في نسبه. وقال العجلي والنسائي: ثقة. وقال أبو عمرو والداني: ولي قضاء دمشق بعد بلال بن أبي الدرداء... اتخذه أهل الشام إماما في قراءته واختياره[1]. وقال ابن الجزري: وقد ورد في إسناده تسعة أقوال أصحها أنه قرأ على المغيرة. ونقل عن بعض أنه قال: لا يدري على من قرأ. ولد سنة ثمان من الهجرة. وتوفي(سنة ١١٨هـ). ولعبد الله راويان رويا قراءته - بوسائط - وهما: هشام، وابن ذكوان. أما هشام: فهو ابن عمار بن نصير بن ميسرة، أخذ القراءة عرضا عن أيوب ابن تميم، قال يحيى بن معين: ثقة. وقال النسائي: لا بأس به. وقال الدارقطني: صدوق كبير المحل. ولد سنة ١٥٣ وتوفي (سنة ٢٤٥هـ). وقال الآجري عن أبي داود: إن أبا أيوب - يعني سليمان بن عبد الرحمن - خير منه، حدث هشام بأربعمائة حديث مسند ليس لها أصل. وقال ابن وارة: عزمت زمانا أن امسك عن حديث هشام، لأنه كان يبيع الحديث. وقال صالح بن محمد: كان يأخذ علي الحديث، ولا يحدث ما لم يأخذ... قال المروزي: ذكر أحمد هشاما فقال: طياش خفيف وذكر له قصة في اللفظ بالقرآن أنكر عليه أحمد حتى أنه قال: إن صلوا خلفه، فليعيدوا الصلاة[2].

٢ - ابن كثير المكي:

هو عبد الله بن كثير بن عمرو بن عبد الله بن زاذان بن فيروزان بن هرمز المكي الداري، فارسي الأصل. أخذ القراءة عرضا - على ما في كتاب التيسير - عن عبد الله بن السائب فيما قطع به الحافظ أبو عمرو الداني وغيره، وضعف الحافظ -أبو العلاء الهمداني- هذا القول، وقال: إنه ليس بمشهور

(١) تهذيب التهذيب: ج ٥ ص ٢٧٤

(٢) تهذيب التهذيبن: ج ١١ ص ٥٢ - ٥٤.

عندنا وعرض أيضا على مجاهد بن جبر، ودرباس عبد الله بن عباس. ولد بمكة سنة ٤٥ وتوفي (سنة ١٢٠). قال علي بن المديني: كان ثقة. وقال ابن سعد: ثقة. وذكر أو عمرو الداني أنه: أخذ القراءة عن عبد الله بن السائب المخزومي. والمعروف أنه إنما أخذها عن مجاهد[١]. ولعبد الله بن كثير راويان – بوسائط – هما: البزي، وقنبل. أما البزي: فهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة، اسمه بشار، فارسي من أهل همدان، أسلم على يد السائب بن أبي السائب المخزومي. قال ابن الجزري: استاذ محقق ضابط متقن. ولد سنة ١٧٠ وتوفي ٢٥٠ هـ. قرأ البزي على أبي الحسن أحمد بن محمد بن علقمة المعروف بالقواس، وعلى أبي الاخريط وهب بن واضح المكي، وعلى عبد الله ابن زياد بن عبد الله بن يسار المكي. قال العقيلي: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث لا أحدث عنه[٢]. أقول: الكلام في من أخذ القراءة عنه كما تقدم. وأما قنبل: فهو محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن محمد أبو عمرو المخزومي مولاهم المكي. أخذ القراءة عرضاً عن أحمد بن محمد بن عون النبال، وهو الذي خلفه بالقيام بها بمكة، وروى القراءة عن البزي. انتهت إلى قنبل رئاسة الاقراء بالحجاز... وكان على الشرطة بمكة. (ولد سنة ١٩٥ وتوفي ٢٩١هـ). ولي الشرطة فخربت سيرته، وكبر سنه وهرم، وتغير تغيرا شديدا، فقطع الإقراء قبل موته بسبع سنين.

٣- عاصم بن بهدلة الكوفي:

هو ابن أبي النجود أبو بكر الأسدي مولاهم الكوفي. أخذ القراءة عرضا عن زر بن حبيش، وأبي عبد الرحمن السلمي، وأبي عمرو الشيباني. قال أبو بكر بن عياش: قال لي عاصم ما أقرأني أحد حرفا إلا أبو عبد الرحمن

---

(١) النشر في القراءات العشر: ج ١ ص ١٢٠.

(٢) لسان الميزان: ج ١ ص ٢٨٣.

السلمي، وكنت أرجع من عنده فأعرض على زر. وقال حفص: قال لي عاصم: ما كان من القراءة التي أقرأتك بها فهي القراءة التي قرأت بها على أبي عبد الرحمن السلمي عن علي، وما كان من القراءة التي أقرأتها أبا بكر بن عياش فهي القراءة التي كنت أعرضها على زر بن حبيش عن ابن مسعود[١]. قال ابن سعد: كان ثقة إلا أنه كان كثير الخطأ في حديثه. وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: كان خيرا ثقة، والأعمش أحفظ منه. وقال العجلي: كان صاحب سنة وقراءة، وكان ثقة رأسا في القراءة... وكان عثمانيا. وقال يعقوب بن سفيان: في حديثه اضطراب وهو ثقة. وقد تكلم فيه ابن علية، فقال:كان كل من اسمه عاصم سئ الحفظ. وقال النسائي: ليس به بأس. وقال ابن خراش: في حديثه نكرة. وقال العقيلي: لم يكن فيه إلا سوء الحفظ. وقال في حفظه شيء. وقال حماد بن سلمة: خلط عاصم في آخر عمره. (مات سنة ١٢٧ أو سنة ١٢٨هـ)[٢]. ولعاصم ابن بهدلة راويان بغير واسطة هما: حفص، وأبو بكر: أما حفص: فهو ابن سليمان الأسدي، كان ربيب عاصم. قال الذهبي: أما القراءة فثقة ثبت ضابط لها. بخلاف حاله في الحديث. وذكر حفص: أنه لم يخالف عاصما في شيء من قراءته إلا في حرف.. الروم سورة ٣ آية ٥٤: الله الذي خلقكم من ضعف. قرأه بالضم وقرأ عاصم بالفتح (ولد سنة ٩٠ وتوفي سنة ١٨٠هـ). وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله عن أبيه: متروك الحديث. وقال عثمان الدارمي وغيره عن ابن معين: ليس بثقة. وقال ابن المديني: ضعيف الحديث، وتركته على عمد. وقال البخاري: تركوه. وقال مسلم: متروك. وقال النسائي: ليس بثقة، ولا يكتب حديثه. وقال صالح بن محمد: لا يكتب حديثه وأحاديثه كلها مناكير. وقال ابن خراش: كذاب متروك يضع الحديث. وقال ابن حيان: كان يقلب الأسانيد، ويرفع

---

(١) طبقات القراء: ج ١ ص ٣٤٨.

(٢) طبقات القراء:ج ١ ص ٢٥٤.

المراسيل. وحكا ابن الجوزي في الموضوعات عن عبد الرحمن بن مهدي قال: والله ما تحل الرواية عنه. وقال الدارقطني: ضعيف وقال الساجي: حفص ممن ذهب حديثه، عنده مناكير.

وأما أبو بكر: فهو شعبة بن عياش بن سالم الحناط الاسدي الكوفي قال ابن الجزري:عرض القرآن على عاصم ثلاث مرات، وعلى عطاء بن السائب، وأسلم المنقري. وعمر دهرا إلا أنه قطع الاقراء قبل موته بسبع سنين، وقيل بأكثر، وكان إماما كبيرا عالما عاملا، وكان يقول: أنا نصف الإسلام. وكان من أئمة السنة. ولما حضرته الوفاة بكت اخته فقال لها: ما يبكيك، انظري إلى تلك الزاوية فقد ختمت فيها ثمان عشرة ألف ختمة. (ولد سنة ٩٥ وتوفي سنة ١٩٣، وقيل ١٩٤هـ). قال عبد الله بن أحمد عن أبيه: ثقة وربما غلط. وقال عثمان الدارمي: وليس بذاك في الحديث. وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن أبي بكر بن عياش، وأبي الأحوص فقال: ما أقربهما. وقال ابن سعد: كان ثقة صدوقا عارفا بالحديث والعلم، إلا أنه كثير الغلط. وقال يعقوب ابن شيبة: في حديثه اضطراب. وقال أبو نعيم: لم يكن في شيوخنا أحد أكثر غلطا منه. وقال البزار: لم يكن بالحافظ[1]..

٤- أبو عمرو البصيري:

هو زبان بن العلاء بن عمار المازني البصري. قيل إنه من فارس. توجه مع أبيه لما هرب من الحجاج، فقرأ بمكة والمدينة، وقرأ أيضا بالكوفة والبصرة على جماعة كثيرة، فليس في القراء السبعة أكثر شيوخا منه. ولقد كانت الشام تقرأ بحرف ابن عامر إلى حدود الخمسمائة فتركوا ذلك، لأن شخصاً قدم من أهل العراق، وكان يلقن الناس بالجامع الأموي على قراءة

(١) تهذيب التهذيب: ج ١٢ ص ٣٥ - ٣٧.

أبي عمرو، فاجتمع عليه خلق، واشتهرت هذه القراءة عنه. قال الأصمعي: سمعت أبا عمرو يقول: ما رأيت أحدا قبلي أعلم مني. ولد سنة ٦٨هـ. قال غير واحد: (مات سنة ١٥٤هـ). قال الدوري عن ابن معين: ثقة. وقال أبو خيثمة: كان أبو عمرو بن العلاء رجلاً لا بأس به ولكنه لم يحفظ. وقال نصر بن علي الجهضمي عن أبيه: قال لي شعبة: انظر ما يقرأ به أبو عمرو، فما يختاره لنفسه فاكتبه، فإنه سيصير للناس أستاذا. وقال أبو معاوية الأزهري في التهذيب: كان من أعلم الناس بوجوه القراءات، وألفاظ العرب، ونوادر كلامهم وفصيح أشعارهم. ولقراءة أبي عمرو راويان بواسطة يحيى بن المبارك اليزيدي، هما: الدوري، والسوسي. أما يحيى بن المبارك: فقال ابن الجزري: نحوي مقرئ، ثقة علامة كبير. نزل بغداد وعرف باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور الحميري خال المهدي، فكان يؤدب ولده. أخذ القراءة عرضا عن أبي عمرو، وهو الذي خلفه بالقيام بها، وأخذ أيضا عن حمزة. روى القراءة عنه أبو عمرو الدوري، وأبو شعيب السوسي، وله اختيار خالف فيه أبا عمرو في حروف يسيرة. قال ابن مجاهد: وإنما عولنا على اليزيدي - وإن كان سائر أصحاب أبي عمرو أجل منه - لأجل أنه انتصب للرواية عنه، وتجرد لها، ولم يشتغل بغيرها، وهو أضبطهم. (توفي سنة ٢٠٢هـ) بمرو. وله أربع وسبعون سنة. وقيل: بل جاوز التسعين، وقارب المائة[١]. وأما الدوري: فهو حفص بن عمرو بن عبد العزيز الدوري الازدي البغدادي. قال ابن الجزري: «ثقة ثبت كبير ضابط أول من جمع القراءات». توفي في شوال سنة ٢٤٦هـ. قال الدارقطني: «ضعيف». وقال العقيلي: «ثقة»[٢].

(١) طبقات القراء: ج ٢ ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

(٢) تهذيب التهذيب: ج ٢ ص ٤٠٨.

٥- حمزة الكوفي:

هو ابن حبيب بن عمارة بن إسماعيل أبو عمارة الكوفي التميمي، أدرك الصحابة بالسن. أخذ القراءة عرضا عن سليمان الأعمش، وحمران بن أعين. وفي كتاب الكفاية الكبرى والتيسير عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وطلحة بن مصرف، وفي كتاب التيسير عن مغيرة بن مقسم ومنصور وليث بن أبي سليم، وفي كتاب التيسير والمستنير عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قالوا: استفتح حمزة القرآن من حمران، وعرض على الأعمش وأبي إسحاق وابن أبي ليلى، وإليه صارت الإمامة في القراءة بعد عاصم والأعمش، وكان إماما حجة ثقة ثبتا عديم النظير. قال عبد الله العجلي: قال أبو حنيفة لحمزة: شيئان غلبتنا عليهما لسنا ننازعك فيهما: القرآن والفرائض. وقال سفيان الثوري: غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض. وقال عبد الله بن موسى: وكان شيخه الاعمش إذا رآه قد أقبل يقول: هذا حبر القرآن. ولد (سنة ٨٠ وتوفي سنة ١٥٦هـ). قال ابن معين: ثقة. وقال النسائي: ليس به بأس. وقال العجلي: ثقة رجل صالح. وقال ابن سعد: كان رجلا صالحا عنده أحاديث وكان صدوقا صاحب سنة. وقال الساجي: صدوق سيئ الحفظ ليس بمتقن في الحديث. وقد ذمه جماعة من أهل الحديث في القراءة. وأبطل بعضهم الصلاة باختياره من القراءة. وقال الساجي أيضا والازدي: يتكلمون في قراءته وينسبونه إلى حالة مذمومة فيه. وقال الساجي أيضا: سمعت سلمة بن شبيب يقول: كان أحمد يكره أن يصلي خلف من يصلي بقراءة حمزة. وقال الآجري عن أحمد بن سنان: كان يزيد - يعني ابن هرون - يكره قراءة حمزة كراهية شديدة. قال أحمد بن سنان: سمعت ابن مهدي يقول: لو كان لي سلطان على من يقرأ قراءة حمزة لأوجعت ظهره وبطنه. وقال أبو بكر بن عياش: قراءة حمزة عندنا بدعة. وقال ابن دريد: إني لاشتهي أن يخرج من الكوفة قراءة حمزة[١]. ولقراءة حمزة راويان بواسطة، هما:

---

(١) تهذيب التهذيب: ج ٣ ص ٢٧.

خلف بن هشام، وخلاد بن خالد: أما خلف: فهو أبو محمد الأسدي بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي. قال ابن الجزري: أحد القراء العشرة، وأحد الرواة عن سليم عن حمزة، حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وابتدأ في الطلب وهو ابن ثلاث عشر، وكان ثقة كبيرا زاهدا عابدا عالما. قال ابن اشته: كان خلف يأخذ بمذهب حمزة إلا أنه خالفه في مائة وعشرين حرفا. ولد سنة ١٥٠، ومات سنة ٢٢٩هـ. قال اللالكائي: سئل عباس الدوري عن حكاية عن أحمد بن حنبل في خلف ابن هشام. فقال: لم أسمعها ولكن حدثني أصحابنا أنهم ذكروه عند أحمد، فقيل انه شرب فقال: انتهى لينا علم هذا، ولكنه -والله- عندنا الثقة الأمين. وقال النسائي: بغدادي ثقة. وقال الدارقطني: كان عابدا فاضلا. قال: أعدت صلاة أربعين سنة كنت أتناول فيها الشراب على مذهب الكوفيين. وحكا الخطيب في تاريخه عن محمد بن حاتم الكندي قال: سألت يحيى بن معين عن خلف البزار فقال: لم يكن يدري ايش الحديث[١]. أقول: وسيجيء الكلام فيمن روى قراءته. وأما خلاد بن خالد: فهو أبو عيسى الشيباني الكوفي. قال ابن الجزري: إمام في القراءة ثقة عارف محقق أستاذ. أخذ القراءة عرضا عن سليم، وهو من أضبط أصحابه وأجلهم. توفي سنة ٢٢٠هـ.

٦- نافع المدني:

هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم. قال ابن الجزري: أحد القراء السبعة والأعلام ثقة صالح، أصله من أصبهان. أخذ القراءة عرضا عن جماعة من تابعي أهل المدينة. قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس يقول: قراءة أهل المدينة سنة، قيل له: قراءة نافع؟ قال: نعم. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي أي القراءة أحب إليك؟ قال: قراءة أهل المدينة. قلت: فإن لم يكن قال: عاصم.(مات سنة ١٦٩هـ.قال أبو طالب عن

(١) تهذيب التهذيب: ج ٣ ص ١٥٦.

أحمد: كان يؤخذ عنه القرآن، وليس في الحديث بشيء. وقال الدوري عن ابن معين: ثقة. وقال النسائي: ليس به بأس. وذكر ابن حيان في الثقات، وقال الساجي: صدوق... اختلف فيه أحمد ويحيى. فقال أحمد: منكر الحديث. وقال يحيى: ثقة[١]. ولقراءة نافع راويان بلا واسطة. هما قالون، وورش: أما قالون: فهو عيسى بن ميناء بن وردان أبو موسى. مولى بني زهرة يقال إنه ربيب نافع، وهو الذي سماه قالون لجودة قراءته. فإن قالون باللغة الرومية جيد. قال عبد الله بن علي: إنما يكلمه بذلك لان قالون أصله من الروم كان جد جده عبد الله بن سبي الروم، أخذ القراءة عرضا عن نافع. قال ابن أبي حاتم: كان أصم، يقرئ القرآن ويفهم خطأهم ولحنهم بالشفة. ولد سنة ١٢٠، وتوفي سنة ٢٢٠ هـ. قال ابن حجر: أما في القراءة فثبت، وأما في الحديث فيكتب حديثه في الجملة. سئل أحمد بن صالح المصري عن حديثه فضحك وقال: تكتبون عن كل أحد[٢].

٧- الكسائي الكوفي:

هو علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي، مولاهم من أولاد الفرس. قال ابن الجزري: الإمام الذي انتهت إليه رئاسة القراء بالكوفة بعد حمزة الزيات. أخذ القراءة عرضا عن حمزة أربع مرات وعليه اعتماده. وقال أبو عبيد في كتاب القراءات: كان الكسائي: يتخير القراءات فأخذ من قراءة حمزة ببعض وترك بعضا واختلف في تاريخ موته، فالصحيح الذي أرخه غير واحد من العلماء والحفاظ سنة ١٨٩هـ[٣]. أخذ القراءة عن حمزة الزيات مذاكرة، وعن محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى، وعيسى بن

(١) تهذيب التهذيب: ج ١٠ ص ٤٠٧.
(٢) لسان الميزان: ج ٤ ص ٤٠٨.
(٣) معجم الأدباء: ج ٥ ص ١٨٥.

عمرو الأعمش، وأبي بكر بن عياش، وسمع منهم الحديث، ومن سليمان بن أرقم، وجعفر الصادق عليه السلام، والعزرمي، وابن عيينة... وعلم الرشيد، ثم علم ولده الأمين[١] وحدث المرزباني فيما رفعه إلى ابن الأعرابي، قال: كان الكسائي أعلم الناس على رهق فيه، كان يديم شرب النبيذ، ويجاهر ب... إلا أنه كان ضابطا قارئا علما بالعربية صدوقا[٢]. وللكسائي راويان بغير واسطة. هما الليث بن خالد، وحفص بن عمر. أما الليث: فهو أبو الحارث بن خالد البغدادي. قال ابن الجزري: ثقة معروف حاذق ضابط. عرض على الكسائي وهو من أجلة أصحابه مات سنة ٢٤٠هـ.

وأما الثلاثة المتممة للعشرة فهم: خلف بن هشام (ت٢٩٢هـ)، ويعقوب بن إسحاق (ت٢٠٥هـ)، ويزيد بن القعقاع(ت١٣٠هـ) وترجمة هؤلاء نوكلها لمصادرها برجوع الباحث أو الدارس إليها بالخصوص ما اعتمدنا عليه من مصادر معتمدة كتفسير الإمام الخوئي قدس سره فراجع.

قراءة أهل البيت عليهم السلام:

ومن المعروف تاريخا أن لأهل البيت عليهم السلام قراءة خاصة لم تشتهر في العصر الأموي ولا العباسي، وكانت لا تزال في مطاوي كتب القراءات، فقد كانت لعلي عليه السلام قراءة تشير إليها المصادر على أنها خاصة بمدرسته، إذا أخذ عنه كثيرون من القراء أمثال:

١-عبدالله بن عباس (ت٦٨هـ).

٢- سعيد بن جبير الكوفي (ت ٩٥هـ).

٣- أبو عبد الرحمن السلمي (ت٧٤هـ) وهو شيخ قراء عاصم

(١) تهذيب التهذيب: ج ٧ ص ٣١٣.

(٢) معجم الأدباء:ج ٥ ص ١٨.

المشهور، وقد ألف في قراءة الإمام علي عليه السلام كتابا أسمه (قراءة أمير المؤمنين عليه السلام[١] ويظهر من رواية ابن طاووس (ت٦٦٤هـ) التي أشار فيها في كتابه (سعد السعود ص ١٢١).

مع ذلك لا نري اليوم في الحواضر العلمية لدى الشيعة من يقرأ بقراءة أهل البيت عليهم السلام بل أنهم يقرؤون بقراء (عصام براوية حفص دون استثناء) وهذه كانت توصيات أهل البيت عليهم السلام أن يقرأ شيعتهم القراء كما عملوا.

جاء في الرواية عن سهل عن علي بن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن داود بن فرقد، عن المعلى بن خنيس جميعا قال: كنا عند أبي عبدالله الصادق عليه السلام فقال: إن كان ابن مسعود لا يقرأ على قراءتنا فهو ضال، ثم قال عليه السلام: أما نحن فنقرؤه على قراءة أبي[٢].

وسيرة علماء الشيعة على هذا المنهج في القراءة والفقه على حد سواء، فذهبوا إلى وجوب متابعة إحدى القراءات السبع المتواترة في الصلاة، وإهمال القراءة الشاذة سواءً كانت مروية عنهم أم عن غيرهم.

قال الشيخ الجلالي: وقراءة أهل البيت عليهم السلام أكثر انطباقا مع قواعد القراءات المعمولة عليها منذ عهد ابن الجزري (ت٨٣٣هــ) وهي:

- موافقة رسم الخط العثماني.
- موافقة العربية بوجه.

صحة السند، وعلى هذا قاله الإمام الأعظم السيد محسن الحكيم في مستمسكه. قال قدس سره:... هذا كله يظهر لك الإشكال في حمل النصوص

---

(١) الفهرست: ابن النديم، ص١٧٧، ط الأولى.

(٢) الوسائل: ج ٤ ص ٨٢١.

المذكورة وغيرها على خصوص قراءة السبعة أو أنها القدر المتيقن منها، لصدورها عن الصادق عليه السلام والكاظم عليه السلام قبل حدوث بعض هذه القراءات أو قبل اشتهاره ولاسيما قراءة الكسائي فكيف يحتمل أن تكون مراده بهذه النصوص؟ بل مقتضى النصوص اختصاص الجواز بما كان يقرؤه الناس في ذلك العصر لا غير، فيشكل الشمول لبعض القراءات السبع إذا لم يعلم أنها كانت متداولة وقتئذ. هذا ولكن الظاهر من النصوص المنع من قراءة الزيادات التي يرويها أصحابهم عليهم السلام عنهم عليهم السلام ولا نظر فيها إلى ترجيح قراءة دون أخرى فتكون أجنبية عما نحن فيه. والذي تقتضيه القاعدة أن ما كان راجعاً إلى الاختلاف في الأداء من الفصل والوصل، والمد والقصر، ونحو ذلك لا تجب فيه الموافقة لأحدى القراءات فضلاً عن القراءات السبع، وما كان راجعاً إلى الاختلاف في المؤدى يرجع فيه إلى القواعد المعول عليها في المتباينين، أو الأقل والأكثر، أو التعيين والتخيير، على اختلاف مواردها، لكن يجب الخروج عن ذلك بالإجماع المتقدم عن التبيان ومجمع البيان، المعتضد بالسيرة القطعية في عصر المعصومين عليهم السلام على القراءة بالقراءات المعروفة المتداولة في الصلاة وغيرها من دون تعرض منهم عليهم السلام للإنكار، ولا لبيان ما تجب قراءته بالخصوص الموجب للقطع برضاهم عليهم السلام بذلك كما هو ظاهر(١).

وقال الإمام الخوئي قدس سره:

وذهب الجمهور من علماء الفريقين إلى جواز القراءة بكل واحدة من القراءات السبع في الصلاة، بل ادعي على ذلك الإجماع في كلمات غير واحد منهم وجوز بعضهم القراءة بكل واحدة من العشر، وقال بعضهم بجواز القراءة بكل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف

---

(١) المستمسك: السيد الحكم(قدس) ج ٦ ص ٤٥.

العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها، ولم يحصرها في عدد معين. والحق: أن الذي تقتضيه القاعدة الأولية، هو عدم جواز القراءة في الصلاة بكل قراءة لم تثبت القراءة بها من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو من أحد أوصيائه المعصومين عليهم السلام، لان الواجب في الصلاة هو قراءة القرآن فلا يكفي قراءة شيء لم يحرز كونه قرآنا، وقد استقل العقل بوجوب إحراز الفراغ اليقيني بعد العلم باشتغال الذمة، وعلى ذلك فلا بد من تكرار الصلاة بعد القراءات المختلفة أو تكرار مورد الاختلاف في الصلاة الواحدة، لإحراز الامتثال القطعي، ففي سورة الفاتحة يجب الجمع بين قراءة «مالك»، وقراءة «ملك». أما السورة التامة التي تجب قراءتها بعد الحمد - بناء على الأظهر - فيجب لها إما اختيار سورة ليس فيها اختلاف في القراءة، وإما التكرار على النحو المتقدم. وأما بالنظر إلى ما ثبت قطعيا من تقرير المعصومين عليهم السلام شيعتهم على القراءة، بأية واحدة من القراءات المعروفة في زمانهم، فلا شك في كفاية كل واحدة منها. فقد كانت هذه القراءات معروفة في زمانهم، ولم يرد عنهم أنهم ردعوا عن بعضها، ولو ثبت الردع لوصل إلينا بالتواتر، ولا أقل من نقله بالآحاد، بل ورد عنهم عليهم السلام إمضاء هذه القراءات بقولهم: «اقرأ كما يقرأ الناس. اقرؤوا كما علمتم». وعلى ذلك فلا معنى لتخصيص الجواز بالقراءات السبع أو العشر، نعم يعتبر في الجواز أن لا تكون القراءة شاذة، غير ثابتة بنقل الثقات عند علماء أهل السنة، ولا موضوعة، أما الشاذة فمثالها قراءة «ملك يوم الدين» بصيغة الماضي ونصب يوم، وأما الموضوعة فمثالها قراءة «إنما يخشى الله من عباده العلماء» برفع كلمة الله ونصب كلمة العلماء على قراءة الخزاعي عن أبي حنيفة. وصفوة القول: أنه تجوز القراءة في الصلاة بكل قراءة كانت متعارفة في زمان أهل البيت عليهم السلام[1].

---

(١) لبيان في تفسير القرآن: السيد الخوئي ص ١٦٧.

ويقول الإمام البلاغي قدس سره في تفسير (آلاء الرحمن ج ١ ص ٣): إنا معاشر الشيعة الإمامية قد أمرنا بأن نقرأ كما يقرأ الناس أي نوع المسلمين وعامتهم..[1].

هذا آخر ما أردنا بيانه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وأهل بيته الطاهرين.

قم المقدسة

١٨-٧-١٤٢٥هـ

(١) آلاء الرحمن: ج ١ ص ٣.

أهم المصادر

١- القرآن الكريم.
٢- إحياء العلوم، الشيخ الغزالي، طبعة دار المعرفة.
٣- أصول الشيعة وأصولها، كاشف الغطاء طبعه خامسة عشر.
٤- آلاء الرحمن، طبعة معجم التفاسير.
٥- تاريخ الأدب العربي، بروكلمان طبعه دار التراث بيروت.
٦- تاريخ التشريع الإسلامي، مناهج الجامعة العالمية في لندن.
٧- تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، السيد حسن الصدر طبعه دار الآفاق الجديدة.
٨- تدوين القرآن، الشيخ علي الكوراني، طبعة المعجم الفقهي.
٩- التعريفات، الجرجاني طبعة موسوعة طالب العلم.
١٠- تفسير الدر المنثور، طبعة.دار المعرفة بيروت.
١١- تفسير الفرقان، الدكتور الصادقي، طبعة معجم التفاسير.
١٢- تفسير القمي، طبعة المعجم التفاسير.
١٣- تفسير الكبير، الفخر الرازي، طبعة معجم التفاسير.
١٤- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، طبعة دار التراث الإسلامي.
١٥- تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، طبعة معجم التفاسير.
١٦- تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي طبعة دار المعرفة

١٧- التفسير والمفسرين، الذهبي طبعة موسوعة طالب العلم.
١٨- دراسات في الحديث والمحدثين، السيد هاشم معروف الحسني طبعه المعجم الفقهي.
١٩- دراسات في القرآن، د أحمد خليل، طبعة دار الوفاق.
٢٠- دراسات في حضارة الإسلام، هلمتون جب.
٢١- دراسات قرآنية، د الصغير طبعه تهذيب التهذيب طبعة. الموسوعة العلمية لطالب العلم.
٢٢- سعد السعود، ابن طاؤس، طبعة دار الذخائر.
٢٣- شرح أصول الكافي، المازندراني، طبعة المعجم.
٢٤- الشيعة والحاكمون، الشيخ محمد وجواد مغنية طبعه دار التيار الجديد.
٢٥- الصحاح، الجوهري، طبعة دار التراث الإسلامي.
٢٦- طبقات القراء، طبعه برنامج طالب العلم.
٢٧- علوم القرآن، السيد الحكيم، طبعة، المعجم الفقهي.
٢٨- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر، طبعة دار المعرفة بيروت.
٢٩- فجر الإسلام، احمد أمين المصري طبعه دار التراث.
٣٠- فجر الإسلام، أحمد أمين، طبعة دار الكتاب العربي.
٣١- الفهرست، ابن النديم البغدادي طبعه المعجم الفقهي.
٣٢- القرآن رؤية منهجية جديدة، د صلاح رسلان طبعه دار الثقافة للنشر.
٣٣- كنز الفوائد، المحقق الكركي طبعه دار الاخواء.
٣٤- لسان الميزان، طبعه دار الفكر.
٣٥- لمحات من تاريخ القرآن الكريم، محمد علي الأشقر طبعه دار المعارف بيروت.
٣٦- متشابه القرآن طبعه، موسوعة طالب العلم.

٣٧- متى جمع القرآن الكريم طبعه الموقع الخاص للإمام الشيرازي على الإنترنت).
٣٨- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٦٣هـ.
٣٩- مجلة رسالة الإسلام، العدد الحادي عشرة، طبعة دار التقريب، القاهرة.
٤٠- المستمسك، الإمام الحكيم طبعه إحياء التراث العربي
٤١- مسند الإمام أحمد، طبعة المعجم الفقهي.
٤٢- معجم الأدباء، طبعه برنامج طالب العلم.
٤٣- المفردات، الأصفهاني طبعة، موسوعة طالب العلم.
٤٤- مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني طبعه دار إحياء التراث.
٤٥- الموجز في علوم القرآن، د العطار طبعه مؤسسة الآعلمي للمطبوعات.
٤٦- نحو القرآن، د، البهي، طبعة دار الفكر بيروت.
٤٧- النشر في القراءات العشر طبعة دار الإيمان بيروت.
٤٨- نهج البلاغة.
٤٩- الوصائل للرسائل، الشيرازي طبعه دار الإيمان.

كتب للمؤلف

كتب مطبوعة للمؤلف:

١- الخمر حرمتها ومضارها على الإنسان، طبع في دار البيان العربي.

٢- الدين في منظار الغرب، طبع في دار البيان العربي.

٣- فقدان الإيمان طريق الدمار، طبع في دار البيان العربي.

٤- أعداء الأمة ودعاتها بين المنهجية والتطبيق، طبع في دار الخليج العربي.

٥- فقدان الوعي طريق الدمار، طبع في دار الهادي.

٦- ليلة القدر أنعطافة تغيرية، طبع في دار النخيل.

٧- العوامية مجد و أعلام.طبع في دار الخليج العربي.

٨- المرأة مشكلات وحلول، طبع في دار أم القرى.

٩- المراهقة مشكلات وحلول، طبع في دار الصفوة.

١٠- القطيف وملحقاتها أبعاد وتطلعات، طبع في شركة الشيخ للتحقيق والنشر، بيروت.

١١- المرأة وتغيير الهوية، الموضة والزينة نموذجا.طبع في بيروت مكتبة الفخراوي..

١٢- الإسلام والتغلب على الآلام، طبع في بيروت.مكتبة الفخراوي.

١٣- الانحرافات الاجتماعية مشكلات وحلول، طبع في دار الهادي

١٤- آداب التعليم في الإسلام، طبع في دار الهادي.

١٥- الدراما في القرآن الكريم، طبع في دار أم القرى.

١٦-الموجز في مقامات أهل البيت (ع)، طبع في شركة الشيخ للتحقيق والنشر، بيروت.

١٧- نحن وعاشوراء، طبع، في شركة الشيخ للتحقيق والنشر، بيروت.

١٨- هذا الكتاب- الموجز في علوم القرآن- بين يديك.

١٩- لماذا نبكي حسينا، طبع دار الخليج العربي.

٢٠- اللين نجاتنا، طبع مكتبة الفخراوي - البحرين.

٢١- الأقارب مشكلات وحلول، طبع مكتبة الفخراوي - البحرين.

٢٢- الموجز في علوم القرآن - بين يديك.

المحتويات

ترجمة الأستاذ الشيخ الدكتور الصادقي (دامت بركاته) ٧

نتاجه العلمي ٨

أهم مصنفاته ٩

مساهامات الشيخ في الثورة الإسلامية.. ١٥

الدرس الأول: كيفية تفسير القرآن الكريم ١٨

التفسير لغة ١٩

التفسير اصطلاحا ٢٠

الدرس الثاني: مقدمات تفسير القرآن الصحيح ٢٥

مهام المفسر للقرآن... ٣٠

الدرس الثالث: الحروف الرمزية في القرآن الكريم ٥١

أين ذكرت هذه الحروف؟.. ٥١

آراء المتخصصين في الحروف الرمزية في القرآن............................. ٥٢

ما ذهب إليه بعض أعلام التفسير ٦١

الدرس الرابع: أهم الطرق في تفسير القرآن الكريم........................ ٦٥

١- المنهج الشائع ٦٦

٢- المنهج الكلامي أو الفلسفي ٦٧

٣- المنهج الصوفي ٦٨

٤- المنهج العلمي ٦٨

٥- المنهج التاريخي ٧٠

٦- المنهج الموضوعي ٧١
٧- مناهج معاصرة ٧٤
الدرس الخامس: علوم القرآن الكريم ٧٥
تعريف علوم القرآن لغةً، واصطلاحاً ٧٦
أولاً: العلم لغةً ٧٦
ثانياً: العلم إصطلاحاً ٧٧
تعريف القرآن لغةً واصطلاحاً ٧٨
القرآن لغةً ٧٨
أ - القرآن المقروء المكتوب ٧٨
ب- الجمع ٧٩
جـ- اسم لكتاب الله تعالى ٧٩
القرآن اصطلاحاً ٨٠
ومحصلة ما تقدم ٨١
الدرس السادس: علوم القرآن تاريخُه وتقسيماته ٨٣
لمحة تاريخية عن علوم القرآن ٨٣
القرآن ومراحل التدوين ٨٤
الزرقاني، وتدوين علوم القرآن ٩١
تدوين علوم القرآن في القرن الأول للهجرة ٩١
تدوين علوم القرآن في القرن الثاني للهجرة ٩٢
تدوين علوم القرآن في القرن الثالث للهجرة ٩٣
تدوين علوم القرآن في القرن الرابع للهجرة ٩٤
تدوين علوم القرآن في القرن الخامس للهجرة ٩٤
تدوين علوم القرآن في القرن السادس للهجرة ٩٥
تدوين علوم القرآن في القرن السابع للهجرة ٩٥
تدوين علوم القرآن في القرن الثامن للهجرة ٩٥
تدوين علوم القرآن في القرن التاسع للهجرة ٩٦
الدرس السابع: مراحل تكوينية لمنهج التفسير ٩٧

عرضٌ موجز لمراحل تفسير القرآن ٩٨
١- مرحلة التكوين (صدور النص من النبي صلى الله عليه وآله) ٩٨
طرائق التفسير النبوي للقرآن ١٠١
٢- المرحلة الثانية التأصيل (ودور أهل البيت عليهم السلام والتابعين) ١٠٣
٣-المرحلة الثالثة: مرحلة التجديد (حداثة الخطاب القرآني) ١٠٦
الدرس السابع: تنزيل القرآن الكريم ١١١
معنى النزول..١١٢
أراء مدارس التفسير في نزول القرآن الكريم ١١٢
الأول: نزول القرآن من اللوح المحفوظ ١١٢
الدليل على هذا الرأي ١١٣
الثاني: نزول القرآن إلى الأرض ١١٣
الدليل على هذا الرأي ١١٤
الرأي الفصل في مسألة نزول القرآن ١١٤
الدرس الثامن: كيفيات الوحي في نزول القرآن الكريم ١١٧
الوحي لغةً ١١٧
الوحي اصطلاحا ١١٨
أهم الطرائق لتلقي الوحي ١١٩
وقفة مع الآية الكريمة ١٢٠
الدرس التاسع: كيف كان يتلقى النبي صلى الله عليه وآله القرآن؟ ١٢٥
الدرس العاشر: فلسفة تدرج نزول القرآن ١٢٩
الحكم التي من أجلها نزل القرآن تدريجاً ١٣٠
الحكمة الأولى:إيقاعية أثره في النفوس ١٣٠
الحكمة الثانية: التثبيت ١٣٢
الحكمة الثالثة: تيسير حفظه للناس ١٣٤
الحكمة الرابعة: مسايرة الأحداث ١٣٦
صورٌ لمسايرة القرآن للأحداث ١٣٧
١- حادثة الإفك ١٣٧

٢- حادثة ظهار خولة الأنصارية ١٣٨
٣- إجابات بحسب السؤال ١٣٩
الحكمة الخامسة: بيان إعجاز القرآن الكريم ١٤٢
الحكمة السادسة: التدرج التشريعي للقرآن ١٤٥
الدرس الحادي عشر: أسباب النزول سردٌ وتحليل ١٤٩
معنى سبب النزول ١٥٠
١- قضية مسجد ضرار ١٥٠
٢- إطعام الطعام المسكين واليتيم والأسير ١٥١
٣- مواقف أخلاقية ١٥٢
فوائد معرفة سبب النزول ١٥٢
١- الفائد الأولى: الاستعانة على فهم الخطاب القرآني ١٥٣
الفائدة الثانية: فهم الحكمة التعليلية ١٥٥
الفائدة الثالثة: معرفة من نزلت بحقه الآية ١٥٦
الدرس الثاني عشر: تعدد الأسباب، والمُنزِل واحد ١٦١
تعدد النازل والسبب واحد ١٦٢
مما تقدم يتضح لنا ١٦٣
عموم اللفظ وخصوص السبب ١٦٤
تفريعات على ما ذُكر ١٦٦
الدرس الثالث عشر: هل القرآن نزل على سبعة أحرف؟ ١٦٩
النسخ ما هو؟ ١٧٠
ما المراد من الأحرف السبعة؟ ١٧٤
القول الأول: نزل القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب ١٧٤
القول الثاني: نزل بلغة العجز من هوازن ١٧٥
القول الثالث: المراد سبع لغات من لغات العرب ١٧٥
القول الرابع: معنى سبعة، هي معان في القراءة ١٧٥
القول الخامس: القرآن على سبعة أحرف من مراتب العرب السبعة ١٧٦
القول السادس: المراد بها الأحرف الوجوه التي يقرأ بها القرآن ١٧٦

القول السابع: المراد من السبعة، سبعة أصناف من الكلام ١٧٧
الرأي الفصل في الحروف السبعة ١٧٧
أولا:تعارضها مع الروايات الصحيحة ١٧٨
ثانيا: تعارض الروايات مع بعضها البعض ١٧٩
ثالثا: أن القول بالأحرف السبعة تأكيد المخالفة لمنهج أهل البيت عليهم السلام ١٨٠
الدرس الرابع عشر: القرآن مكي ومدني ١٨٩
تعريف المكي والمدني ١٩٠
خصائص المكي والمدني ١٩١
مصادر معرفة المكي والمدني ١٩٣
شبهات حول المكي والمدني ١٩٤
الشبهة الأولى: إن القسم المكي يمتاز بتقطع الفكرة ١٩٥
جواب الشبهة ١٩٥
الشبهة الثانية: عنف الخطاب المكي، ولين الخطاب المدني ١٩٦
جواب الشبهة الثانية ١٩٦
الشبهة الثالثة: ضعف الأسلوب الجدلي في القسم المكي ١٩٧
جواب الشبهة الثالثة ١٩٧
الشبهة الرابعة: خلوا الخطاب المكي من التشريعات والقوانين ١٩٨
جواب الشبهة الرابعة ١٩٨
الشبهة الخامسة ٢٠٠
جواب الشبهة الخامسة ٢٠٠
القول الفصل في المكي والمدني ٢٠١
ما هي السور المكية والمدنية؟ ٢٠٢
مزج المكي بالمدني والمدني بالمكي ٢٠٤
الدرس الخامس عشر: ترتيب سور وآيات القرآن الكريم ٢٠٧
الآية لغة واصطلاحا ٢٠٧
الآية اصطلاحا ٢١٠
تعريف السورة ٢١٢

ترتيب الآيات والسور القرآنية ٢١٢
١- ترتيب الآيات ٢١٤
أ- ترتيب النزول ٢١٤
ب- ترتيب التدوين ٢١٥
شبهة في المقام، وجوابها ٢١٦
ج- ترتيب التلاوة ٢١٨
٢- ترتيب السور ٢١٩
أ- ترتيب نزول السور القرآنية ٢١٩
ب- ترتيب تدويني ٢٢٠
ج- ترتيب التلاوة القرآنية للقرآن ٢٢٠
توقيفية ترتيب السور والآيات ٢٢١
أسماء السور القرآنية وتقسيماتها ٢٢٤
هل أسامي السور توقيفي؟ ٢٢٤
تقسيمات السور القرآنية ٢٢٧
السبع الطوال ٢٢٧
٢-المئون ٢٢٨
٣-المثاني ٢٢٩
١- المفصل ٢٢٩
الدرس السادس عشر: نظرة في جمع القرآن الكريم ٢٣١
تعريف التحريف لغة واصطلاحاً ٢٣٧
أدلة عدم التحريف ٢٣٧
الدليل الأول القرآن ٢٣٨
الدليل الثاني: النقلي (الأحاديث الشريفة) ٢٣٩
الطائفة الأولى ٢٣٩
الطائفة الثانية ٢٣٩
الطائفة الثالثة ٢٤٠
الشيعة والقرآن الكريم ٢٤٢

١ـ يقول الإمام الشيخ الصدوق قدس سره ٢٤٢
٢ـ ويقول الإمام الشيخ المفيد قدس سره ٢٤٢
٣ـ ويقول الإمام الشريف المرتضى قدس سره ٢٤٣
٤ـ ويقول الإمام الشيخ الطوسي قدس سره ٢٤٤
٥ـ ويقول الإمام الشيخ الطبرسي قدس سره ٢٤٥
٦- ويقول الإمام الحلي، أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر قدس سره .. ٢٤٥
٧ـ ويقول الإمام الشيخ البهائي قدس سره ٢٤٦
٨- ويقول الإمام الشيخ جعفر كاشف الغطاء قدس سره ٢٤٦
٩- ويقول الإمام السيد محسن الحكيم الطباطبائي قدس سره ٢٤٦
١٠- رأي السيد محمد هادي الميلاني قدس سره ٢٤٧
١١- ويقول الإمام السيد محمد رضا الكلبايكاني قدس سره ٢٤٧
١٢- ويقول الإمام المجاهد السيد محمد الطباطبائي قدس سره ٢٤٧
١٣- ويقول الإمام الشيخ محمد جواد البلاغي قدس سره ٢٤٨
١٤ـ ويقول الإمام الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء قدس سره ... ٢٤٨
١٥ـ ويقول الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي قدس سره .. ٢٤٩
١٦ـ ويقول السيد الإمام الخميني قدس سره ٢٤٩
١٧ـ ويقول الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي قدس سره ٢٥٠
١٨- ويقول أستاذنا آية الله الصادقي (حفظه الله) ٢٥١
١٩- ويقول آية الله الشيخ فاضل النكراني (حفظه الله) ٢٥٢
هذه نظرتنا في الروايات القائلة بالتحريف ٢٥٣
ثلاث حقائق مهمّة! ٢٥٣
موقف علماء الشيعة من روايات التحريف ٢٥٥
علماء الشيعة ونظرية تحريف القرآن ٢٥٧
ما هو قرآن علي؟ ٢٥٧
روايات التحريف دخيلة على المسلمين ٢٥٩
علماء الشيعة ونظرية جمع القرآن ٢٥٩

الدرس السابع عشر: الخط الذي كتب به القرآن الكريم ٢٦٥
تاريخ الكتابة العربية ٢٦٥
الخط العربي الذي كتب به القرآن ٢٦٧
مسألة تنقيط القرآن الكريم ٢٧٠
الإعجام والتنقيط للقرآن الكريم ٢٧٠
أول من نقط المصاحف ٢٧١
مساهمة فاعلة لبعض علماء النحو والبلاغة............................ ٢٧٤
الدرس الثامن عشر: رسم المصحف، وشكله، وإعجامه ٢٧٧
ما هو رسم المصحف؟... ٢٧٨
توقيفية رسم المصحف... ٢٧٨
معنى الشكل والإعجام.. ٢٨١
الفاصلة في القرآن الكريم ٢٨٢
الدرس التاسع عشر: موجز في القراءة والقراء السبعة ٢٨٧
تعريف علم القراءات... ٢٨٧
من هم القراء السبعة، أو العشرة؟ ٢٨٩
١ - عبد الله بن عامر الدمشقي.............................. ٢٨٩
٢ - ابن كثير المكي.. ٢٩٠
٣- عاصم بن بهدلة الكوفي ٢٩١
٤- أبو عمرو البصيري ٢٩٣
٥- حمزة الكوفي ٢٩٥
٦- نافع المدني.. ٢٩٦
٧- الكسائي الكوفي ٢٩٧
قراءة أهل البيت عليهم السلام ٢٩٨
أهم المصادر ٣٠٣
كتب للمؤلف ٣٠٧
المحتويات.. ٣٠٩